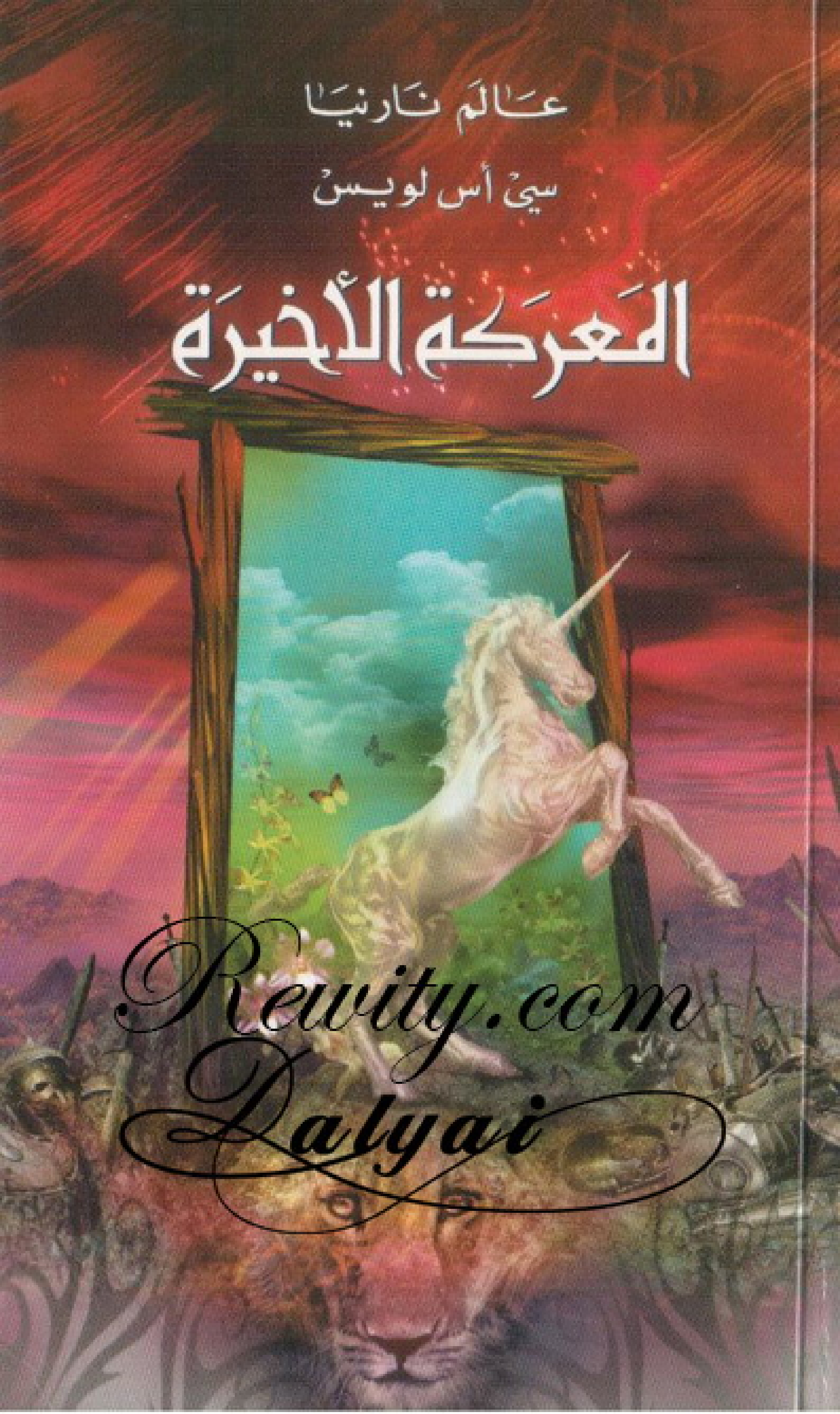

عالم نارنيا
سي أس لويس
المعركة الأخيرة
Rewity.com
Dalyai

عالم

نارنيا



المعركة الأخيرة ... أعظم المعارك

نارنيا ... حيث يثمِرُ الكذبُ خوفاً ... حيث يُمتحَن الولاء ... حيث يبدو كل رجاء قد ضاع.

خلال الأيام الأخيرة لنارنيا، تواجه أرضُ نارنيا أشرسَ تحدٍّ - لا مهاجِماً من الخارج، ولكنْ عدواً من الداخلِ. فقد تأصّل الكذب والخيانة، والملك ومجموعةٌ قليلة من أتباعه ذوِي الولاء هم الوحيدون القادرون على منع دمار كلّ ما هو عزيزٌ في هذه النهاية المهيبة لروايات «عالم نارنيا».

ISBN 90-5950-019-9

9 789059 500198

المَعركةُ الأخيرةَ

«لم يسبق لي في أيّ يومٍ من عمري أن شاهدتُ في السماوات كتابةً عن أمورٍ رهيبةٍ كالتي ما زلتُ أشاهدُها ليلاً منذُ أوّلِ هذا العام». هذا ما قاله نارذكاء القنطور.

في الحقيقة حين قُذِف بجِلّ ويُسطاس إلى نارنيا، اكتشفا أن كل شيء في حالةٍ من التشويش والاختلاط والشك. فقد أقنع شفطة، أذكى القرود وأبشعها وأكثرها تجاعيد في جسمه، لغزانَ الحمارَ الساذجَ بأن يرتدي جلدَ أسدٍ ويظهر كما لو كان أصلان. ولذا، حين بدأ «أصلان» يعطي أوامرَ رهيبةً غريبةً، غاص الحيوانات والأقزام في حيرةٍ بشأن ما عليهم عمله ومَن يصدّقون. والآن، ينبغي لتريان، ملكِ نارنيا، أن يتصرّف بسرعةٍ، قبل أن يفسد كلِ مجتمع الحيوانات وتتلاشى وحدة المملكة وتناغمها تماماً. ويا لها من مفاجأةٍ حين انضم بطرس وإدمون ولوسي إلى جِل ويُسطاس لمساعدة تِريان في المعركة العظيمة التي ستقرّر إلى الأبد مستقبل مملكة نارنيا المجيدة!

هذه هي المغامرة الشيّقة السابعة

في عالم نارنيا.

روايات عالم نارنيا

المَعركَة الأخيرَة

سي أس لويس
رسوم: پولين بَينز

ترجمة: سعيد باز

أوفير

تعريف الشخصيات

أصلان: ملك الغابات وسيِّدُها، ابن الإمبراطور في ما وراء البحر. إنه الأسد، الأسد العظيم. وهو يأتي ويذهب كيفما ومتى شاء، ويأتي لإطاحة الساحرة وإنقاذ نارْنيا. ويظهر أصلان في الكتب السبعة كلّها.

ديغوري كيرك: نقابل ديغوري من بداية «ابن أخت الساحر»، وهو مذكورٌ أيضاً في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». ولولا شجاعة ديغوري، لربما لم نسمع بنارْنيا قط. أما السبب فتجده في «ابن اخت الساحر».

پولي پلامر: وهي أول شخصٍ يغادِر عالمنا إلى نارْنيا. وتشترك مع ديغوري في بداية كل شيء في «ابن أخت الساحر».

جاديس: آخر ملكات شارْن التي دمَّرتها هي نفسُها. تظهر جاديس مع ديغوري و پولي في «ابن أخت الساحر»، وقد استولت على البلاد في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». وفضلاً عن كونها شرّيرةً كُلّيّاً، فهي خطِرة جدّاً أيضاً، حتى في «الكرسيّ الفضيّ».

الخال أندرو: يعتقد السيّد أندرو كِترلي أنّه ساحر. ولكنه مثلُ جميع الذين يعبثون بأُمور السحر لا يعرف بالحقيقة ما يفعله. وتأتي النتائج رهيبة في «ابنُ أختِ الساحر».

آل پيفِنسي:

بطرس پيفِنسي: الملك بطرس العظيم، الملك الأعلى

سوزان پيفِنسي: الملكة سوزان الرقيقة

إدمون پيفِنسي: الملك إدمون العادل

لوسي پيفِنسي: الملكة لوسي الباسلة

هؤلاء الأربعة من آل پيفِنسي، وهم أخوان وأختان، قدِموا إلى نارْنيا في زمان الشتاء الدائم إبَّان حكم الساحرة البيضاء، ومكثوا هناك سنين نارْنيانيةً كثيرة، وأقاموا عصر نارْنيا الذهبي. وبطرس هو الأكبر سناً، تليه سوزان، ثُمَّ إدمون ولوسي. وهم جميعاً متواجدون في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وفي «الأمير كاسبيان». كذلك يظهر إدمون ولوسي أيضاً في «رحلة جوَّابة الفجر»، كما يظهر إدمون ولوسي وسوزان في «الحصان وصبيُّه»،فيما يظهر بطرس وإدمون ولوسي في «المعركةالأخيرة».

شصطى: يحيطُ سرٌّ بهذا الولد الذي تبنَّاه صيَّاد سمكٍ من كالورمِن. فهو ليس الشخص الذي يبدو أنَّه هو، مثلما يكتشف هو نفسه في «الحصان وصبيه».

بري: هذا الجواد الحربي أيضاً فائقٌ للعادي. فقد اختُطِف وهو مُهرٌ من غاباتِ نارْنيا، وبيع حصاناً عبداً في كالورمِن، وهو بلدٌ واقعٌ وراء بلاد أرخيا وفي أقصى جنوبي نارْنيا. وتبدأ مغامرات بري عندما يحاول الفرار في «الحصان وصبيُّه».

آرافيس: هي طرقانة، نبيلةٌ من كالورمِن. إلا أنَّ فيها مزايا خيِّرة كثيرة تبرز إلى النور في «الحصان وصبيُّه».

هُوين: فرسٌ حسَّاسة حسنة الطباع، تتصادق مع آرافيس في «الحصان وصبيُّه».

الأمير كاسبيان: إنه ابن أخي الملك ميراز، ويُعرَف بلقب كاسبيان العاشر ابن كاسبيان، وهو ملك نارنيا الحقيقي (ملك النارْنيانيِّين القدامى). كذلك يُعرَف بألقاب «تلماري نارْنيا»، و«سيِّد كيرپرافيل»، و«إمبراطور الجُزُر المنفردة».وهو يظهر في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوَّابة الفجر»، و«الكرسيُّ الفضي»، و«المعركة الأخيرة».

ميراز: هو تلماريٌّ من بلاد تلمار الواقعة بعيداً ما وراء الجبال الغربية (وأجداد التلماريِّين أصلاً كانوا من عالمنا). وميراز هو مغتصب عرش نارْنيا في «الأمير كاسبيان».

ريبيتشيب: هو الفأر الرئيس. وهو الخادم المتواضع المتطوِّع لخدمة الأمير كاسبيان، ولعلَّه أكثر الفرسان بسالةً في نارْنيا كلِّها. فروسيَّتُه لا تُدانى، وكذلك شجاعته ومهارته في استعمال السيف. ويظهر ريبيتشيب في«الأمير كاسبيان»، و «رحلة جوَّابة الفجر»، و«المعركة الأخيرة».

يُسطاس كلارنس (صغرون): يُسطاس ابن خالةٍ لأولاد آل پيفِنسي، يُضطر إدمون ولوسي أن يذهبا ويزوراه. إلاَّ أنه يجد نارْنيا أشبهَ بصدمةٍ. وهو يظهر في «رحلة جوَّابة الفجر»، و«الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

جِلّ پُول: هي البطلة في «الكرسي الفضيّ»، تذهب إلى

نارنيا مع يُسطاس في مغامرته النارْنيانيّة الثانية. وهي تأتي أيضاً لنجدة نارْنيا في «المعركة الأخيرة».

الأمير ريليان: ابن الملك كاسبيان العاشر. وهو الأمير الضائع في نارْنيا. فابحث عنه وجِدْه في «الكرسي الفضّيّ».

بِرْكهموم: ساكن مُستنقعات (سباخ) طويل القامة، من المُستنقعات الشرقية في نارْنيا. شخص طويل يشكّل سلوكه الرزين جداً قناعاً لقلبه الصادق الوافر الشجاعة. يظهر في «الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

الملك تِريان: رجلٌ نبيلٌ وشجاع، آخر ملوك نارْنيا. هو وصديقه «جوهر»، أحادي القرن، يخوضان القتال معاً في «المعركة الأخيرة».

شِفطة: قردٌ عجوز وقبيح، ينوي أن يتولّى حكم نارْنيا، ويباشر أموراً لا يستطيع إيقافها في «المعركة الأخيرة».

لَغْزان: حمارٌ طيّب لم ينوِ قطُّ إيذاء أحد. غير أنّه ليس ذكيّاً جداً. وهو يقع ضحيةً لخداع شِفطة في «المعركة الأخيرة».

المحتويات

الفصل الأوّل

قُربَ بِركة المِرجَل

آخِرَ أيّام نارنيا، بعيداً إلى الغرب من خِربة المِصباح وعلى مقرُبة من الشلاّل الكبير، عاش قِردٌ من القُرود. وقد كان كبير السنّ جدّاً بحيث لم يقدر أحد أن يتذكّر متى جاء أوّلَ مرّة ليُقيم في تلك المنطقة، كما كان القردَ الأذكى والأبشع والأكثر تجاعيدَ بين القرود. وكان له بيتٌ صغير مَبنيٌّ من الخشب ومسقوفٌ بأغصان الشجر وأوراقها، في أعلى فُروع شجرةٍ ضخمة، وكان اسمُه شِفطة. ولم يكن في تلك الناحية من الغابة إلّا عددٌ قليل جدّاً من الحيوانات الناطقة والبشر والأقزام وأيّ نوع آخر من السكّان. إنّما كان لشِفطة صديقٌ وجارٌ واحد، هو حمارٌ اسمُه لَغزان. وكانا كِلاهما على الأقل يقولان إنّهما صديقان، ولكنْ بناءً على طريقة سير الأمور بينهما ربّما تصوّرتَ أنّ لَغزان كان خادِماً لشِفطة أكثر منه صديقاً له، إذ كان يقوم بالأشغال كلّها. فإذا نزلا إلى النهر معاً، يملأ شِفطة قِرَب الجلد الكبيرة ماء، ولكن لَغزان هو الذي يحملها إلى البيت. وإذا احتاجا إلى أيّ شيء من المُدن

الواقعة بعيداً على ضفاف النهر، ينـزل لَغزان وعلى ظهره سلاَّن فارغان، ثم يعود بهما مُحمَّلَين ثقيلَين. وكان شِفطة يأكل جميع الأطايب التي يأتي بها لَغْزان، مُفسِّراً ذلك بقوله: «أنت تعرف، يا لَغزان، أنَّني لا أقدر أن آكل العشب والشَّوك مثلَك أنت. وعليه، فمن الإنصاف أن أُعوّض عن ذلك بطُرق أُخرى». فكان لَغزان دائماً يقول: «طبعاً، يا شِفطة، طبعاً. أنا أعرف ذلك».

ولم يتذمَّر لَغزان قطّ، علماً منه بأنَّ شِفطة أذكى منه بكثير، حاسباً أنَّ قبول شِفطة أن يُصادِقه لُطفٌ زائدٌ منه. وإن حاول لَغزان مرَّةً أن يُناقِش أمراً ما، يقول له شِفطة دائماً: «لَغزان، أنا أفهم أكثر منك ما ينبغي أن نعمل. وأنت تعرف يا لَغزان أنَّك لستَ ذكيّاً!» فيقول لَغزان دائماً: «نعم، يا شِفطة، هذا صحيح تماماً. أنا لستُ ذكيّاً». ثمَّ يتنهَّد ويعمل مهما طلبه شِفطة منه.

وذاتَ صباحٍ في أوائل السنة، كانا كلاهما يمشيان معاً على طول شَطِّ بِركة المِرجَل. وبِركة المِرجَل هذه هي البركة الكبيرة تحت الجُروف الصخريَّة تماماً عند طرف نارنيا الغربيّ، وإليها تتدفَّق مياه الشلاَّلُ الكبير بضجيجٍ يُشبِه دويَّ الرعد الدائم، فيما يجري نهر نارنيا منها عندَ الطرف الآخر. ويجعل الشلاَّل مياه البركة دائماً تتراقص وتُبقبِق، وتفور وتُزبِد في دوائر لا تنتهي، كما لو كانت تغلي؛ ومن هُنا طبعاً صارت تُسمَّى بِركة المِرجَل. وهي تبلغ أعلى مستويات حركتها في أوائل الربيع، حين يزخر

الشلاَّل ويغزر بعد ذوبان الثلوج كلِّها على الجبال العالية الواقعة وراء نارنيا في البراري الغربيَّة التي منها يأتي النهر. وبينما كانا ينظران إلى بِركة المِرجَل، أشار شِفطة فجأةً بإصبعه النحيفة السوداء وقال:

«انظُر! ما ذلك؟»

فردَّ لَغزان: «عمَّ تسأل؟»

أجاب شِفطة: «عن ذلك الشيء الأصفر الذي سقط توّاً مع مياه الشلاَّل. انظر! ها هو يظهر من جديد، وهو يطفو. علينا أن نعرف ما هو».

فسأل لَغزان: «أعلَينا ذلك؟»

وأجابه: «طبعاً، علينا ذلك. فقد يكون شيئاً نافعاً. ما عليكَ إلَّا أن تقفز إلى الماء وتأتيَ به. وعندئذٍ نقدر أن نتفحَّصه جيِّداً».

فهزَّ لَغْزان أُذنيه الطويلتين، قائلاً: «أعليَّ أن أقفز إلى الماء؟»

وأجاب القِرد: «حسناً، وكيف نحصل عليه إن لم تقفز؟»

فقال لَغزان: «ولكنْ... ولكنْ ألا يكون أفضلَ أن تقفز أنت إلى الماء؟ لأنك، كما ترى، أنت هو الذي يريد أن يعرف ما ذلك، أما أنا فلا أُريد أن أعرف. ثُمَّ إنَّ لك يدَين، كما ترى. فأنت قادرٌ على الإمساك بالأشياء بمثل مهارة الإنسان أو القزم. أمَّا أنا فليس لي إلَّا حوافر».

وقال شِفطة: «صحيح، يا لَغزان. لم أكُن أحسب قطُّ



أنّك قد تقول قولاً كهذا. في الحقيقة إني لم أتوقَّع ذلك منك!»

وإذ تبيَّن للحمار أنَّ شِفطة استاء منه كثيراً، تكلَّم بصوتٍ يغلب عليه الخضوع قائلاً: «تُرى، في أيِّ قولٍ أخطأتُ؟ لقد كان كلُّ ما قصدتُه أن..».

فأجاب القرد: «أتريد منّي أنا أن أخوض الماء، وكأنّك لا تعرف جيِّداً كم صدورُ القُرود ضعيفةٌ دائماً وكيف يُصابون بالرَّشح بمنتهى السهولة؟ حسنٌ جدّاً. سوف أخوض الماء. إنّني الآن أشعر بكثير من البرد في هذه

الريح القارسة. ولكنّني سأنزل إلى الماء، وربمّا أموت. وعندئذٍ ستندم أنت». وقد بدا صوت شِفطة كصوت مَنْ يُوشِك أن ينفجر بالبكاء.

فقال لَغزان بصوتٍ بين النهيق والكلام: «رجاءً لا تنزل، رجاءً لا تفعل، رجاءً... أنا لم أقصد شيئاً من ذلك، يا شِفطة، صدقاً لم أقصِد. فأنت تعرف كم أنا غبيٌّ وكيف لا يُمكنني أن أُفكِّر بأكثر من شيء واحد في وقتٍ واحد. لقد نسيتُ أمر صدرك الضعيف. طبعاً، أنا سأخوض الماء. ولا ينبغي لك أن تفكِّر بأن تفعل أنت ذلك. عِدْني بألّا تفعل هذا، يا شِفطة!»

وهكذا وعده شِفطة بذلك، فمضى مُسرعاً وحوافره الأربعةُ تقرع حافةَ البِركةِ الصخريَّةَ ليجد مكاناً يستطيع النزول منه. وإذا استثنينا البرد، لم يكُن خوض المياه المُبقبِقة والمُزبِدة نُزهة يسيرة، فكان على لَغزان أن يتوقَّف دقيقةً كاملة وهو يرتجف قبل أن يُقرِّر النزول. ولكنْ عندئذٍ ناداه شِفطة من وراءُ وقال: «لَغزان، ربمّا كان عليَّ أنا أن أنزل، رُغمَ كلِّ شيء!» فلمّا سمع لَغزان ذلك قال: «كلاّ! لقد وعدتَني. وها أنا أدخُل الماءَ الآن». ودخلَ فعلاً!

ولطمَت وجهه كتلة زَبَد كبيرة، فامتلأ فمه ماء، ولم يعُد يقدر أن يُبصِر جيِّداً. ثمَّ غاص كلّه تحت الماء بضعَ ثوانٍ، ولمّا طلع ثانيةً كان في مكانٍ آخر من البركة. عندئذٍ التقطته الدُّوّامة وجرفته بسرعةٍ وهو يدور حول نفسِه حتّى صار تحت الشلاّل تماماً، فدفعته قوّة الماء إلى الأعماق العميقة

بحيث ظنَّ أنَّه لن يتمكَّن من حبْس نفَسه، إلى أن طلع من جديد. وبعدما طلع واقترب أخيراً من ذلك الشيء الذي كان يحاول الإمساك به، ابتعد الشيءُ عنه بعيداً حتَّى صار هو أيضاً تحت الشلاَّل فدُفع إلى الأعماق، ولمَّا برز مرَّةً أُخرى كان أبعد عنه من ذي قبل.

ولكنْ أخيراً، بعدما أنهكه التعب حتَّى كاد يموت، وترضَّض كلُّ جسمه وخدر من البرد، نجح في إطباق أسنانه على ذلك الشيء. ثمَّ خرج من الماء حاملاً إيّاه أمامه وقدِ علق فيه حافِراه الأماميّان، إذ كان كبيراً كالجلد أو البساط الذي يُفرَش قُدّام الموقد، وثقيلاً وبارداً ولَزِجاً. ثمَّ طرحه على الأرض أمام شِفطة، ووقف وهو يرتجف والماءُ يتقطَّر منه، محاولاً أن يستعيد أنفاسه. ولكنَّ القرد لم ينظر إليه قطُّ ولا سأله عن حاله، إذِ انشغل تماماً بالدوران حول ذلك الشيء مراراً وبنَشره ولمسه وشَمّه. وبعدئذٍ برقت عيناه بوميضٍ خبيث، وقال: «إنَّه جِلدُ أسَد!»

فقال لَغزان لاهثاً: «إي... أوَه... أوه... أُه، أهوَ كذلك؟»

وقال شِفطة لنفسه: «والآن، يا تُرى، يا تُرى، يا تُرى...». إذ كان يفكِّر تفكيراً جدّيّاً للغاية.

ثمَّ قال لَغزان توّاً: «يا تُرى، مَن قتل الأسد المسكين؟ ينبغي أن يُدفَن. علينا أن نُقيم له جنازة».

فقال شِفطة: «أُوه، لم يكُن أسداً ناطقاً. فلا داعيَ لتكلُّف تلك المشقَّة. ليس من حيوانات ناطقة وراء

شلالات الماء في أعالي البراري الغربيَّة. لا بدَّ أنَّ هذا الجِلد هو جِلد أسدٍ بَرّيٍّ أبكم».

وعلى فِكرة، كان ذلك صحيحاً. فإنَّ صيّاداً من بني البشر كان قد قتل هذا الأسد وسلخ جلده في مكانٍ ما من البراري الغربيَّة العالية قبل بضعة أشهر. ولكنْ لا دخل لذلك في هذه القصَّة.

غير أنَّ لَغزان قال: «ومع ذلك، يا شِفطة، فحتَّى لو كان هذا الجلد هو مجرَّدَ جلدِ أسدٍ بَرّيٍّ أبكم، أفلا ينبغي أن ندفنه دفناً لائقاً؟ أعني: أليست جميعُ الأُسود بالحريّ... حسناً... ذاتَ مهابة؟ وذلك بسبب ذاك الذي تعرِف مَن هو! ألا ترى ذلك؟»

فأجابه شِفطة: «لا تبدأ بإشغال رأسك بالأفكار، يا لَغزان، لأنَّ التفكير — كما تعرف — ليس من اختصاصك وليس نقطة قوة عندك. سنصنع من هذا الجِلد معطفاً شتويّاً فاخراً يقيك البرَد».

فقال الحمار: «آه، لا أظنُّ أنَّ هذا سيُعجبني. فإنَّه سيبدو... أعني أنَّ الحيوانات الأُخرى ستظنُّ... أقصد أنَّ عليَّ ألاَّ أشعر...».

وسأله شِفطة، وهو يحكُّ جسمه من تحتُ إلى فوقُ على طريقة القرود: «عمَّ تتكلَّم؟»

فأجاب لَغزان: «لا أظنُّ أنَّه سيكون من الاحترام للأسد العظيم، لأصلانَ بذاته، أن يجول حمارٌ مثلي لابساً جلد أسد!»

وقال شِفطة: «كُفَّ عن الجدال، رجاءً! ماذا يعرف حمارٌ مثلك عن أُمور من هذا النوع؟ أنت تعرف، يا لَغزان، أنّك لا تُتقِن التفكير، وعليه فلماذا لا تدعني أتولّى التفكير عنك؟ لماذا لا تعاملني كما أُعاملك؟ فأنا لا أعتقد أنيّ أقدر أن أفعل كلّ شيء. وأنا أعرف أنّك أفضل منّي في بعض الأُمور. لذلك سمحتُ لك بخوض البركة، علماً منّي بأنّك أقدَرُ منّي على ذلك. ولكنْ لماذا لا يمكنني أن أقوم بدوري حين يتعلّق الأمر بشيء أقدر أنا عليه وتعجز عنه أنت؟ ألَن يُسمَح لي بأن أفعل أيَّ شيء على الإطلاق؟ فكُن منصِفاً فعلاً، وليقُم كلٌّ منّا بدوره».

فقال لَغزان: «أوه، طيّب، طبعاً... ما دُمتَ قد قلتَ ذلك».

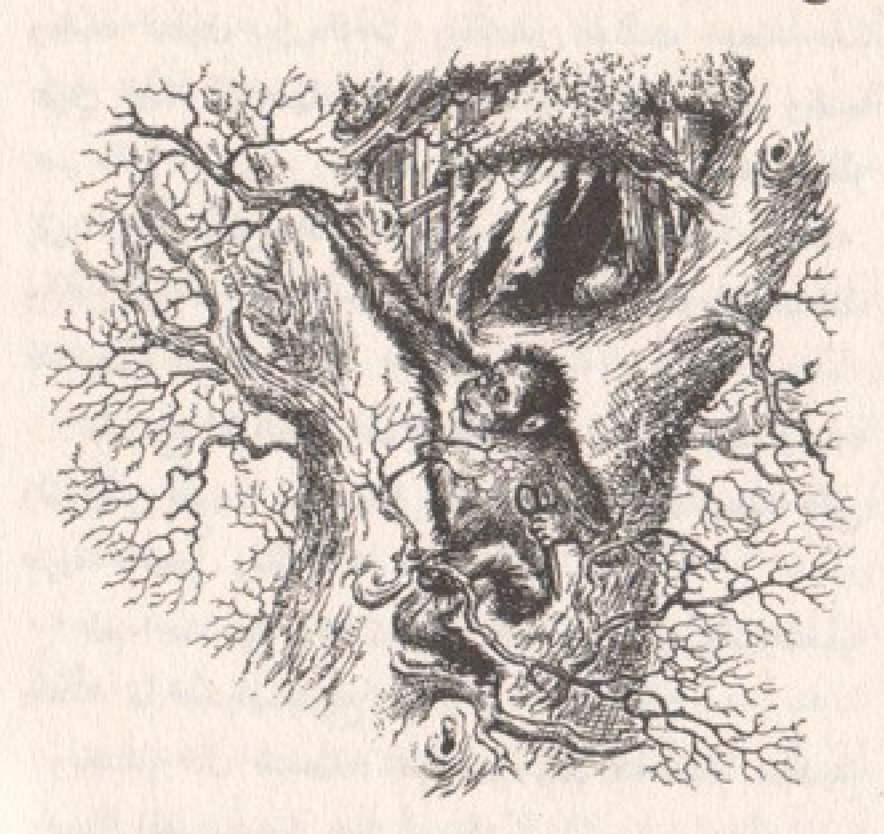
وقال شِفطة: «اسمعْ! خيرٌ لك أن تُهرول في جولةٍ مُنعِشة نازلاً على ضفّة النهر إلى مخاضة السَّقسقة لعَلّك تجد لدى القوم هناك شيئاً من البرتقال أو الموز».

فقال لَغزان متوسّلاً: «ولكنّني مُتعَب جداً يا شِفطة».

وقال القرد: «نعم، ولكنّك تُعاني البرْد والبَلَل كثيراً. فأنت بحاجة إلى شيء يُدفئك. والهرولة السريعة تفي بالغرض تماماً. ثمّ إنّ السّوق تُقام اليومَ في مخاضة السقسقة».

عندئذٍ قال لَغزان طبعاً إنّه سيذهب.

وما إن صار شِفطة وحده، حتّى مشى مُتثاقلاً، حيناً على قدميه وحيناً على الأربع، إلى أن وصل إلى شجرته. ثمّ صعد مترجّحاً من غصن إلى غصن، مُثرثِراً ومكشّراً كلّ حين، حتّى دخل بيته الصغير. وأحضر إبرة وخيطاناً ومقصّاً كبيراً، إذ كان قرداً ذكيّاً وقد علّمه الأقزام كيف يُخيّط. ثمّ وضع كُرةَ الخيطان (وقد كانت خيطانُها من النوع الثخين الذي يُشبِه الأمراس* أكثر من الخيطان)



* الأمراس: جمع مرسة، أي حبل. والمرسة حبل مكوّن من خيطين أو أكثر مجدولة معاً.

داخلَ فمه، بحيث انتفخ خدُّه كما لو كان يمتصُّ قطعة طوفي كبيرة، وحمل الإبرة بين شفتيه والمقصَّ بكفِّه اليُسرى. ثمَّ نزل عن الشجرة ومشى متثاقلاً إلى جلد الأسد، حيث قرفص وباشر العمل.

وتبيَّن له حالاً أنَّ جسم جلد الأسد سيكون طويلاً جداً على لَغزان، وأنَّ رقبة الجلد ستكون قصيرةً جداً عليه. فقصَّ من الجسم قطعة كبيرة واستخدمها في صنع طوق طويل يُغطِّي رقبة لَغزان الطويلة. ثُمَّ اقتطع رأس الجلد وخيَّط الطوق بين الرأس والكتفين. وثبَّت خيطاناً عند طرَفي الجلد ليربطها معاً تحت صدر لَغْزان وبطنه. وكلَّما عبر طائر فوق رأس شِفطة، كان يتوقَّف عن عمله وينظر إلى الأعلى بقلق، إذ لم يكن يريد أن يرى أحدٌ ما يفعله. ولكنْ لم يكن أيُّ واحد من الطيور التي رآها طائراً ناطقاً، فلم يهمَّه ذلك.

ثمَّ رجع لَغْزان في وقتٍ متأخِّر من عصر ذلك النهار، ولم يكن يُهرول بسرعة بل يمشي مشياً ثقيلاً وبطيئاً على طريقة الحمير. وقال:

«لم أجد أيَّ بُرتقال، ولم أجد أيَّ موز، وأنا مُتعَب جداً». ثمَّ تمدَّد ليستريح.

بعدئذٍ قال شِفطة: «تعالَ وجرِّبْ معطفك الجديد الجميل المصنوع من جلدِ أسد!»

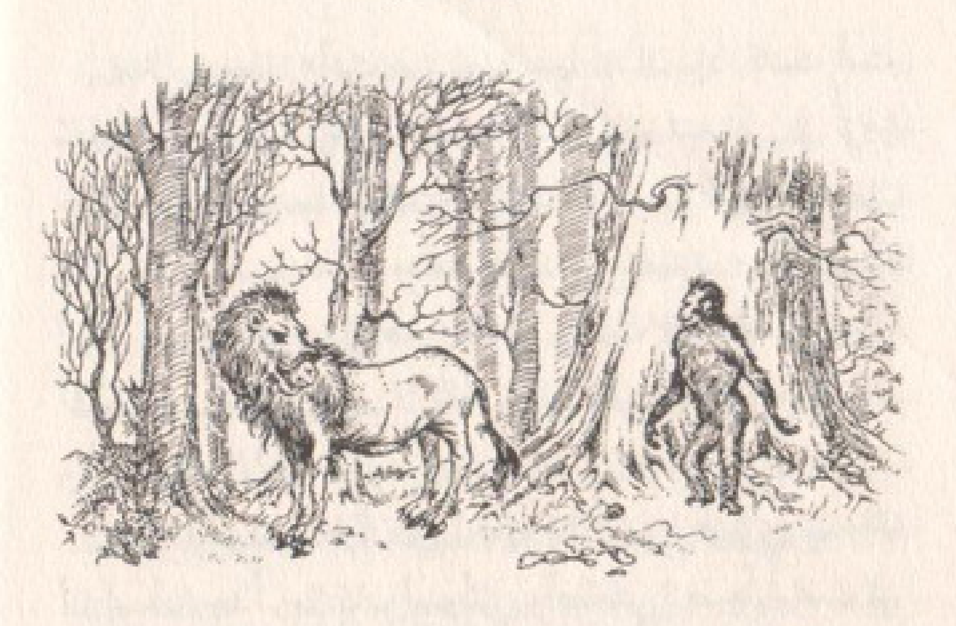
فأجاب لَغزان: «آه، أُفٍّ من ذلك الجِلد العتيق. سأُجرِّبه في الصباح. أنا متْعَب جداً الآن».

فقال شِفطة: «أنت غير لطيف يا لَغزان. إذا كنت أنت مُتعَباً، فماذا تقول عنّي؟ بينما كنتَ أنت تتمشَّى في نُزهةٍ حُلوة مُنعِشة وسط الوادي، كنتُ أنا طول النهار أشتغل بكدٍّ حتّى أصنع لك معطفاً. إنَّ يديَّ مُتعَبتان جداً بحيث أجدُ صعوبةً في حملِ هذا المقصّ. وأنت الآن لا تقول لي 'شكراً'... حتّى إنّك لا تُلقي ولو نظرة على المعطف... ولا يعنيك الأمر... و... و...».

عندئذٍ نهض لَغزان في الحال قائلاً: «يا عزيزي شِفطة، أنا آسِف جداً. ما كان أسوأني وأفظعني! طبعاً أرغب في تجريب المعطف، وهو يبدو فاخراً بالفعل. هلّا تجرِّبه عليَّ حالاً! رجاءً!»

فقال القرد: «حسناً، إذاً قِف». وكان الجلد أثقل من أن يستطيع حمْله. إلّا أنّه أخيراً، بعد كثيرٍ من الجرِّ والدَّفع والنَّفخ والنَّفْث، تمكَّن من وضعِه على الحمار. ثمَّ ربطه تحت جسم لَغْزان، كما ربط أرجُلَه على أرجُل لَغْزان، وذيله على ذيل لَغزان. وقد بدا جزء كبير من أنف لَغزان ووجهه الرماديَّين من خلال الفم المفتوح في رأس الأسد.

فلم يكن ممكناً أن ينخدع لحظةً واحدة أيُّ من سبق أن شاهد أسداً حقيقيّاً. ولكنْ لو أنَّ شخصاً لم يسبق له قطُّ أن رأى أسداً نظر إلى لَغزان اللابس جلد أسد، لحسبه أسداً بالفعل، إن كان لا يقترب إليه كثيراً، وكان الضوء باهتاً، وإن كان لَغْزان لا يُطلِق أيَّة نهقة ولا تُصدِر حوافرُه أيَّ صوت.



وقال القرد: «إنّكَ تبدو رائعاً، رائعاً. فإن رآك أحدٌ الآن يحسبك أصلان الأسدَ العظيم بذاته».

فردّ لَغزان: «سيكون ذلك مُروِّعاً».

وقال شِفطة: «لا، لَن يكون. فالجميع سيفعلون ما تأمرهم به».

«ولكنّي لا أُريد أن آمُرَهم بشيء».

فقال شِفطة: «إنّما فكِّر في الخير الذي يمكننا أن نعمله! سأكون أنا مُستشارَك، كما تعلم. وسأُفكِّر لك بأوامر منطقيّة تُصدِرها. وسيكون على كلّ واحد أن يطيعَنا، حتّى الملك نفسه. وسنضع جميع الأُمور في نارنيا في نِصابها».

فسأل لَغزان: «ولكنْ أليست جميع الأُمور في نصابها الآن؟»

وزعق شِفطة: «ماذا! جميع الأُمور في نصابها وليس عندنا أيّ برتقال أو موز؟»

فقال لَغزان: «حسناً، أنت تعرف أنّ مثل هذه الأشياء لا يريدها أشخاص كثيرون، بل أظنّ بالحقيقة أنّك الوحيد الذي تريدها».

وقال شِفطة: «وهناك السُكّر أيضاً!»

فردّ الحمار: «أحُم... ما أجمل أن يكون لدينا سُكّر أكثر!»

وقال القرد: «إذاً، حُسِم الأمر: ستتظاهر بأنّك أصلان، وأنا سأُعلّمك ما تقول».

فقال لَغزان: «لا، لا، لا! لا تقُل مثل هذه الأمور الرهيبة. سيكون هذا أمراً خاطئاً، يا شِفطة. قد أكون غيرَ ذكيٍّ كثيراً، ولكنّي أعرف هذا جيّداً. فماذا سيحلّ بنا إذا ظهر أصلانُ الحقيقيّ؟»

أجاب شِفطة: «أتوقّع منه أن يكون مسروراً جدّاً. فربّما أرسل إلينا جلد الأسد قصداً، حتّى نتمكّن من إعادة الأُمور إلى نصابها. وعلى كلّ حال، فهو لا يظهر أبداً، كما تعلم... ليس في هذه الأيّام».

تلك اللحظةَ حدث قصفُ رعد شديد فوق رأسَي القرد والحمار تماماً، وهزّ الأرضَ زلزالٌ خفيف. ففقد كِلا الحيوانَين توازُنَهما وطُرِحا أرضاً على وجهَيهما.

وما إنِ استعاد لَغزان نفَساً كافياً للنُطق حتّى قال لاهثاً: «عجباً! هذه علامة؛ هذا إنذار. أنا على يقين بأنّنا كنّا نعمل عملاً قبيحاً وشِرّيراً جدّاً. اخلَع عنّي هذا الجلد الكريه حالاً!»

فقال القرد (وعقلُه يشتغل بمنتهى السرعة): «لا، لا! هذه علامة مُعاكِسة. فقد كنتُ على وشك القول إنَّه لو أراد لنا أصلان الحقيقيّ — كما تُسمّيه أنت — أن نستمرَّ في هذا العمل لأرسل لنا قصف رعد وهزَّة أرضيَّة خفيفة. وكان ذلك على رأس لساني، إلّا أنَّ العلامة نفسها حدثت قبل تمكُّني من النُطق به. فعليك أن تقوم بهذا الآن، يا لَغزان. ورجاءً، لنكفَّ عن الجدال. فأنت تعرف أنك لا تفهم هذه الأُمور. وماذا يمكن أن يعرفه الحمار عن العلامات والإشارات؟»

الفصل الثاني

تهوُّر المَلِك

بعد ثلاثة أسابيع تقريباً، كان آخِر ملوك نارنيا جالساً تحت السنديانة الضخمة القريبة من مدخل كوخ الصيد الخاصّ به، حيث اعتاد أن يُقيم مراراً مدَّةَ عشرة أيّام أو ما يُناهِزها في موسم الربيع البهيج. وكان ذلك الكوخ بناءً مُنخفِضاً مسقوفاً بأغصان الشجر، غيرَ بعيدٍ عن الطرَف الشرقيّ من خِربة المصباح، وعلى مسافةٍ لا بأسَ بها من مُلتَقى النهرين. وقد كان الملك يهوى الإقامة هناك مستريحاً هانئاً، بعيداً عن أُبَّهة البلاط وفخامته في كَيرپَراڤيل، المدينة الملوكيّة.

هذا الملك هو تِريان، وكان له من العمر آنذاك ما يُراوِح بين العشرين والخمس والعشرين. وكانت كتفاه قد صارتا عريضتين وقويَّتين فعلاً، وأطرافُه ذاتَ عَضَل صُلب، إلّا أنَّ شعر لحيته كان ما يزال خفيفاً. أمّا عيناه فكانتا زرقاوين، وكان وجهه شريفاً وجريئاً.

لم يكن معه في ذلك الصباح الربيعيّ أحدٌ غير صديقه

الأعزّ: جَوهَر أُحاديّ القَرن*. وكانا يُحبّان أحدُهما الآخر كأخَوَين، وقد أنقذ كلاهما حياة الآخر في الحروب. وكان هذا الحيوان المهيب واقفاً قرب كرسيّ الملك وهو يلوي عُنقه ليصقل قرنَه الأزرق على بياض خاصرتيه الثلجيّ. فإذا بالملك يقول:

«لا يمكنني اليومَ، يا جَوهر، أن أُباشِر أيَّ عمل، ولا أن أقوم بجولة صَيد. فأنا لا أقدر أن أُفكّر بأيّ شيء غير هذا الخبر الرائع. أتظنُّ أنّنا سنسمع المزيد عنه اليوم؟»

وأجاب جَوهَر: «مولاي، هذه أعجب أخبار سُمِعت على الأطلاق في أيّامنا، أو في أيّام آبائنا، أو في أيّام أجدادنا... إذا كانت صحيحة».

فقال الملك: «وكيف يُعقَل ألّا تكون صحيحة؟ فمنذ أكثر من أسبوع جاءت أوائل الطيور مُصفّقةً بأجنحتها فوقَنا وقائلةً: أصلان هنا، أصلان قد جاء إلى نارنيا من جديد. وبعد ذلك بلّغتنا السناجب الخبر، إذ قالت إنّه مؤكّد أنّه في الغابات، مع أنّها لم تَرَه بأعيُنها. ثمّ جاءنا الغزال، قائلاً إنّه قد رآه بعينَيه، من مسافةٍ بعيدة تحت ضوء القمر، في خِربة المصباح. وبعد ذلك جاء ذلك الرجُل الأسمر ذو اللحية، ذلك التاجر الكالورمنيّ. ومع أنّ أهل كالورمن لا يعنيهم أمرُ أصلان في شيء، بعكسنا نحن، فقد تحدّث

* أحادي القرن: كائن أسطوري يتمثّل بجسم حصان أبيض له قرن حلزوني في جبهته.

عن هذا الأمر كحقيقة لا يرقى إليها الشكُّ أبداً. ثُمّ جاءنا الغُرَير مساءَ البارحة، قائلاً إنّه هو أيضاً قد رأى أصلان».

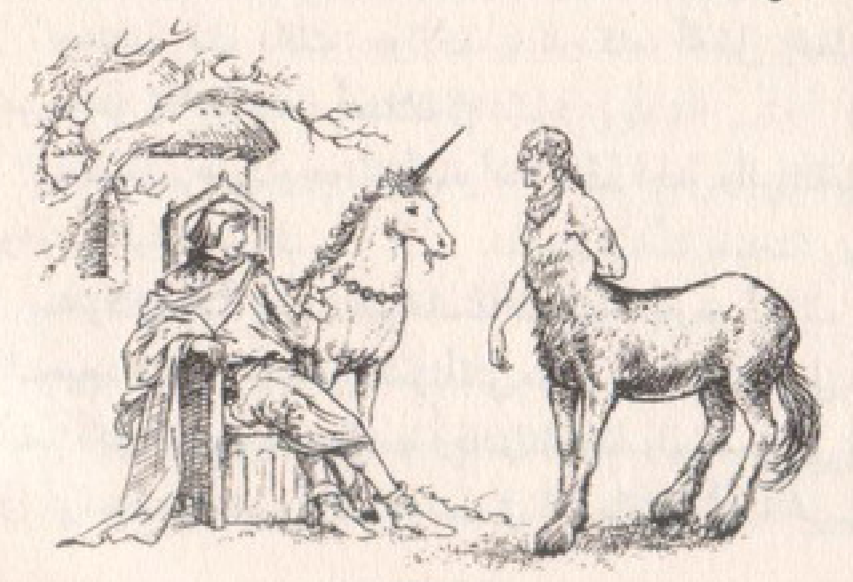
أجاب جَوهَر: «صحيح، يا مولاي. أنا أُصدّق ذلك كلَّه. وإذا بدا أنّني غير مُصدّق، فهذا فقط لأنّ فرحي أعظم من أن أسمح لاعتقادي بأن يترسّخ. فالأمر يكاد يبدو أروع من أن يُصدّق».

فقال الملك مُتنفّساً الصُعَداء، وقد سَرَت رعشة البهجة في أوصاله تقريباً: «نعم! إنّه أروع بكثير من أيّ أمرٍ رجوتُ حدوثَه طوالَ عُمري».

عندئذٍ قال جَوهر: «اسمَع!» مائلاً برأسه إلى ناحية وناصباً أُذنيه إلى الأمام.

وسأل الملك: «ما الأمر؟»

فردّ جَوهَر: «حوافر، يا مولاي. حصانٌ يعدو مُسرِعاً. حصانٌ ثقيلٌ جدّاً. لا بدّ أنّه قنطورٌ من القناطير. انظُر... ها هو!»



وإذا بقنطورٍ كبير ذي لحيةٍ ذهبيَّة، على جبينه عَرَقُ إنسان وعلى جَنبيه الكستنائيَّين عَرَق حصان، يندفع نحو الملك ويتوقَّف وينحني مُنخفضاً، قائلاً بصوتٍ عميق كصوت الثور: «تحيَّةً، أيُّها المَلِك!»

فأدار الملك رأسه ونظر نحو باب كوخ الصيد، قائلاً: «هاي! أحضِرْ بعض النبيذ للقنطور الشريف. أهلاً بك، يا نارذكاء! عندما تستجمع أنفاسك، تُطلِعنا على رسالتك وغرضك من هذه الرحلة».

وخرج من الكوخ خادمٌ يحمل طاساً خشبيّاً كبيراً عليه نُقوش غريبة، وقدَّمه إلى القنطور. فرفع القنطور الطاس وقال: «أشربُ أوَّلاً نخْب أصلان والحقيقة، يا مولاي. وثانياً، أشرب نخْب جلالتك».

ثمَّ أتى على النبيذ كلِّه بجرعةٍ واحدة، وناول الخادمَ الطاس الفارغ (وقد كان ذلك النبيذ يكفي ستَّة رجال أشدَّاء).

وعندئذٍ قال الملك: «والآن، يا نارذكاء، أتحمل إلينا مزيداً من الأخبار عن أصلان؟»

فظهرت على وجه نارذكاء علاماتُ الجِدِّ والرزانة، وعبس قليلاً، ثمَّ قال:

«مولاي، أنت تعرف كم عشتُ طويلاً وأنا أدرس أحوال النجوم. فنحن القناطير نُعمِّر أكثر منكم أنتم البَشَر، بل أيضاً أكثر من بني جنسك يا أُحاديَّ القرن. ولم يسبق لي في أيِّ يومٍ من عمري أن شاهدتُ في السماوات كتابةً عن

أُمور رهيبة كالتي ما زلتُ أُشاهدها ليلاً منذ أوَّل هذا العام. فالنجوم لا تقول شيئاً عن مجيء أصلان، ولا عن السلام، ولا عن الفرح. وقد عرفتُ من حكمتي أنَّه لم تحصل بين الكواكب منذ خمس مئة سنة مثلُ هذه الاقترانات المُنذِرة بالسوء. لقد فكَّرتُ فعلاً في المجيء لإنذار جلالتكم بأنَّ خطراً هائلاً يُخيِّم على نارنيا. ولكنْ بلغتني في الليلة الفائتة شائعةُ وصول أصلان إلى نارنيا. مولاي، لا تُصدِّق هذه الحكاية. فالأمر غير معقول. إنَّ النجوم لا تكذب أبداً، أمَّا البشر والحيوانات فيكذبون. فلو كان أصلان آتياً إلى نارنيا بالفعل، لأنبأتني السماء بذلك. ولو كان قد جاء فعلاً، لكانت جميع النجوم الفائقة الكرامة احتشدت تكريماً له. فهذا الخبر كذب بكذب!»

فقال الملك بشدَّةٍ وشراسة: «كذب! أيُّ مخلوقٍ في نارنيا، أو في العالم كلِّه يستجرئ أن يكذب في مسألة كهذه؟» وبغير أن يدري، وضع يده على مِقبَض سيفه.

أجاب القنطور: «سيِّدي الملك، ذلك أمرٌ لا أعرفه. ولكنَّني أعرف أنَّ على الأرض كذَّابين كثيرين، إنَّما ليس بين النجوم كذَّابٌ واحد».

وقال جَوهَر: «تُرى، ألا يُمكِن أن يأتي أصلان رُغم إنباء النجوم كلِّها بعكس ذلك؟ إنَّه ليس عبد النجوم، بل هو صانعُها. أفلا يُقال في جميع القصص القديمة إنَّه ليس أسداً أليفاً؟»

فهتف الملك: «حسناً قُلتَ، حسناً قُلتَ، يا جَوهَر. فهذه هي الكلمات المناسِبة: ليس أسداً أليفاً. هذا ما تقوله قِصَص كثيرة».

وكان نارذَكاء قد رفع يده توّاً ومال إلى الأمام ليقول للملك شيئاً بحماسةٍ شديدة، إذ أدار الثلاثة كلُّهم رؤوسهم ليُصغوا إلى صوتِ عويلٍ ونحيبٍ كان يقترب منهم بسرعة. وقد حالت كثافة الغابة إلى الغرب منهم دون رؤيتهم للقادم الجديد حتّى الآن. ثمّ ما لبثوا أن تمكّنوا من سماع الكلمات التي يُنادي بها الصوت:

«ويلٌ، ويلٌ، ويل! ويلٌ لإخوتي وأخواتي! ويلٌ للأشجار المقدّسة! ها هي الغابات تصير خراباً. لقد أُطلِقتِ الفؤوس علينا، وها نحن نُقطَع ونُطرَح أرضاً. ها هي الأشجار العظيمة تُوقَع هُنا وهناك».

وعند سماع الكلمة «هناك» برز المتكلّم للعيان. كان المتكلّم يُشبِه امرأةً لكنْ طويلة القامة جدّاً بحيث استوى رأسُها ورأس القنطور، ومع ذلك كان يُشبِه شجرةً أيضاً. ومن الصعب تفسير هذا الأمر إن كنتَ لم ترَ قطّ حوريّة غابات. ولكنّه يكون واضحاً تماماً إن كنتَ قد رأيتَ واحدةً. فقد كان في اللون

والصوت والشعر شيءٌ مختلف، بحيثُ إنّ الملك تِريان والمخلوقَين الآخرين عرفوا في الحال أنّ تلك كانت حوريّةَ شجرةِ زان. وقد صرخت: «العدلَ، سيّدي الملك! تعال لنجدتنا. اِحْمِ رعاياك. إنّهم يَقطعوننا ويُوقِعوننا في خربة المصباح. وقد طُرِح على الأرض حتّى الآن أربعون جذعاً كبيراً من إخوتي وأخواتي».

فهبَّ الملك واقفاً وجرّد سيفه قائلاً: «ماذا، يا سيّدة؟ أيقطعون غابة خِربة المصباح؟ أيقتلون الأشجار الناطقة؟ كيف يجرؤون؟ ومَن يجرؤ على ذلك؟ والآن، برأسِ أصلان..».

وقالتِ الحوريّة لاهثةً: «آاااه!» مرتعدةً كما من الألم، مرتعدةً مرّةً بعد مرّة كما لو كانت تتعرّض لضرباتٍ متكرّرة. ثمّ انطرحت جانباً بصورةٍ فجائيّة كما لو أنّ قدميها كِلتَيهما قُطِعتا من تحتها. ورأوها لحظةً منطرحةً بلا حراكٍ على العشب، ثمّ اختفت تماماً، فعرفوا ما قد جرى: أنّ شجرتها، على بعد بضعة أميال، قد قُطِعت وأوقِعَت.

ثمّ مرّت لحظاتٌ كان فيها حزن الملك وغضبه عظيمَين جدّاً حتّى عجز عن الكلام. وبعدئذٍ قال: «هيّا، يا صديقيّ. علينا أن نصعد في مجرى النهر ونجد الأوغاد الذين فعلوا ذلك، بأسرع ما يمكننا. فلن أترك واحداً منهم على قيد الحياة!»

فقال جَوهَر: «بكلّ طيبة خاطر، يا مولاي!»

ولكنّ نارذَكاء قال: «مولاي، كُن محترساً حتّى في غضبك العادل. إنّ ماجَرَياتٍ غريبةً تحدث. فإذا كان في

أعلى الوادي متمرِّدون مسلَّحون، فنحنُ الثلاثةَ أقلُّ عدداً من أن نواجههم. هلاَّ ترضى بأنِ تنتظر قليلاً ريثما..».

فقال الملك: «لن أنتظر ولو عُشرَ ثانية. ولكنْ بينما نمضي أنا وجَوهَر، انطلقْ عدْواً بأقصى سرعتك إلى كيرپراڤيل. وهاك خاتمي علامةً لك. أحضِر إليَّ عشرين فارساً مسلَّحاً على أحصنة مجهَّزة، وعشرين كلباً ناطقاً، وعشرة أقزام (ليكونوا جميعاً من رُماة السهام المَهَرة) وفهداً أو اثنين، وقَدَمصَخر المارد. وليلحقْ بنا هؤلاء جميعاً بأسرع ما يمكن».

أجاب نارذَكاء: «بكلِّ طيبة خاطر، يا مولاي». وفي الحال دار وأخذ يعدو شرقاً نازلاً عبر الوادي.

أمّا الملك فانطلق بسرعة كبيرة، وهو يُتمتِم لنفسه حيناً ويشدُّ قبضتيه حيناً، فيما مشى جَوهَر إلى جانبه وهو لا يقول شيئاً، فلم يُسمَع بينهما صوتٌ سوى خشخشة خفيفة صادرة عن سلسلة ذهب ثخينة معلَّقة حول عنق أُحاديّ القرن، فضلاً عن وقْع قَدَمين وأربعة حوافر.

وسرعان ما وصلا إلى النهر فانعطفا صعوداً حيث كانت طريقٌ فيها عشب، وصار الماء إلى يسارهما والغابة إلى يمينهما. ثمّ ما لبثا أن وصلا إلى مكانٍ صارت الأرض فيه أوعر ووصلت الغابة الكثيفة حتى حافة الماء. آنذاك لاح لهما الطريق، أو ما بقي منه، ممتدّاً على الضفّة الجنوبيّة، فكان عليهما أن يخوضا النهر لبلوغه. وبلغت

المياه حتّى إبطَي تِريان، إلّا أنَّ جَوهَر (إذ كانت له أربع أرجل فكان بالتالي أكثر ثباتاً) ظلَّ إلى يمين الملك حتّى يُخفّف حدَّة التيّار، وقد طوّق تريان بذراعه القويّة رقبة أُحاديّ القرن القويّة، وهكذا عبرا كلاهما النهر سالِمَين. وكان الملك ما يزال غاضباً جدّاً بحيث لم يلاحظ تقريباً برودة الماء. ولكنْ ما إن وصلا إلى الضفة الأخرى، حتّى عمد بالطبع إلى تجفيف سيفه على كتف عباءته، الذي كان الجزءَ الوحيد غير المُبلَّل منه.

ثمّ سارا نحو الغرب والنهرُ إلى يمينهما وخربةُ المصباح قدّامهما تماماً. ولم يقطعا مسافةً تزيد عن كيلومتر ونصف حتّى توقّفا كلاهما، وتكلّما كلاهما في اللحظة عينها. إذ قال الملك: «ماذا لدينا هنا؟» فيما قال جَوهَر: «انظر!»

فقال الملك تِريان: «إنّه طَوف!»

وقد كان كذلك فعلاً. إذْ إنَّ ستّة جذوع أشجار ضخمة، كلُّها مقطوعة حديثاً، وقد شُذِّبت منها أغصانها حديثاً، وهي مربوطة بعضُها مع بعض، كانت تنساب بسرعةٍ في مجرى النهر. وعلى مُقدَّم الطُّوف، كان يقف



فأرُ ماء بيده مِجذافٌ يُوجِّه الطُّوف به. فصاح الملك: «هاي! يا فأر الماء! ماذا أنت فاعل؟»

أجاب فأر الماء: «أنا آخِذُ خشباً حتّى أبيعه إلى الكالورمنيِّين، يا مولاي»، فيما مسَّ أُذنَه تحيَّةً كما كان من شأنه أن يمسَّ قُبَّعته لو كانت على رأسه.

فجأر تِريان: «إلى الكالورمنيِّين؟ ماذا تعني؟ مَن أصدر أمراً بقطع هذه الأشجار؟»

كان النهر في تلك الفترة من السنة يتدفَّق بسرعة كبيرة، بحيث إنَّ الطُّوف جاوز الملك وجَوهَر بلمح البصر. ولكنَّ فأر الماء نظر من فوق كتفه وصاح:

«هذه أوامر الأسد، يا مولاي، أوامر أصلان نفسِه». ثمَّ أضاف شيئاً ما، إلَّا أنَّهما لم يسمعاه.

وحدَّق الملك وأحاديُّ القَرن أحدُهما إلى الآخر، وبدا كلٌّ منهما خائفاً أكثر ممَّا خاف يوماً في أيَّة معركة.

أخيراً قال الملك بصوتٍ خفيض جدّاً: «أصلان، أصلان! أهذا معقول؟ أيُمكِن أن يكون هو مَن يقطع الأشجار المقدَّسة قاتلاً حوريّات الغابات؟»

فتمتم جَوهَر: «إلَّا إذا كانت الحوريّات كلُّهنَّ قد فعلنَ أمراً خاطئاً جدّاً..».

وقال الملك: «إنَّما العَجَب في بيع الشجر إلى الكالورمنيِّين! فهل هذا معقول؟»

فقال جَوهَر ببؤس: «لستُ أدري! إنَّه ليس أسداً أليفاً».

أخيراً قال الملك: «حسناً، علينا أن نمضيَ قُدماً ونخوض المغامرة التي تصادفنا».

فقال أُحاديُّ القَرن: «إنَّه الأمر الوحيد المتبقِّي لنا كي نعمله، يا مولاي». وهو لم يُدرِك في تلك اللحظة مدى غباوة كليهما في الذهاب وحدهما، كما لم يدرك الملك ذلك. فقد منعهما الغضب الشديد أن يُفكِّرا بصفاء. غير أنَّ كثيراً من السوء نجم أخيراً عن تهوُّرهما.

وفجأةً اتكأ الملك بشدَّة على رقبة صديقه، وحنى رأسه، وقال:

«جَوهَر، ماذا ينتظرنا؟ تخطر في باليّ أفكار مُروِّعة. فلو مُتنا قبل اليوم لكُنَّا أسعد حالاً بكثير».

فقال جَوهَر: «نعم، لقد طال عمرُنا كثيراً. وها قد أقبل علينا أسوأ أمر في الدنيا». ثمَّ وقفا ذاهِلَين دقيقةً أو دقيقتين، وبعدئذٍ تابعا سيرهما.

وبعد وقتٍ غير طويل استطاعا أن يسمعا ضرب الفؤوس للشجر، وإن لم يقدرا أن يريا شيئاً بعد، لأنَّ هضبةً قامت أمامهما. ولمَّا بلغا أعلاها، استطاعا أن ينظرا ما يجري داخل خربة المصباح تماماً. وعلا الشحوبُ وجهَ الملك إذْ شاهد ذلك.

ففي وسط تلك الغابة القديمة تماماً — تلك الغابة التي كانت تطلع فيها أشجار الفضّة والذهب والتي فيها زرع مرَّةً وَلَدٌ من عالَمنا شجرةَ الحماية — كان قد شُقَّ ممرٌّ عريض. وقد كان ممرّاً كريهاً كجرحٍ حديث العهد في الأرض، تكثر

فيه قَنَوات صغيرة مُوحِلة حيث كانت الأشجار المقطوعة تُجرُّ نزولاً إلى النهر. وكان هنالك حشدٌ كبيرٌ من الناس منصرفين إلى العمل تحت جَلد السِّياط المُفرقِعة، وأحصنة تشدُّ جاهدةً وهي تسحب جذوع الشجر. وقد كان أوّل شيء صعق الملك وأُحاديَّ القرن أنَّ نصف ذلك الحشد تقريباً لم يكن من الحيوانات الناطقة بل من البشر. أمّا الشيء الثاني فكان أنَّ أولئك القوم لم يكونوا من أهل نارنيا الشُّقرِ الشَّعر، بل كانوا من أهل كالورمن السُّمر المُلتحين. ومعلومٌ أنَّ كالورمن هي تلك البلاد الكبيرة القاسية التي تقع ما وراء بلاد أرخيا عبر الصحراء إلى جهة الجنوب.

لم يكن بالطبع ما يمنع أن يلتقي المرء واحداً أو اثنين من أهل كالورمن — تاجراً أو سفيراً — إذ كان في تلك الأيّام سِلْمٌ بين نارنيا وكالورمن. ولكنَّ تريان لم يستطع أن يفهم لماذا تواجد كثيرون منهم، ولا لماذا كانوا يقطعون غابةً نارنيانيّة. فشدَّد قبضته على سيفه، ولفَّ عباءته على ذراعه اليُسرى، وهبطا كلاهما مُسرِعَين إلى وسط القوم.

وكان كالورمنيّان يسوقان حصاناً شُدَّ إليه جذعُ شجرة. وما إن وصل الملك إليهما حتّى كان الجذع قد علق في مكانٍ مُوحِلٍ ووَعِر. فصاح به الكالورمنيّان وهما يُفرقعان بسَوطَيهما:

«تابع سَيرَك أيُّها الكسول! اسحَبْ يا خِنزيراً بليداً!»

وكان الحصان قد بذل كلَّ جهده وهو يشدُّ بقوّته

كلّها، حتّى احمرَّت عيناه وغطّاه الزَّبَد. فإذا بأحد الكالورمنيَّين يصرخ: «اشتغلْ أيُّها الحيوان البليد!» فيما ضرب الحصان بسوطه ضربةً عنيفة. وعندئذٍ حدث الأمر المروّع حقّاً.

فحتّى ذلك الحين كان تريان يحسب بصورة بديهيّة أنَّ الأحصنة التي يقودها الكالورمنيّون هي أحصنتهم الخاصّة وأنّها أحصنة خرساء قليلة الذكاء كالأحصنة التي في عالَمِنا. ومع أنّه كان يكره أن يرى حتّى حصاناً أخرس يتعرّض لسوء المعاملة والإجهاد، فقد كان يفكّر طبعاً في قتل الأشجار. ولم يخطر في باله قطّ أنَّ أحداً قد يتجرّأ على استخدام أحصنة نارنيا الناطقة الحُرّة، ناهيك بضربها بالسَّوط. ولكنْ ما إن هوَتِ الضربةُ العنيفة حتّى شبَّ الحصان على قائمتيه الخلفيَّتين وقال في ما يُشبِه الصُّراخ:

«أيُّها الغبيُّ الظالم! ألا ترى أنّني أبذل كلَّ ما في وُسعي؟»

ولمّا علم تريان أنَّ الحصان كان واحداً من رعاياه النارنيانيِّين، استولت عليه وعلى جَوهَر سَوْرَةُ غضب حتّى إنّهما لم يدريا ما فعلاه. فإنَّ سيف الملك شُهِر عالياً، وقرن أُحاديِّ القرن مُدَّ منخفضاً، وهجما كلاهما معاً. وفي اللحظة التالية طُرِح الكالورمنيّان جُثَّتَين هامدتين، وقد قطع سيفُ تريان رأسَ أحدهما، فيما اخترق قرنُ جَوهَر قلبَ الآخَر.

القِرد في أوْج عِزِّه

قال تِريان وهو يقطع حَبلَي الحصان: «أيُّها الحصانُ السيِّد، أيُّها الحصان السيّد، كيف استعبدك هؤلاء الغُرَباء؟ هلِ احتلُّوا نارنيا؟ هل وقعت معركة؟»

فردَّ الحصان لاهثاً: «لا، يا مولاي، إنَّ أصلان هنا، وكلُّ شيء يجري بأوامره. فهو قد أمر بأن..».

إذ ذاك قال جَوهَر: «حذارِ الخطر، أيُّها الملك!» ورفع تِريان نظره فرأى كالورمِنيّين (مع بعض الحيوانات الناطقة) يهمُّون بالركض نحوهما من كلّ جهة. وكان القتيلان قد ماتا بغير أن يصرخا، فمضت لُحيظات قبل معرفة باقي القوم بما جرى. لكنّهم الآن قد عرفوا، ولاحت بأيدي معظمهم سيوف معقوفة مسلولة.

وقال جَوهَر: «بسرعة! امتطِ ظهري!»

فقفز الملك وامتطى ظهر صديقه القديم، فدار هذا وعدا مُبتَعِداً. وما إن تواريا عن أنظار الأعداء، حتّى غيَّر أُحاديُّ القرن اتّجاهه مرّتين أو ثلاثاً، ثمَّ عبر جدولاً، وصاح بغير إبطاءٍ لسرعته: «إلى أين نمضي، يا مولاي؟ إلى كَيرپَرافيل؟»

فردَّ تِريان: «توقَّف، يا صاحبي! أنزِلني». ثمَّ انزلق عن ظهر أُحاديِّ القرن وواجهه، وقال له:

«يا جَوهَر، لقد فعلنا فِعلةً رهيبة».

فقال جَوهَر: «لقدِ استفزّانا وأثارا غضبنا فعلاً».

«ولكنَّ هجومنا عليهما وهما غير منتبهَين، وبغير أن نتحدّاهما، وهما أعزلان... عيبٌ وعار! نحن قاتلان، يا جَوهَر. لقد حلَّ بي الخِزيُ إلى الأبد!»

ونكّس جَوهَر رأسه، إذ كان هو أيضاً خَجِلاً.

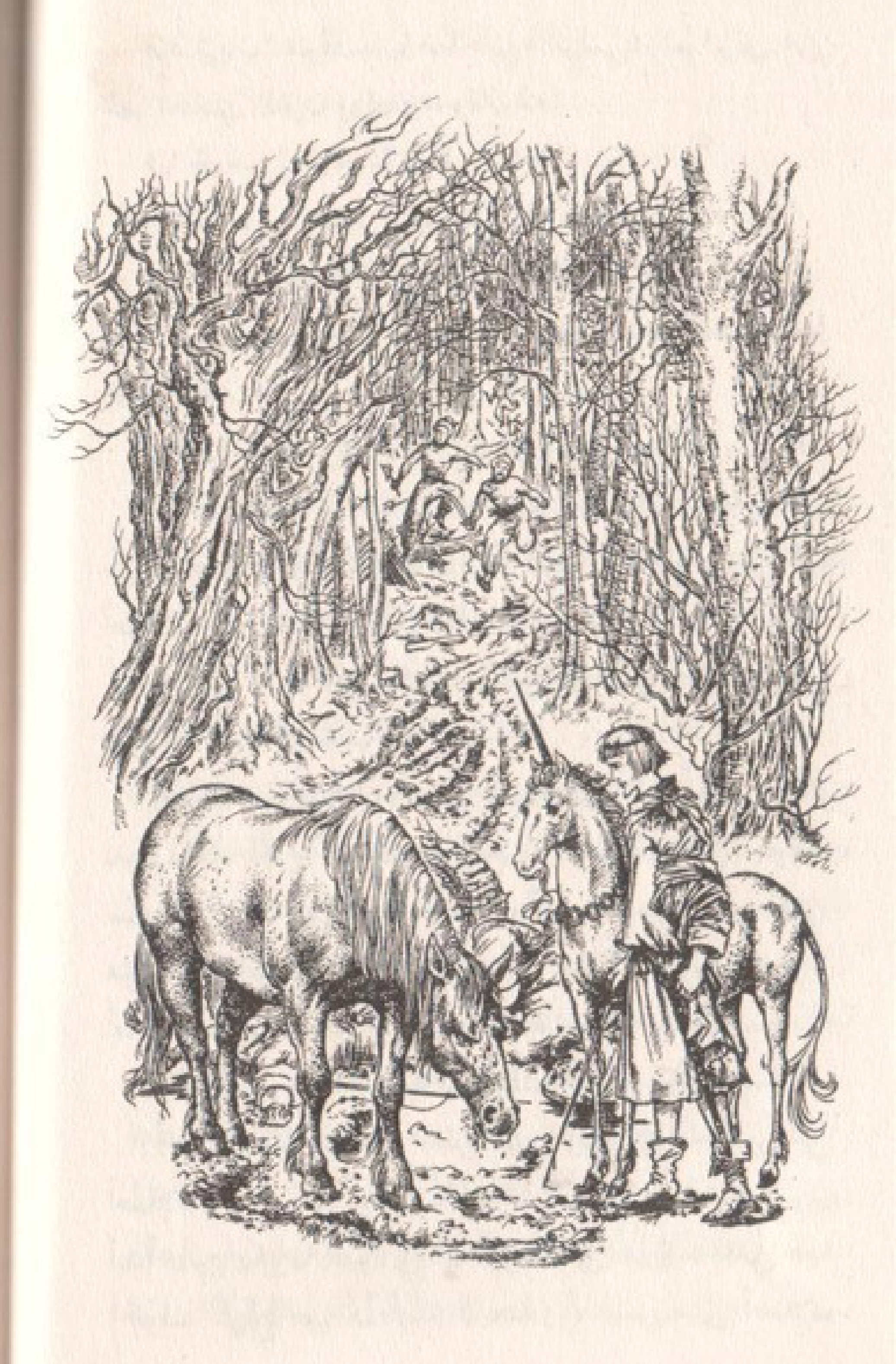
ثمَّ قال الملك: «أضِف أنَّ الحصان قال إنَّ ذلك يجري بأوامر أصلان. وكذلك قال الفأر أيضاً. الجميع يقولون إنَّ أصلان هنا. فماذا لو كان ذلك صحيحاً؟»

«ولكن يا مولاي، كيف يُعقَل أن يأمر أصلان بمثل تلك الأشياء الفظيعة؟»

أجاب تِريان: «إنّه ليس أسداً أليفاً. فكيف لنا أن نعرف ما يمكن أن يفعله ونحن الآن قاتلان؟ جَوهَر، سأرجع. سأتخلّى عن سيفي وأضع نفسي بين أيدي هؤلاء الكالورمِنيّين وأطلب منهم أن يأخذوني للمثول أمام أصلان. فليُجرِ هو العدالة بحقّي».

قال جَوهَر: «ستذهب بقدَميك إذاً إلى موتك».

أجاب الملك: «هل تظنُّ أنّني أقلق إذا حكم عليَّ أصلان بالموت؟ لن يكون ذلك شيئاً، ولن يهمّني في شيءٍ أبداً. ألن يكون خيراً لي أن أموت من أن يُداخِلني هذا الخوف المروِّع من أنَّ أصلان هنا وأنّه ليس مثل أصلان



الذي آمنّا به وتُقنا إليه؟ فكأنّما الشمس طلعت ذات يوم فكانت شمساً سوداء!»

وقال جَوهَر: «أعرف هذا... أو كأنّما شربتَ ماءً فكان ماءً جافاً. أنت على حقّ، يا مولاي. هذه نهاية كلّ شيء. فلنذهبْ ونُسلِّمْ نفسَينا».

«لا داعيَ لأن نذهب كِلانا».

فقال أُحاديُّ القرن: «إن كنّا نحبُّ أحدنا الآخر فعلاً، فدعني أذهبْ معك. فإذا مُتَّ أنت، ولم يكن أصلان هو أصلان، فأيّةَ حياةٍ تبقى لي؟»

ثمّ دارا وعادا كلاهما معاً وهما يذرفان دموعاً مرّة.

وحالما وصلا إلى المكان الذي كان العمل جارياً فيه، أطلق الكالورمِنيّون صرخةً، وأقبلوا عليهما وسيوفهم في أيديهم. إلّا أنّ الملك ناولهم سيفه ومِقبضَه نحوَهم، وقال: «أنا الذي كنتُ ملك نارنيا، وبتُّ الآن فارساً غير مُكرَّم، أُسلّم نفسي لعدالة أصلان. خذوني للمثول أمامه».

وقال جَوهَر: «وأنا أيضاً أُسلّم نفسي».

عندئذٍ تحلّق حولهم الرّجال القاتِمو البَشَرة حشْداً كثيفاً، تفوح منهم رائحة الثوم والبصل، وعيونهم البيضاء تقدح شرراً في وجوههم الداكنة. ثمّ ألقَوا رسناً من حِبال حول عنق جَوهَر، وأخذوا سيف الملك منه وربطوا يديه وراء ظهره. وعمد واحد منهم، كانت على رأسه خوذةٌ عوضاً عن العِمامة، وبدا أنّه يتولّى الإمرة

عليهم، إلى نزْع حلقة الذهب عن رأس تِريان بسرعة ودسّها بسرعة بين طيّات ثيابه. ثمّ اقتادوا الأسيرين نحو قمّة التلّ، إلى مكانٍ فيه فُرجة كبيرة. وكان التالي هو ما رآه الأسيران.

في وسط الفُرجة، وهي على قمّة التلّ تماماً، كان كوخٌ صغير يُشبه إسطبلاً وسقفه من أغصان الشجر المُورِقة. وكان بابه مُغلقاً؛ وعلى العُشب أمام الباب يقعد قرد. ولأنّ تِريان وجَوهَر كانا يتوقّعان رؤية أصلان ولم يسمعا شيئاً بعد عن وجود قِرد، فقد تحيّرا وارتبكا عند رؤيته. وكان القِرد بالطبع هو شِفطة نفسَه، إلّا أنّه بدا أبشع بعشر مرّات ممّا كان عند إقامته بقرب بِركة المِرجَل، إذ كان الآن لابساً ثياباً. وقد كان مرتدياً سترةً قرمزيّة اللون لم تناسِبه تماماً، لأنّها مصنوعة لقزم. وكان في قدَمَيه خُفّان مزيّنان بالجواهر، إلّا أنهما لم يكونا ملائمَين له أيضاً، لأنّ قدَمَي القرد — كما تعلم — تشبهان يديه تماماً. وكان على رأسه ما بدا تاجاً من ورق، وبقربه كومة كبيرة من الجوز وهو يكسر حبّات الجوز باستمرار بين فكّيه ثمّ يبصق قشورها. كذلك أيضاً ظلّ يرفع طرف سترته القرمزيّة حتّى يحكّ جلده.

كان يقف مقابل القرد عددٌ كبير من الحيوانات الناطقة، وكلّ وجه في ذلك الجمع تقريباً بدا عليه القلق والحيرة على نحوٍ يدعو للرثاء. ولمّا رأى أولئك مَن هما الأسيران أتَوا كلّهم وتشكّوا.

وقال الكالورمنيُّ الرئيس: «أيُّها السيِّد شِفطة، الناطقُ باسم أصلان، لقد أحضرنا إليك أسيرين. فبفضل مهارتنا وشجاعتنا، وبإذن الإله العظيم طاش، قبضنا على هذين القاتلَين المُستقتِلَين المتهوِّرَين حيَّين!»

قال القرد: «أعطوني سيف ذلك الرجل». فأخذوا سيف الملك وناولوه إيّاه بحزامه ومحمله. فعلّقه القرد على عنقه، فبدا أقبح ممّا كان بكثير.

ثمّ قال القرد وهو يبصق قشرة جوز باتّجاه الأسيرين: «سنُعنى بأمر هذين لاحقاً. عندي أمورٌ أخرى لأهتمّ بها أوّلاً. يمكنهما أن ينتظرا. والآن أصغوا إليَّ كلُّكم. أوّل شيء أُريد قوله يتعلّق بالجوز. أين ذهب ذلك السنجاب الرئيس؟»

فتقدّم سنجابٌ أحمر وانحنى انحناءة يسيرة بشيء من التوتُّر، قائلاً: «أنا هُنا يا مولاي».

وقال القرد بنظرةٍ خبيثة: «أُه، أنتَ هُنا، أليس هكذا؟ فاسمعني الآن! إنّني أُريد — أعني: أصلان يريد — مزيداً من الجوز. ما أحضرتَهُ لا يكفي أبداً. عليك أن تُحضِر المزيد. سمعْتَ؟ ضِعفَي ما أحضرت. ويجب أن يكون الجوز هنا قبل الغروب يومَ غَد. كما يجب ألّا يكون فيه أيّة جوزة صغيرة أو رديئة».

فسَرَت بين سائر السناجب دمدمةُ خيبة، واستجمع كبيرُ السناجب شجاعته ليقول: «رجاءً! ألا يُكلِّمنا أصلانُ نفسه بشأنِ هذا الأمر؟ حبّذا لو تَسمح لنا بمقابلته...»



وقال القرد: «حسناً، لن أسمح لكم. إلَّا أنَّه قد يتلطَّف فيخرج بضعَ دقائق الليلة (وإن كان هذا أكثر جداً من أن يستحقَّه أيٌّ منكم). عندئذٍ يمكنكم جميعاً أن تُلقوا نظرةً عليه. ولكنَّه لن يرضى بأن تتجمَّعوا كلُّكم حواليه وتُضايِقوه بأسئلتكم. فأيُّ شيء تريدون أن تقولوه له سيمرُّ من خلالي، إذا رأيتُ أنَّه يستحقُّ أن نُزعجه بشأنه. وفي هذه الأثناء، أحسنُ لكم أنتم السناجب جميعاً أن تنطلقوا وتهتمُّوا بأمر الجوز. وتأكَّدوا من إحضاره إلى هنا قبل مساء الغد، وإلَّا — صدِّقوني — نِلتم عقابكم!»

ففرَّ السناجب راكضين وكأنَّ كلباً يطاردهم. وكان هذا الأمر الجديد كخبرٍ فظيعٍ وقع عليهم. فالجوز الذي خزنوه بعناية لأجل الشتاء كادَ يؤكل كلُّه؛ ومن القليل الباقي قد أعطوا القرد أكثر بكثير ممَّا استطاعوا إبقاءه لهم.

ثمَّ سُمع من مكان آخر في الجمع صوتُ أجشّ، أطلقه خنزير بريٌّ كبير النابَين وخشن الشعر، يقول: «ولكنْ لماذا لا يمكننا أن نرى أصلان كما ينبغي ونتحدَّث إليه؟

عندما كان يظهر في نارنيا في الأيّام القديمة، كان بإمكان أيِّ واحد أن يتكلَّم إليه وجهاً لوجه؟»

فقال القرد: «لا تصدِّقوا ذلك! حتَّى لو كان صحيحاً، فالظروف قد تغيَّرت. يقول أصلان إنَّه كان ليِّناً في معاملتكم أكثر من اللازم بكثير، أتفهمون؟ حسناً، إنَّه لن يكون ليِّناً بعد. سيُعاملكم بالشدَّة حتَّى تستقيموا هذه المرَّة. سيُعلِّمكم معنى أن تحسبوه أسداً أليفاً!»

وسُمِعت بين الحيوانات دمدمة وهمهمة خفيفتان، ساد بعدهما صمتٌ رهيب ما زال أكثر تُعْساً.

ثمَّ قال القرد: «والآن، هناك شيء آخر عليكم أن تعرفوه. أنا أسمع أنَّ بعضاً منكم يقولون إنَّني قرد. حسناً، لستُ كذلك، بل أنا إنسان. وإذا كنتُ أُشبِه القرد، فذلك لأنَّني كبير السنِّ جدّاً، إذ لي من العمر مئاتٌ ومئاتٌ من السنين. ولأنَّني كبير السنِّ جدّاً، فأنا حكيمٌ جداً. ولأنَّني حكيم جدّاً، فأنا الوحيد الذي سيكلِّمه أصلان دائماً. لا يمكن أن نزعجه بالتكلُّم إلى مجموعة كبيرة من الحيوانات الغبيَّة. فهو سيقول لي ما ينبغي لكم أن تفعلوه، وأنا أُبلِّغكم ذلك. فاقبلوا نصيحتي، واعملوا بها بسرعة كبيرة، لأنَّه لا ينوي أن يتحمَّل أيَّة سخافات».

في أثناء ذلك، كان يسود صمتٌ شامل، ما عدا صوت غُرَير صغير يبكي وأمُّه تحاول أن تُسكِته.

ثمَّ وضعَ القرد جوزةً جديدة داخل خدِّه، ومضى يقول: «والآن، إليكم أمراً آخر. أنا أسمع أن بعض

الأحصنة يقولون: 'لنُسرع ونُنجز عمل نقل الخشب هذا بأسرع ما يمكننا، وعندئذٍ نُعطى حريَّتنا من جديد.' حسناً، يمكنكم أن تنزعوا هذه الفكرة من رؤوسكم حالاً. وهذا لا يخصُّ الأحصنة وحدهم. فكلُّ مَن يقدر على العمل سيُجبَرَ على العمل في المستقبل. لقد رتَّب أصلان كلَّ شيء مع ملك كالورمِن، مع السُّلطان كما يُسمِّيه أصدقاؤنا الكالورمنيُّون السُّمر. فأنتم الأحصنةَ والثيران والحمير جميعاً ستُرسَلون إلى كالورمِن كي تشتغلوا لتعيشوا، فتَجرُّون وتُحمِّلون، كما تفعل الأحصنة وما شابهها في جميع البلدان. وأنتمُ الأخلاذَ والأرانب والأقزام، وباقي الحيوانات الحفَّارة، ستنزلون إلى العمل في مناجم السُّلطان. ثمَّ...»

عندئذٍ صرخت الحيوانات قائلةً: «لا، لا، لا! لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. إنَّ أصلان لن يبيعنا البتَّة عبيداً لملك كالورمِن».

فقال القرد مُزمِجراً: «لا شيءَ من ذلك! كُفُّوا عن الضجيج! مَن أتى على ذكر العبوديَّة؟ لن تكونوا عبيداً. فسوف تُعطَون أُجوراً، أُجوراً جيِّدة جدّاً. أعني أنَّ أُجرتكم ستُدفَع في خزينة أصلان، وهو سيستعملها لمصلحة الجميع». ثم نظر إلى الكالورمنيِّ الرئيس نظرةً أشبه بالغمز.

فانحنى الكالورمنيُّ وأجاب، بطريقة أهل كالورمن التفخيميَّة:

«أيُّها الناطق الكليُّ الحكمة باسم أصلان، إنَّ السلطان (عاش إلى الأبد!) يوافق سعادتك تماماً في الرأي بشأن هذه الخُطَّة الحكيمة».

وقال القرد: «أسمِعتم وفهمتم؟ كلُّ شيء مرتَّب. وكلُّ شيءٍ لمصلحتكم. سوف نتمكَّن، بالمال الذي تكسبونه، من جعل نارنيا بلداً يستحقُّ العيش فيه. وسيتدفَّق علينا البرتقال والموز، وسيصير عندنا كلُّ شيء: طُرقات ومُدن كبيرة ومدارس ومكاتب وسياط وكمائم وسروج وأقفاص وقنوات وسجون».

فقال دبٌّ عجوز: «ولكنَّنا لا نريد هذه كلَّها، بل نريد أن نكون أحراراً. ونريد أن نسمع أصلان نفسه يتكلَّم».

فردَّ القرد: «كُفَّ حالاً عن الجدال، لأنَّه شيء لا أحتمله. فأنا إنسان، وأنت مجرَّد دُبٍّ عجوز سمين أحمق. ماذا تعرف عن الحرِّيَّة؟ أنت تظنُّ أنَّ الحرِّيَّة تعني أن تفعل ما تريد. حسناً، إنَّك مُخطِئ. فليست تلك هي الحرِّيَّة الحقيقية. إنَّ الحرِّيَّة الحقيقية هي أن تفعل ما أقوله لك».

فشخر الدُّبُّ وحكَّ رأسه قائلاً: «إنَّه!» إذ صعُب عليه فهمُ شيء كهذا.

وقال صوتُ حَمَل كثير الصوف، كان صغيراً جدّاً بحيث فاجأ الجميعَ تجرُّؤه على الكلام أصلاً: «رجاءً، رجاءً!»

فقال القرد: «ماذا الآن؟ أسرِع بالكلام!»

فردَّ الحَمَل: «رجاءً، لا أقدر أن أفهم. ما لنا ولأهل كالورمِن؟ نحنُ خاصَّةُ أصلان. وهم خاصَّةُ طاش. فإنَّ



عندهم إلهاً اسمُه طاش. ويقولون إنَّ له أربع أذرع ورأس نسر. وهم يذبحون البشر على مذبحه. وأنا لا أُومن بوجود شخصٍ مثل طاش. ولكنْ إن وُجِد، فكيف يُعقَل أن يُصادِقَه أصلان؟»

فأمالت جميع الحيوانات رؤوسها، وشخصت جميع عيونها البرّاقة إلى القرد، وقد عرفَت أنَّ ذلك كان أحسن سؤال طرحه أيُّ واحد.

إلّا أنَّ القرد هبَّ واقفاً وبصق على الحَمَل. وهسَّ قائلاً: «أيُّها الحَمَل الصغير الثّاغي! اذهب إلى أمِّك في البيت وارضع شيئاً من الحليب. ماذا تفهم عن هذه الأمور؟ أمّا أنتمُ الباقين فاسمعوا: ليس طاش سوى اسمٍ آخر لأصلان. إن تلك الفكرة القديمة بأنّنا على حقٍّ

وبأنَّ الكالورمنيّين على ضلال فكرةٌ سخيفة بجملتها. لقد تقدَّمنا في المعرفة الآن. فالكالورمنيُّون يستخدمون كلماتٍ مختلفةً، ولكنّنا كلُّنا نقصد الشيء نفسه. فإنَّ طاش وأصلان مجرَّد اسمين مختلفين لشخصٍ واحدٍ تعرفون مَن هُوَ. ولذلك لا يمكن أن يقع بينهما أيُّ خصام. فأدخِلوا هذا في رؤوسكم أيُّها البهائم الأغبياء: طاش هو أصلان، وأصلان هو طاش».

هل رأيتَ وجه حيوانٍ حزين؟ فكِّر في ذلك، ثُمَّ تصوَّر جميع وجوه تلك الحيوانات الناطقة الشريفة المتواضعة الحائرة، من طيور ودببة وغُرَيرات وأرانب وأخلاد وفئران، وهي أكثر حزناً بكثير. فقد أُسدِل كلُّ ذيل، وتهدَّل كلُّ شاربَين. ولو رأيت تلك الوجوه، لانفطر قلبك أسىً. ولكنَّ واحداً فقط لم يبدُ قطُّ أنّه حزين.

كان ذلك هرّاً بنّيَّ اللّون، هرّاً ذَكَراً كبيراً جدّاً في ريعان شبابه، وقد قعد منتصباً وذيله ملفوفٌ حول مخالبه في الصفِّ الأماميِّ قدّام جميع الحيوانات. وطالما حدَّق ذلك الهرُّ تحديقاً إلى القرد وإلى الرئيس الكالورمنيّ، ولم ترفَّ عيناه مرَّةً واحدة. ثمَّ قال بتأدُّبٍ بالغ: «عُذراً! ولكنَّ هذا الأمر يهمُّني. أيقول صديقُك الكالورمنيُّ هذا القول نفسه؟»

فردَّ الكالورمنيّ: «بالتأكيد! إنَّ القرد (أعني الإنسان) المُتنوِّر على حقّ. فأصلان لا يعني شيئاً أقلَّ أو أكثر من طاش».

وبادر الهرُّ قائلاً: «على الخصوص، أصلان لا يعني شيئاً أكثر من طاش؟»

فقال الكالورمنيُّ، ناظراً إلى وجه الهرّ مباشرةً: «لا يعني شيئاً أكثر على الإطلاق!»

وقال القرد: «هل كفاكَ هذا الجواب، يا بُنَيُّ؟»

فقال البُنَيُّ: «نعم، بالتأكيد. شكراً جزيلاً! إنّما أردتُ أن أكون متأكّداً تماماً والأمور واضحة أمامي. وأعتقد أنّني بدأتُ أفهم».

كان الملك وجَوهَر صامتَين حتّى الآن، ولم يقولا كلمةً واحدة إذ كانا ينتظران ريثما يطلب القرد منهما أن يتكلّما، لأنّهما اعتقدا أنّ المقاطعة لا تُجدي نفعاً. أمّا الآن، إذ تطلّع تِريان إلى وجوه أهل نارنيا الكئيبة، ورأى كيف أنّهم سيُصدّقون جميعاً أنّ أصلانَ وطاش هما شخصٌ واحد، فلم يعُد قادراً أن يحتمل، وصرخ بصوتٍ عالٍ:

«يا قرد، أنت تكذب! أنت تكذب كذباً شنيعاً. أنت تكذب كواحدٍ من أهل كالورمن. أنت تكذب كقرد».

وكان ينوي أن يتابع كلامه ليسأل كيف يُعقَل أن يكون طاش الذي يقتات بدم شعبه هو بعينه الأسدَ الطيّب الذي أنقذ نارنيا كلّها بدمه. ولو سُمح له بأن يتكلّم، لكان حُكم القرد ربّما انتهى في ذلك اليوم، بعد أن تكون الحيوانات قد أدركت الحقيقة وأطاحت القرد. ولكنْ قبل أن يتمكّن من قول أيّة كلمة أُخرى ضربه كالورمنيّان على فمه بكلّ

قوّتهما، وأقدم ثالثٌ من ورائه على ركل قدميه من تحته. وإذ سقط أرضاً، زعق القرد قائلاً بسخط وذُعر:

«خذوه من هنا. أبعِدوه بعيداً. خذوه إلى حيث لا يستطيع هو أن يسمعنا ولا يمكن أن نسمعه نحن. وهناك أوثِقوه إلى شجرة. وسوف أتولّى — أعني أنّ أصلان سوف يتولّى — إجراء العدالة بحقّه لاحقاً».

ما جرى تلك الليلة

داخ الملك من سقوطه أرضاً دوخةً شديدة حتّى كاد يستحيل عليه أن يدري ما يجري، إلى أن حلّ الكالورمنيُّون مِعصَميه ودلُّوا يديه إلى جنبيه وأوقفوه مُسنَد الظهر إلى جذع شجرة دردار*. ثمّ ربطوا حِبالاً حول كاحلَيه وركبتيه وخصره وصدره، وتركوه هناك. وما أقلقه أكثر الكلّ في تلك اللحظة (إذ غالباً ما تكون الأشياء اليسيرة هي الأصعب احتمالاً) كان تقطُّر الدم من شفته حيث ضُرِب، وعدم تمكُّنه من مسح القطرات الخفيفة رُغم وخزها له.

وكان ما يزال مِن موقعهِ قادراً أن يرى الإسطبل الصغير على قمّة التلّ والقردَ جالساً قدّام بابه. وقد استطاع أن يسمع فقط صوت القرد متكلّماً، وجواباً من الجمهور بين الحين والحين، إلّا أنّه لم يقدر أن يفهم الكلام. ففكّر: «تُرى، ماذا فعلوا بجَوهَر؟»

* شجر الدردار: شجر غابات يُشبه الزيتون، ويُزرَع للزينة.

وما لبثت الحيوانات أن تفرّقت، وبدأت تمضي في اتجاهاتٍ شتّى. وقد مرّ بعضها على مقربة من تِريان، ونظرت إليه كما لو كانت في وقتٍ واحد خائفة وآسفة أن تراه مربوطاً، ولكنّ أيّاً منها لم يتكلّم. وسرعان ما توارت الحيوانات كلُّها وخيّم الصمت على الغابة. ثم مضت ساعات وساعات حتّى صار تِريان شديدَ العطشِ ثم شديد الجوع، وإذ ولّى العصر واقترب المساء قرسه البرد أيضاً. وقد تشنّج ظهره وآلَمه كثيراً. ثمّ غابت الشمس وبدأ الليل يهبط.

ولمّا حلّ الظلام، أو كاد، سمع تِريان وقْع أقدامٍ خفيفاً، ورأى بعض المخلوقات الصغيرة مُقبِلةً نحوه. كان إلى اليسار ثلاثة فئران، وفي الوسط أرنب، وإلى اليمين خُلدان. وكان هذان كلاهما يحملان على ظهرَيهما صُرّتين صغيرتين جعلتاهما يبدوان في الظلام بمنظرٍ غريب، حتّى تساءل تِريان أوّلَ الأمر أيُّ نوعٍ من الحيوانات هُما. ثمّ لم تمضِ لحظةٌ واحدة حتّى باتتْ تلك الحيوانات كلُّها واقفةً على قوائمها الخلفيّة، واضعةً مخالبها الباردة على ركبتيه ومقبّلةً إيّاهما قبلاتٍ حيوانيّةً كثيفة. (وقدِ استطاعت الوصول إلى رُكبتيه، لأنّ الحيوانات النارنيانيّة الناطقة من تلك الأنواع أكبرُ حجماً من مثيلاتها البكماء في عالمنا.)

ثمّ قالت أصواتُها الحادّة: «سيّدَنا الملك، سيّدَنا الملك العزيز، أسفُنا عليك شديد. لا نجرؤ على حلّ رُبُطك لأنّ أصلان قد يغضب علينا. ولكنّنا أحضرنا لك عشاءك».

وفي الحال تسلّق الفأر الأوّل برشاقة حتّى استقرّ على الحبل الملفوف حول صدر تِريان، وأخذ يهزّ أنفه الأفطس قُدّام وجه الملك تماماً. ثمّ تسلّق الفأر الثاني وتعلّق تحت الفأر الأوّل تماماً. أمّا الحيوانات الباقية فقد وقفت على الأرض وبدأت تُناوِل الفأرين طعام العشاء.

ثمّ قال الفأر الأعلى: «اشرب، يا مولاي، وعندئذٍ تَرى أنّك تقدر أن تأكل». ووجد تِريان كأساً خشبيّة صغيرة مرفوعةً إلى شفتيه، ولم تكُن أكبر من كأسِ البيضة، حتّى إنّه ما كاد يذوق النبيذ الذي فيها حتّى فرغت. ولكنّ الفأر أنزلها، وعندئذٍ ملأتها الحيوانات التي على الأرض ورفعتها، فأفرغها تِريان مرّة ثانية. وسار الأمر على هذا النحو حتّى شرِب الملك شربةً جيّدة، كان أفضل جدّاً أنّها تمّت في جرعات صغيرة، لأنّ ذلك أكثر إرواءً للعطش من شربةٍ طويلة واحدة.

وقال الفأر الأوّل: «هاك شيئاً من الجبن. لم نحضِر منهُ الكثير خوفاً من أن يجعلك تعطش».

ثمّ أطعموه بعدَ

الجبن كعكَ شوفان وزبدةً طازجة، وعادوا فسقَوه مزيداً من النبيذ».

ثمّ قال الفأر الأوّل: «والآن ناوِلوني الماء حتّى أغسل وجه الملك، فعليه دَم».

بعدئذٍ شعر تِريان بشبْه اسفنجةٍ صغيرة تمسح وجهه برِفق، وكان ذلك مُنعِشاً للغاية.

وقال تِريان: «يا أصدقائي الصغار، كيف لي أن أشكركم على هذا؟»

فردّت الأصوات الضئيلة: «لا داعيَ للشكر، لا داعيَ للشكر! فماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك؟ نحن لا نريد أيّ ملك آخر. فنحن شعبك. ولو كان القرد والكالورمنيُّون وحدَهم ضدّك لحاربْنا حتّى نُقطَّع إرْباً إرْباً قبل أن نسمح لهم بتربيطك. نعم، كان من شأننا أن نفعل ذلك حقّاً. ولكنّ لا يمكننا أن نقوم على أصلان».

وسأل الملك: «أتعتقدون أنّه أصلان فعلاً؟»

فقال الأرنب: «نعم، نعم! لقد خرج من الإسطبل البارحة. ونحن كلّنا رأيناه».

وسأل الملك: «وكيف كان شكله؟»

فقال واحد من الفئران: «مثلَ أسدٍ كبير مخيفٍ حقّاً».

«وهل تعتقدون أنّ أصلان حقّاً هو مَن يُقتّل حوريّات الغابات ويجعلكم جميعاً عبيداً لملك كالورمن؟»

فقال الفأر الآخر: «آه، ذلك رديء، أليس كذلك؟ كان خيراً لنا لو متنا قبل بدء هذه الأمور كلّها. ولكنّ لا

شكٌ في هذا. فالجميع يقولون إنَّها أوامر أصلان. ونحن قد رأيناه. لم نكن نظنُّ أن أصلان قد يكون هكذا. عجباً، إنّنا نحن أردنا منه أن يرجع إلى نارنيا».

وقال الفأر الأوّل: «يبدو أنه رجع غاضباً جدّاً هذه المرّة. لا بدّ أنّنا جميعاً قد عملنا شيئاً خاطئاً جداً بشكلٍ رهيب، دون أن ندري. ولا بدّ أنّه يعاقبنا على أمرٍ ما. ولكنّني أظنُّ فعلاً أنّه يحقُّ لنا أن نعرف ما هو!»

فقال الأرنب: «أظنُّ أنّ ما نفعله الآن قد يكون خاطئاً».

فردَّ أحد الخُلْدَين: «لا يهمُّني إن كان كذلك، وسأفعله مرّةً أخرى».

ولكنَّ الآخرين قالوا: «أوه، سكوتاً!» وأيضاً: «خذوا حذركم تماماً»، ثمَّ قالوا جميعاً: «نحنُ آسفون، أيّها الملك العزيز، ولكنْ يجب أن نرجع الآن. فلا خيرَ لنا في أن يُقبَض علينا هنا».

فقال تِريان: «اتركوني حالاً، أيّها الأعزّاء. لن أُعرِّضكم لأيِّ خطرٍ ولو حُرِمتُ نارنيا كلَّها».

فقالت الحيوانات وهي تحكُّ ركبتيه بأنوفها: «ليلة سعيدة، ليلة سعيدة! سنعود إذا قدرنا». ثمَّ مضت تعدو بخطىً سريعة وخفيفة، وبدت الغابة أكثر ظلاماً وبرْداً ووحشةً ممّا كانت قبل مجيئها.

بعد ذلك طلعت النجوم وأخذ الوقت يمرُّ ببطء (تخيَّل مقدار بطئه)، فيما ملك نارنيا ذلك الأخير واقفٌ

وهو متصلّب ومتألّم ومُوثَق إلى جذع الشجرة. ولكنْ في الأخير حدث شيءٌ ما.

فقد ظهر في البعيد البعيد ضوءٌ أحمر. ثمّ اختفى هُنيهةً ليعود فيظهر أكبرَ وأقوى. عندئذٍ استطاع الملك أن يرى أشكال أشخاصٍ يروحون ويجيئون إلى الجانب المواجه له من الضوء، وهم يحملون حُزَماً ويطرحونها. وإذ ذاك عرف إلى أيِّ شيء كان ينظر. فقد كانت تلك ناراً أُشعِلت حديثاً في الهواء الطَّلق، وكان ناسٌ يطرحون فيها حزماً من الأغصان المقطوعة اليابسة. وما لبثت النار أن تأجّجت، واستطاع تِريان أن يرى أنّها كانت على قمّة التلّ تماماً. كما استطاع أن يرى الأسطبل وراءها بكثيرٍ من الوضوح، وقد ألقى الوهجُ الأحمر الضوءَ عليه كلّه، وحشداً كبيراً من الحيوانات والبشر بينَ النار وبينه هو. وبدا قرب النار شكلُ شخصٍ صغير حاني الظهر لا بدَّ أن يكون هو القرد. وكان يقول للمحتشدين كلاماً، إلّا أنّ الملك لم يسمعه بوضوح. ثمَّ ذهب وانحنى ثلاث مرّات قدّام باب الإسطبل. وبعدئذٍ نهض وفتح الباب، فخرج من الإسطبل شيءٌ ما يمشي على أربع أرجُل ووقف مقابل الحشد بعدما مشى مشيةً فيها كثير من التصلّب والتيبُّس.

ثمّ علا عويلٌ أو عواءٌ عالٍ، وكان عالياً جدّاً حتّى استطاع تِريان سماع بعض الكلمات.

فقد صاحت الحيوانات: «أصلان، أصلان، أصلان! تكلَّمْ إلينا. أرِحْ قلوبنا. كُفَّ عن غضبك علينا».



لم يستطع تِريان، من مكانه، أن يتبيَّن تماماً حقيقة ذلك الشيء. غير أنَّه استطاع أن يرى أنَّه كان أصفر وأشعر. ولم يكن قد رأى الأسد العظيم قطّ، ولا كان قد رأى أسداً عادياً أيضاً. فلم يتمكَّن من التأكُّد أنَّ ما رآه لم يكُنِ الأسدَ الحقيقيَّ. ولم يكُنْ قد توقَّع أن يبدو أصلان مثل ذلك الشيء المتيبِّس الذي وقف جامداً ولم يقُل كلمةً واحدة. ولكنْ كيف يمكن أن يتأكَّد المرء؟ ثمَّ خطرت في بال الملك حيناً أفكارٌ مروِّعة، وما لبث أن تذكَّر الكلام الفارغ عن كون طاش وأصلان شخصاً واحداً، وعلم أنَّ الأمر كلَّه لا بدَّ أن يكون خدعة.

ثمَّ قرَّب القرد رأسه كثيراً من رأس الشيء الأصفر كما لو كان يصغي إلى أمر يهمس به إليه. وبعدئذٍ

التفت وخاطب الحشْد، فأعول الحشد من جديد. ثمَّ دار الشيء الأصفر بطريقة فظَّة ورجع إلى داخل الإسطبل وهو يمشي مُتباطئاً، بل مُتهادِياً، كما يمكنك تقريباً أن تقول، وأغلق القرد الباب وراءه. وبعد ذلك لا بدَّ أن تكون النار قد أُخمِدت لأنَّ الضوء اختفى فجأةً. عندئذٍ عاد تِريان وحيداً من جديد في قلب الظلام والبرد.

وفكَّر في ملوك آخرين عاشوا وماتوا في نارنيا في قديم الزمان، فبدا له أنَّ أيَّ واحد منهم لم يكن قطُّ أسوأ منه حظّاً. وفكَّر في والدِ جدِّ والدِ جدِّه، في الملك ريليان الذي سرقته ساحرةٌ لمَّا كان مجرَّد أمير شابّ وأبقته مُخبَّأً سنين طويلةً في الكهوف المظلمة تحت أراضي المَرَدة الشماليِّين. ولكنَّ ذلك كلَّه آلَ إلى الخير في الأخير، إذ إنَّ ولَدَين غريبَين ظهرا فجأةً آتيَين من بلادٍ واقعةٍ ما وراء آخِرِ العالم وأنقذاه حتَّى عاد إلى وطنه نارنيا وملك ملكاً طويلاً ومزدهراً. ثمَّ قال تِريان لنفسه: «إنَّ حالي تختلف عن حاله».

وبعد ذلك عاد بفكره إلى زمنٍ أسبق، وفكَّر في والد ريليان، كاسپيان الملاَّح الذي حاول عمُّه الشرِّير ميراز أن يقتله، وكيف هرب كاسپيان إلى الغابات بعيداً وعاش بين الأقزام. ولكنَّ العاقبة كانت كلُّها خيراً في النهاية، إذ تلقَّى كاسپيان المساعدة أيضاً من أولاد (إنَّما كانوا أربعةً آنذاك) جاءُوا من مكانٍ ما يقع في عالمٍ آخر، وخاضوا معركةً

عظيمة، وأجلسوه على عرش أبيه. ثمَّ قال لنفسه: «ولكنَّ ذلك كلَّه كان منذ زمانٍ بعيد. فهذا النوع من الأمور لا يحدث الآن».

ثمَّ تذكَّر (وهو الذي برع في دروس التاريخ لمَّا كان صغيراً) كيف أنَّ أولئك الأولاد الأربعة الذين ساعدوا كاسپيان سبق أن حضروا إلى نارنيا قبل ألف سنة، وعندئذٍ عملوا أروع أمرٍ على الإطلاق. ذلك أنَّهم هزموا الساحرة البيضاء الرهيبة وأنهَوا الشتاء الذي كان قد دام مئة سنة، وبعد ذلك ملكوا (الأربعة جميعاً) في كيرپاراڤيل معاً، حتَّى لم يعودوا أولاداً صغاراً بل صاروا مَلِكين عظيمَين وملكتين حسناوين، وكان مُلكهم عصر نارنيا الذهبيّ. وقد تداخل أصلان في تلك القصَّة كثيراً، كما تداخل في جميع القصص الأُخرى أيضاً. وتذكَّر تريان ذلك الآن، ففكَّر: «أصلان، وأولادٌ من عالم آخر، يأتون دائماً عندما تصل الأمور إلى أسوإ ما تكون عليه. أوَّاه، يا ليتهم يأتون الآن!» ثمَّ نادى:

«أصلان، أصلان، أصلان! تعالَ وساعِدنا الآن».

ولكنَّ الظلام والبرد والسكون ظلَّت على حالها تماماً. فصاح الملك:

«لأُقتلْ أنا! إنَّني لا أطلب شيئاً لنفسي. إنَّما تعالَ وخلِّص نارنيا كلَّها».

ومع ذلك لم يحصل أيُّ تغيير في اللَّيل أو في الغابة. إلَّا أنَّ نوعاً من التغيير بدأ يجري داخل تِريان. وبغير أن

يدري السبب، بدأ يشعر بأملٍ ضعيف. ثمَّ إنَّه بدأ يشعر بأنَّه أقوى بطريقةٍ ما. وهمس قائلاً: «أوه، أصلان، أصلان! إن كنتَ لا تريد أن تأتيَ بذاتك، فعلى الأقلّ أرسِلْ إليَّ أولئك المساعدين ممَّا وراء العالم. وإلَّا، فدعْني أستدعِهم. ليصلْ صوتي إلى ذلك العالم». وعندئذٍ، وهو لا يكاد يدري تقريباً ما يفعله، صاح فجأةً بصوتٍ عظيم:

«يا أولاد، يا أولاد! يا أصدقاء نارنيا! هيَّا بسُرعة. تعالَوا إليَّ. إنَّني أُناديكم عبر العوالِم، أنا تِريان، ملك نارنيا، سيِّد كيرپاراڤيل، إمبراطور الجزر المَنفردة!»

وفي الحال غاص في حُلم (إنْ كان حلماً) أكثر حيويَّةً ووضوحاً من أيّ حلمٍ حلمه في حياته كلِّها:

رأى نفسه واقفاً في غرفة مُضاءة فيها سبعةُ أشخاص جالسين حول مائدة. وبدا كأنَّهم قد فرغوا من تناول طعامهم توّاً. وكان اثنان من أولئك الأشخاص كبيرين في السنّ كثيراً، وهما شيخ ذو لحية بيضاء وعجوزٌ ذات عينين طارفتين فيهما حكمة وصفاء وإشراق. أمَّا الجالس إلى يمين الشيخ فلم يكُن مكتمل النُّضج تماماً، ومؤكَّد أنَّه كان أصغر سنّاً من تِريان نفسه، إلَّا أنَّ ملامح ملك ومحارب كانت تلوح على وجهه فعلاً. وفي وسعك تقريباً أن تقول ذلك بعينه عن الشابّ الآخر الجالس إلى يمين العجوز. ومقابلَ تِريان عبرَ المائدة، كانت تجلس فتاة شقراء الشعر أصغر سنّاً من ذينك الشابَّين كليهما، وقد جلس إلى كِلا جانبيَها صبيٌّ وفتاة أصغر سنّاً منها أيضاً. وكانت ثياب

الجميع أغرب نوعٍ من الثياب في نظر تِريان.

ولكنَّ الوقتَ لم يكن يتَّسع له حتَّى يفكِّر في تفاصيل كهذه، إذ إنَّ الصبيَّ الأصغرَ وكلتا الفتاتين هبُّوا واقفين حالاً، وصرخت إحداهما صرخةً يسيرة. فأجفلت العجوز وشهقت شهقةً حادَّة. ولا بدَّ أنَّ الشيخ أيضاً أتى بحركةٍ سريعة، لأنَّ كأس النبيذ التي كانت بقرب يده اليُمنى هَوَت عن المائدة، واستطاع تِريان أن يسمع صوت الرنين الصادر عن تحطُّمها على الأرض.

عندئذٍ أدركَ تِريان أنَّ أولئك الأشخاص تمكَّنوا من رؤيته، إذ كانوا يحدِّقون إليه كما لو كانوا قد رأوا شبحاً. ولكنَّه لاحظ أنَّ الشابَّ الذي فيه شبَهُ ملِكٍ والجالس عن يمين الشيخ لم يتحرَّك قطَّ (مع كونه غدا شاحباً)، غير أنَّه ضمَّ قبضة يده بإحكام. ثمَّ قال:

«تكلَّم، إن لم تكن شبحاً أو حلماً. إنَّ ملامح نارنيانيَّة تبدو عليك، ونحن أصدقاء نارنيا السبعة».

كان تِريان يتوق إلى أن يتكلَّم، وحاول أن يُناديَ بصوتٍ عالٍ معلناً أنَّه تِريان ملك نارنيا وهو في أمسِّ حاجةٍ إلى المساعدة. ولكنْ تبيَّنَ له أنَّ صوته لا يُصدِر أيَّ حسّ (كما تبيَّنَ لي مِثلُ ذلك في الأحلام أحياناً).

ثمَّ إنَّ الشخص الذي سبق أن كلَّمه نهض واقفاً وركَّز عينيه على تِريان تماماً، وقال: «أخيالاً كنتَ أم روحاً أم أيَّ شيء آخر، فإنْ كنتَ من نارنيا، آمُرُك باسم أصلان أن تكلِّمني. أنا بطرس الملك الأعلى».

بدأت الغرفة تدور أمام عينَي تِريان. وسمع أصواتَ أولئك الأشخاص السبعة تتكلَّم كلُّها في آنٍ واحد، وتتلاشى كلُّها ثانيةً فثانية، وهي تقول أقوالاً مثل: «انظروا! المشهد يتوارى»، «إنَّه يذوب»، «إنَّه يتلاشى».

وفي اللحظة التالية استيقظ تِريان استيقاظاً تامّاً، فإذا به ما يزال موثوقاً إلى الشجرة وقد زاد شعوره بالبرد والتيبُّس. وكانت الغابة يغمرها الضوء الباهتُ الكئيب الذي يسبق شروق الشمس، وقد بلَّله الندى وأخذ يتقطَّر منه، والصُّبحُ يكاد يطلع.

وكان ذلك الاستيقاظ تقريباً أسوأ لحظة مرَّت في حياته على الإطلاق.

كيف وصلت النجدة إلى الملك

غير أنَّ شقاء الملك لم يدُم طويلاً. فبعد هُنيهة سَمع صوت ارتطام، ثمَّ تبعه صوت ارتطام آخر، وإذا أمامه وَلَدان. وقد كانت الغابة قُدّامه خاليةً تماماً قبل ثوانٍ، فعرف أنَّهما لم يأتيا من وراء الشجرة التي رُبط بها، وإلاَّ فإنَّه كان قد سمع صوتَهما. بل إنَّهما بالحقيقة وببساطة ظهرا من حيثُ لا يدري.

وما إن لمحهما حتَّى لاحظ أنَّهما كانا يرتديان مثل تلك الثياب الغريبة الداكنة التي كان يرتديها أولئك الذين رآهم في حلمه. ولمَّا دقَّق النظر، تبيَّن له أنَّهما كانا الصبيَّ والبنت الأصغرين بين تلك الجماعة المؤلَّفة من سبعة أشخاص.

وبادر الصبيُّ قائلاً: «عجباً! لقد انقطع نَفَسي! كنتُ أظنُّ..».

فقالتِ الفتاة: «أسرِع وحُلَّ قيوده. يمكننا أن نتحدَّث لاحقاً». ثمَّ التفتت إلى تِريان وأضافت: «آسفة لتأخُّرنا حتَّى الآن. لقد جئنا حالما قدرنا».

وبينما هي تتكلَّم، أخرج الصبيُّ من جيبه سكِّيناً، وأخذ يقطع وُثُق الملك بسرعة، بل في الواقع بسرعة مُفرطة، لأنَّ الملك كان مُتيبِّساً وخَدِراً جدّاً بحيث إنَّه ما إن قَطع آخِر حبْل حتَّى سقط أرضاً إلى الأمام على يديه وركبتيه. ولم يتمكَّن من الوقوف ثانيةً قبل أن يستعيد شيئاً من الحياة إلى رجليه بفضل بعض التدليك المُريح.

إذ ذاك قالتِ الفتاة: «تُرى، ألَم تكُن أنت مَن ظهر لنا تلك الليلة ونحن نتناول العشاء، منذ نحو أسبوع؟»

فقال تِريان: «مُنذ أسبوع، أيَّتها الصبيَّة الطيِّبة؟ لقد ذهبتُ في حلمي إلى عالمكم قبل نحو عشر دقائق، لا أكثر!»

وقال الصبيّ: «إنَّها اللَّخبطة المتعلِّقة بفارق الوقت، كما تعوَّدناها يا بول».

فعلَّق تِريان: «تذكَّرتُ الآن أنَّ هذا يرد أيضاً في جميع القصص القديمة. فالوقت في بلادكم الغريبة يختلف عن وقتنا. ولكنْ ما دمنا نتكلَّم عن الوقت، فقد حان وقتُ مغادرتنا هذا المكان، لأنَّ أعدائي على مقربةٍ منَّا. هلاَّ تذهبان معي!»

أجابت الفتاة: «طبعاً، فإيَّاك قد جئنا نُساعِد».

فوقف تِريان على رِجليه، وتقدَّمهما على التلّ نزولاً، نحو الجنوب وبعيداً عن الإسطبل. وكان يعلم تماماً أين ينوي أن يمضي، ولكنَّ هدفه الأوَّل كان الوصول إلى الأماكن الصخريَّة حيث لا يتركون أيَّ أثر، فيما كان



الثاني أن يعبروا بعض الماء حتّى لا يتركوا أيّة رائحة.

وقد استغرق ذلك نحو ساعة من خوض الماء والزحف والتسلّق. وبينما كان ذلك جارياً، لم يكن لدى أيٍّ منهم أيُّ نَفَس للكلام. إلّا أنّ تِريان، رغمَ ذلك، ظلّ يختلس النظر إلى رفيقَيه. وقد جعلَته روعةُ المشي مع ذينك المخلوقَين الآتيين من عالمٍ آخر مشدوهاً بعض الشيء، إلّا أنها أيضاً جعلت جميع القصص القديمة تبدو حقيقيّةً أكثر بكثير ممّا بَدَت من قبلُ على الإطلاق... ومن الممكن الآن أن يحدث أيُّ شيء.

ولمّا وصلوا إلى رأس وادٍ صغير انبسط تحتهم بين أشجارِ قضبانٍ فتيّة، قال: «والآن صرنا بمنجى من خطر أولئك الأوغاد إذ بعُدنا عنهم مسافةً لا بأس بها، ويمكننا أن نمشي بسهولةٍ أكثر». وكانت الشمس قد أشرقت، وقطرات الندى تتلألأ على كلّ غصن، والطيور تُغرّد.

إذ ذاك قال الصبيّ: «ما قولكم في شيء من الطعام؟... أعني لك يا سيّدي. فنحن الاثنين تناولنا فَطورنا».

وتساءل تِريان من أين يؤتى بالطعام هناك. إلّا أنّه لمّا رأى الصبيّ يفتح حقيبة منتفخة كان يحملها، وأخرج رِزمة زيتيّة المظهر وليّنة الملمس، فَهِم المقصود. وكان جائعاً جوعاً شديداً، مع أنّه لم يفكّر في ذلك قبل ذلك الحين.

كان في الرِزمة سندويشَا بيض مسلوق، وسندويشا جبن، وسندويشان فيهما نوع من الحلوى المهروسة. ولو لم يكن جائعاً جدّاً، لما كان قد أحبَّ كثيراً تلك الهريسة، لأنّها نوع من الطعام لا يأكله أحد في نارنيا. ولمّا فرغ من أكل السندويشات الستّة كلّها، كانوا قد وصلوا إلى قعر الوادي، حيث وجدوا صخرة تكسوها الطحالب ويتدفّق منها نبع صغير ذو خرير. فتوقّف الثلاثة جميعاً وشربوا ثمّ رشرشوا الماء على أوجههم الساخنة.

وإذ ردّتِ الفتاة شعرها المبلّل عن جبهتها، قالت: «والآن، ألا تقول لنا مَن أنت ولماذا كنت مُربّطاً وما الموضوع كلّه؟»

فردّ تِريان: «بكلّ سرورٍ، يا آنسة. ولكنْ علينا أن نواصل سيرنا».

وهكذا، فيما ظلّوا سائرين، أطلعهم على هويّته وعلى كلّ ما جرى له. ثمّ قال أخيراً: «والآن، أنا ذاهبٌ إلى بُرجٍ معيّن، هو واحدٌ من ثلاثة أبراج بُنيت في أيّام جدّي

لحراسة خِربة المصباح من بعض المجرمين الخطرين الذين عاشوا في زمانة. فبمشيئة أصلان الصالحة لم أُسلَب مفاتيحي. وفي ذلك البرج سنجد مخزوناً من الأسلحة والدروع وبعض المؤونة أيضاً، مع أنّها ليست أفضل من البسكويت اليابس. وهناك أيضاً يمكن أن نبيت آمنين فيما نرسم خُططنا. والآن، رجاءً، قولا لي مَن أنتما وأخبراني قصّتكما».

فقال الصبيُّ: «أنا يُسطاس صَغرون، وهذه جِلّ پول. وقد جئنا إلى هنا ذات مرّة، قبل دهور ودهور، منذ أكثر من سنة حسب توقيتنا. وكان هنالك شابٌّ اسمه الأمير ريليان، كانوا يحبسونه تحت الأرض، وقد وضع بِركَهموم قدمه في...»

إذ ذاك صاح تِريان: «ها! أأنتما إذاً يُسطاس وجِلّ ذانك اللذان أنقذا الملك ريليان من أسْر سحره الطويل؟»

أجابت جلّ: «نعم، هُما نحن. إذاً الملك ريليان يملك الآن، أليس كذلك؟ أوه، طبعاً، لا بدّ أن يكون هو الملك. لقد نسيت..».

فردَّ تِريان: «كلاَّ! فأنا الملك السابع من بعدِه. وقد تُوفّي منذ أكثر من مئتَي سنة».

فبدا الحزن على وجه جِلّ، وقالت: «أُفّ! ذلك هو الأمرُ المروِّع في الرجوع إلى نارنيا». ولكنّ يُسطاس مضى يقول:

«حسناً، أنت الآن تعرف مَن نحن، يا مولاي. وقد حدث الأمر هكذا. فإنّ الأُستاذ والعمّة پولي جمعانا نحن أصدقاء نارنيا كلّنا معاً..».

فقال تِريان: «لستُ أعرف هذين الاسمَين، يا يُسطاس».

«إنّهما الشخصان الأوّلان اللذان جاءا إلى نارنيا في البداية تماماً، يوم تعلّمت جميع الحيوانات أن تنطق».

فصاح تِريان: «برأسِ الأسد! ذانك الاثنان! اللورد ديغوري والليدي پولي! من بداية العالم! وما زالا حيَّين في عالمكم؟ ما أعجب هذا وما أعظمه! إنّما قُل لي، قُل لي».

أجاب يُسطاس: «حسناً، إنّها ليست عمّتنا في الواقع. إنها الآنسة پلامّر، ولكنّنا نُناديها 'العمّة پولي'. أجل، هذان الاثنان جمعانا معاً، من جهة كي نفرح ونمرح إذْ يُتاح لنا أن نتبادل الأحاديث الطيّبة عن نارنيا (لأنّه ليس من شخصٍ غيرهما يمكننا أن نتحدّث إليه في مثل تلك الأمور)، ولكن من جهةٍ أُخرى لأنّه كان لدى الأُستاذ إحساسٌ بأنّنا مطلوبون هناك بطريقة ما.

«حسناً، ثُمّ دخلتَ أنت علينا مثلَ شَبَح، أو مثلَ شيءٍ تعرفه السماء وحدها، فروّعتَنا حتى كادت أرواحنا تُزهَق ثمّ اختفيت بغير أن تقول كلمة واحدة. بعدئذٍ عرفنا يقيناً أنّ هنالك خَطْباً ما. وكانت المسألة التالية كيف نصل إلى هنا. فلا يمكنك أن تذهب بمجرّد رغبتك في الذهاب. وهكذا تحدّثنا وتحدّثنا، وأخيراً قال الأُستاذ إنّ الطريقة

الوحيدة للذهاب هي باستخدام الخواتم السحريَّة. فبتلك الخواتم جاء هو والعمَّة پولي إلى هنا منذ زمانٍ بعيد جداً، عندما كانا وَلَدين صغيرين، قبل سنين كثيرة من ولادتنا نحنُ الأصغرَ سناً.

«ولكنَّ الخواتم كلَّها كانت مطمورة في حديقة بيتٍ بلندن (تلك هي مدينتنا الكُبرى، يا مولاي)، وكان البيت قد بِيع. وهكذا تمثّلت المشكلة في الوصول إلى الخواتم. إنّك لن تحزر البتّة ما فعلناه أخيراً! ذلك أنَّ بطرس وإدمون (وبطرس هو الملك الأعلى، ذاك الذي تكلَّم إليك) ذهبا إلى لندن ليدخُلا إلى الحديقة من الخلف، في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ الناس. وقد لبسا لباس العمَّال، حتّى إذا رآهما أحد يبدوان كما لو كانا قد جاءا لإصلاح مجاري الصَّرف. ويا ليتني كنتُ معهما، فلا بدَّ أنَّ ذلك كان مُمتِعاً للغاية. ولا بدَّ أنهما نجحا، لأنّه في اليوم التالي أرسل إلينا بطرس برقيَّة (وهي نوعٌ من الرسائل، يا مولاي، سأشرحه لك في وقتٍ لاحق) يُخبرنا فيها بحصولهما على الخواتم. وقد كان غدُ ذلك اليوم هو اليوم الذي فيه ينبغي لي ولپول أن نرجع إلى المدرسة. ونحن الوحيدان اللذان ما يزالان يذهبان إلى المدرسة، كما أننا ندرس في المدرسة عينها. وهكذا ترتَّب أن يقابلنا بطرس وإدمون في مكانٍ معيَّن ونحن في طريقنا إلى المدرسة، ويُعطيانا الخواتم. وكان ينبغي لنا نحن الاثنين أن نذهب إلى نارنيا، كما ترى، لأنَّ مَن هم أكبرُ منّا سناً لا يستطيعون الرجوع إليها.

«وهكذا ركِبنا القطار (وهو وسيلة نقل يُسافِر بها الناس في عالمنا، تتكوَّن من عدَّة عربات موصولة بعضها ببعض)، وقد رافقنا الأُستاذ والعمَّة پولي ولوسي. وأردنا أن نظلَّ مترافقِين أطول مدَّة ممكنة. حسناً، كنّا هناك في القطار. وبينما كُنّا داخلين إلى المحطَّة التي فيها سيُقابلنا الآخران، وكنتُ انظر إلى خارج النافذة لعلّي أراهما، إذْ حصلَت فجأةً أرهبُ رجَّة وضجَّة، وإذا بنا في نارنيا، حيث وجدْنا جلالتك مُربَّطاً إلى الشجرة».

فقال تِريان: «إذاً، لم تستخدما الخواتم قطّ؟»

أجاب يسطاس: «لا، بل إنّنا لم نَرَها قطعاً. فإنَّ أصلان فعل ذلك كلَّه بنا على طريقته، دون أيِّ خواتم».

وقال تِريان: «ولكنّها لدى الملك الأعلى بطرس».

أجابت جِلّ: «نعم، ولكنّنا لا نظنُّ أنّه يقدر أن يستخدمها. فلّما كان ابنا آل پيفنسي الآخران — الملك إدمون والملكة لوسي — هنا آخِرَ مرَّة، قال لهما أصلان إنّهما لن يأتيا إلى نارنيا البتَّة مرَّة أُخرى. وكان قد قال مثل ذلك القول للملك الأعلى، إنّما منذ زمنٍ أقدم. ولك أن تتأكَّد أنّه يأتي كالسَّهم لو سُمح له!»

وقال يُسطاس: «ويلاه! الحرارة تزداد تحت هذه الشمس. فهل كِدنا نصل إلى هناك، يا مولاي؟»

فقال تِريان: «انظرا!» وأشار بإصبعه. فإذا على بُعدِ أمتارٍ منهم مُنفَرجاتٌ رماية رمادية تلوح فوق رؤوس الأشجار. وبعد مسيرةِ دقيقةٍ أخرى، خرجوا إلى فسحة مكشوفة



يكسوها العشب، ويخترقها جدول ماء، وعند الجانب البعيد من الجدول يجثم بُرجٌ مُربَّع ذو نوافذَ قليلةٍ وضيِّقة، وباب وحيد يبدو ثقيلاً في الجدار المواجه لهم.

وأجال تِريان نظره بحذر في هذا الاتِّجاه وذاك، ليتحقَّق من عدم وجود أعداء، ثم مشى نحو البرج، ووقف بلا حراكٍ حيناً يفتِّش عن مجموعة المفاتيح التي كان يعلِّقها بسلسلة فضيَّة ضيِّقة حول عنقه تحت ثياب الصيد التي يرتديها. وقد أخرج مجموعة مفاتيح جميلة، إذ كان اثنان منها ذهبيَّين وكثيرٌ منها مزيَّناً ومُزخرفاً، بحيث يمكنك أن تدرك حالاً أنَّها مفاتيح مصنوعة لفتح غُرَفٍ جليلة وسِريَّة في القصور، أو عُلَبٍ وصناديق من الخشب العَطِر تحتوي على كنوز ملكيَّة. ولكنَّ المفتاح الذي أدخله في قفل الباب الآن كان كبيراً ومُفلطَحاً وغير مُتقن الصُّنع. وكان

القفل قاسياً حتَّى بدأ تِريان حيناً يخشى أنَّه لن يتمكَّن من إدارته، إلَّا أنَّه أداره في النهاية، وانفتح الباب على وسعه محدثاً صريراً بطيئاً كئيباً. ثمَّ قال الملك:

«أهلاً بكما، يا صديقيَّ! أخشى أن يكون هذا هو أفضل قصرٍ يستطيع ملك نارنيا أن يقدِّمه الآن لضَيفَيه».

وسرَّ تِريان أن يرى أنَّ الغريبين نشأا نشأةً صالحة. فإنَّ كليهما قالا له أن يغضَّ نظره عن ذلك وإنَّهما على يقين بأنَّ المكان سيكون حسناً جداً.

وفي الحقيقة أنَّه لم يكن حسناً على نحوٍ مخصوص. فقد كان مظلماً تقريباً وعابقاً برائحة الرطوبة الشديدة. وكان يتكوَّن من غرفةٍ واحدة يبلغ أعلاها السقف الحجريّ، وفي إحدى الزوايا سُلَّم خشبيَّة تؤدِّي إلى بابٍ أُفقيّ يُوصِلُك إلى مُنفرَجات الرماية على السقف. كما كان فيه بعض الأسرَّة الخشبيَّة الخشنة المثبَّتة في الجدران، وعدد كبير من الخزائن والصُّرَر. وكان هنالك أيضاً موقدٌ بدا كما لو أنَّ أحداً لم يُشعِل فيه ناراً منذ سنين عديدة ومديدة.

وقالت جِلّ: «يُستَحسن أن نخرج أوَّلاً ونجمع بعض الحطب للوقود، أليس كذلك؟»

فقال تِريان: «ليس الآن، يا رفيقة!» إذ عقد عزمه على ألَّا يواجَهوا وهم غير مسلَّحين. وأخذ يفتِّش في الخزائن، متذكِّراً وهو شاكرٌ أنَّه طالما حرص دائماً على تفتيش أبراج الحماية تلك مرَّةً في السنة للتحقُّق من شحنها بكلِّ ما

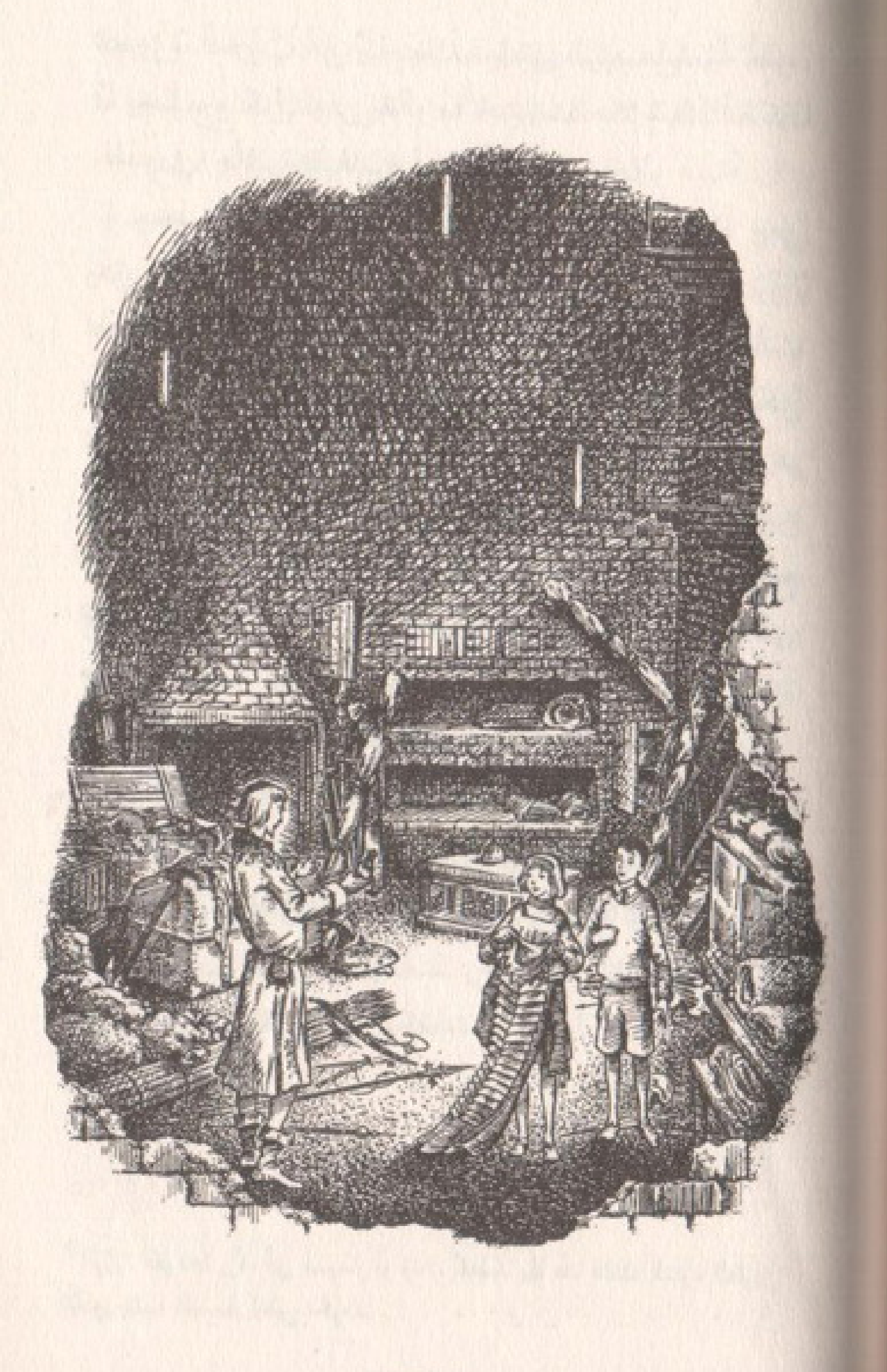
تدعو إليه الحاجة. فإذا بأوتار الأقواس ملفوفة بأغطيتها الحريريَّة المزيَّته، والسيوف والرماح مُشحَّمة حتَّى لا تصدأ، والدروع ما تزال على بريقها داخل لفائفها. إنَّما كان هنالك شيء أفضلُ بعد. فقد قال تِريان: «انظرا!» وهو يسحب قميص زَرَد غريب الشكل وينشره أمام أعينُ الوَلَدين.

فقال يُسطاس: «مولاي، هذا قميصُ زَرَد عجيب الشكل!»

أجاب تِريان: «صحيح، أيُّها الفتى. فهو ليس من صُنع أيِّ قزم نارنيانيٍّ. إنَّه قميص زَرَد كالورمنيّ، أجنبيٌّ خشن. وقد احتفظت دائماً ببضعة أطقُم من هذا النوع جاهزةً للاستعمال، إذ لم أدرِ قطُّ متى قد أُضطرُّ أنا أو أصدقائي إلى التجوال متنكِّرين في بلاد السُّلطان. وانظرا هذه القِنِّينة الحجريَّة. إنَّ فيها سائلاً حين ندهن به أيدينا ووجوهنا يجعلنا سُمراً كأهل كالورمِن».

فقالت جِلّ: «أوه، مَرحى! التنكُّر! كم أُحبُّ التنكُّر!»

وأراهما تِريان كيف يسكبان قليلاً من السائل في كفَّي اليدين ثمَّ يفركانه جيِّداً على وجهَيهما وعنقَيهما حتَّى أكتافهما، ثم على أذرعهما حتَّى الكوعين، فيما فعل ذلك هو أيضاً. وقال: «بعد أن يجفَّ هذا السائل علينا، يمكننا أن نغتسل بالماء فلا يتغيَّر لونُ جلدِنا الجديدُ. ولن يُعيدنا نارنيانيِّين بيضاً سوى الزيت والرماد. والآن، يا جِلّ



العزيزة، لنجرِّبْ هل يُناسِبك قميص الزَّرَد هذا. إنّه أطول ممّا يجب، ولكنْ ليس بقدْرِ ما خشيت. فلا شكَّ أنه كان لخادمٍ في حاشيةِ طَرقانٍ من طراقنتهم».

وبعد قمصانِ الزَّرَد اعتمروا خُوَذاً كالورمنيّة، وهي خُوَذ مُدوَّرة صغيرة تُناسِب الرأس تماماً وفي أعلاها رُزَزٌ* حادّة. ثمّ أخذ تِريان لفائف من القماش الأبيض، كانت في الخزانة، ولفَّها على الخُوَذ حتّى صارت عمائم، ولكنّ الرزّة الفولاذية الصغيرة ظلّت بارزةً في الوسط. وأخذ هو ويُسطاس سيفَين كالورمنيِّين معقوفين، وتُرسين مستديرين صغيرين. ولم يكن من سيفٍ خفيفٍ بما يكفي لتستطيع جِلّ حمله، إلّا أنّه أعطاها سكّين صيد يمكن أن تؤدّي عمل السيف عند الاضطرار. ثمّ سألها: «ألدَيكِ مهارةٌ في الرماية بالقوس، يا آنسة؟»

فأجابت وقد احمرَّ خدّاها: «ليست لديّ مهارة تستحقُّ الذِكر. ولكنّ صغرون ليس رديئاً في الرماية».

وقال يُسطاس: «لا تصدّقها، يا مولاي. لقد كُنّا كِلانا نتدرّب على الرماية منذ رجعنا من نارنيا آخِرَ مرّة، وهي تُعادِلني تقريباً في الكفاءة الآن. ولكنّنا كلينا لسنا بارِعَين كثيراً».

* الرزز: مفردها رزّة، أي مسمار أو وتد. يُقصَد بها هنا ذلك النتوء الطويل الذي يشبه المسمار أعلى الخوذة.

ثمّ أعطى تِريان جِلّ قوساً وجعبةً ملآنةً سهاماً. وكانت المهمّة التالية إشعال نار، لأنّ داخل ذلك البرج كان ما يزال أشبه بكهفٍ منه بأيّ مكانٍ مُغلَق الأبواب، وقد جعل قُشَعريرة البرد تسري في أوصالهم. إلّا أنّهم شعروا بالدفء، وهم يجمعون الحطب، وكانت الشمس قد توسّطت السماء. وما إن بدأ لهيب النار يتأجّج ويتصاعد داخل المدخنة، حتّى أخذ المكان يبدو مُبهِجاً.

غير أنّ الغداء كان وجبةً كئيبة، إذ كان أفضل ما استطاعوه أنّهم طحنوا شيئاً من البسكويت اليابس الذي وجدوه في خزانة وصبُّوا عليه ماءً يغلي، وملّحوه، ليصنعوا منه نوعاً من العصيدة أو الثريد. وطبعاً، لم يكن لديهم ما يشربونه غير الماء.

عندئذٍ قالت جِلّ: «يا ليتنا أحضرنا علبة شاي!»

وقال يُسطاس: «أو علبة كاكاو!»

وقال تِريان: «إنّ برميلاً من النبيذ الجيِّد، أو أكثر، في كلٍّ من هذه الأبراج، كان من شأنه ألّا يضيع سُدى لو كانَ موجوداً».

الفصل السادس

مهمّة عظيمة ليلاً

بعد أربع ساعات تقريباً، استلقى تِريان على واحدٍ من الأسرَّة الجداريَّة لينام نومةً قصيرة. وكان الولدان قد استغرقا في النوم فعلاً وأخذا يشخران، بعدما طلب إليهما أن يسبقاه إلى النوم لأنَّهم سيُضطرُّون إلى السهر مُعظم الليل، وقد علم أنَّهما في سنِّهما لن يستطيعا ذلك دون نوم. ثُمَّ إنَّه قد أنهكهما. فهو أعطى جِلَ فرصةً لممارسة الرماية، وتبيَّن له أنَّها ليست سيِّئة كثيراً، وإن كانت لم ترقَ إلى مستويات نارنيا. وبالحقيقة أنَّها نجحت في إصابة أرنب (ليس من الأرانب الناطقة طبعاً، إذ كان في أنحاء نارنيا الغربيَّة كثيرٌ من الأرانب العاديَّة)، وتمَّ سلْخه وتنظيفه وتعليقه. وتبيَّن لتريان أيضاً أنَّ كِلا الولَدَين خبيران تماماً بهذا العمل المُقرِّز الكريه، إذ سبق أن تعلَّما ذلك الأمر في رحلتهما العظيمة عبرَ أرض المَرَدة في أيّام الأمير ريليان.

ثمَّ إنَّه حاول أن يُعلِّم يُسطاس كيف يستخدم سيفه وتُرسه. وكان يُسطاس قد تعلَّم الكثير ممّا يتعلَّق بالمُسايَفة في مغامراته السابقة، ولكنَّ ذلك كلَّه كان بسيفٍ نارنيانيّ

مستقيم. فلم يكُن قد أمسك قطُّ بسيفٍ كالورمنيٍّ أحدب، ممّا صعَّب الأمر، لأنَّ كثيراً من الضربات تختلف تماماً وبعض العادات التي تعلَّمها بالسيف الطويل ينبغي الآن الإقلاعُ عنها. ولكنَّ تِريان لاحظ أنَّ يُسطاس حادّ البَصَر وسريع التنقُّل بكلّ خفَّة. وقد أدهشته قوَّة كِلا الولَدين، إذ بدَوَا فعلاً أقوى وأكبر وأنضج بكثيرٍ جدّاً ممّا كانا لمّا التقاهما أوَّل مرَّة قبل ساعاتٍ قليلة. وتلك إحدى النتائج التي غالباً ما يُحدِثها هواء نارنيا في الزوّار الذاهبين إليها من عالمنا.

واتَّفق الثلاثةُ جميعاً على أنَّ أوَّل أمرٍ يجب أن يفعلوه هو أن يرجعوا إلى تلَّة الإسطبل ويحاولوا إنقاذ جَوهَر، أُحاديّ القرن. وبعد ذلك، إذا نجحوا في إنقاذه، يحاولون المُضيّ إلى الشرق لمُلاقاة الجيش الصغير الذي يكون نارذَكاء القنطور آتياً به من كيرپراڤيل.

إنَّ محارباً وصياداً خبيراً، مثل تِريان، يستطيع أن يستيقظ دائماً ساعةَ يُريد. وهكذا أمهل نفسه حتّى الساعة التاسعة ذلك المساء، ثمَّ طرد جميع همومه من رأسه، وغطَّ في النوم حالاً. ولمّا استيقظ، خُيِّل إليه أنَّه نام منذ بضع لحظاتٍ فقط، إلّا أنَّه عرف من الضوء وهيئة الأشياء أنَّه قد وقَّت نومه بمنتهى الدقَّة. فنهض، واعتمر خوذته المُعمَّمة (بعدما كان قد نام وهو لابسٌ قميص الزَرَد)، ثمَّ هزَّ الآخرَين حتّى استيقظا. وفي الواقع أنَّهما بدَوَا كثيرَي الشحوب والكآبة وهما ينزلان من سريريهما الجداريَّين وتثاءبا تثاؤباً غير قليل.

عندئذٍ قال تِريان: «والآن، علينا أن نتوجّه من هنا نحو الشمال – ومِن سَعْدنا أنّ النجوم ساطعةُ اللّيلة – وسيكون علينا الآن أن نقطع مسافة أقصر بكثير من تلك التي قطعناها في رحلتنا هذا الصباح، لأنّنا آنذاك درنا دورةً كبيرة، أمّا الآن فسنسير في خطٍّ مستقيم. وإذا تعرّضنا لتحدٍّ، فعليكما أنتما الاثنين أن تظلاّ صامتَين ريثما أبذل أنا كلّ جهدي لأتكلّم كسيّد مُشاكِس مُكابِر فَظٍّ من سادة كالورمِن. وإن سحبتُ سيفي، فعليك أنت يا يُسطاس أن تحذوَ حذوي، ولتقفِز جلّ إلى ورائنا وتقِف واضعةً سهماً على الوتر. ولكنْ إذا صرختُ «إلى البيت!» فعليكما أن تهربا إلى البرج كِلاكما. ولا يُحاوِلنْ أيٌّ منكما أن يستمرّ في القتال، ولو بضرب ضربة واحدة، بعد إشارتي بالانسحاب: فمثل هذه البسالة الزائفة كثيراً ما أفسدَت خططاً بارعة في الحروب. والآن، يا صديقيَّ، لنمضِ قدماً باسْم أصلان».

وهكذا انطلقوا في قلب الليل البارد، وقد كانت جميع النجوم الشماليّة الكبيرة تتلألأ فوق أعالي الشجر. ونجمة الشمال في ذلك العالم تُدعى رأس الرمح، وهي أكثر لمعاناً من النجم القطبيّ في عالمنا.

وقد تمكّنوا حيناً من التقدّم بخطٍّ مستقيم نحو رأس الرمح، لكنّهم ما لبثوا أن وصلوا إلى غابة كثيفة جداً حتّى اضطرُّوا إلى تغيير سيرهم للدوران حولها. وبعد ذلك صعب عليهم تحديد اتّجاههم، لأنّ الأشجار كانت ما تزال

تُظلّلهم. فتولّت جِلّ أمر إعادتهم إلى الاتّجاه الصحيح، وهي التي كانت دليلةً خبيرة في إنكلترة. وكانت بالطبع تعرف نجومها النارنيانيّة تمام المعرفة، إذ سبق أن تجوّلت كثيراً في الأراضي الشماليّة البريّة، واستطاعت الاهتداء إلى الاتّجاه الصحيح مستعينةً بنجومٍ أُخرى بعدما اختفى رأس الرمح.

وما إن تبيّن لتِريان أنّ جِلّ كانت أفضل رائدٍ مُستكشِفٍ بينهم، حتّى جعلها في المقدّمة. وعندئذٍ أذهله أن يرى كيف انسابت أمامهما بكلّ هدوء وكأنّها غير مرئيّة. فهمس ليُسطاس:

«ورأسِ الأسَد! هذه الفتاة بنتُ غابةٍ عجيبةٌ. ولو كان في عروقها دمُ حوريّةِ غابة لَمَا قامت بذلك على نحوٍ أفضل تقريباً».

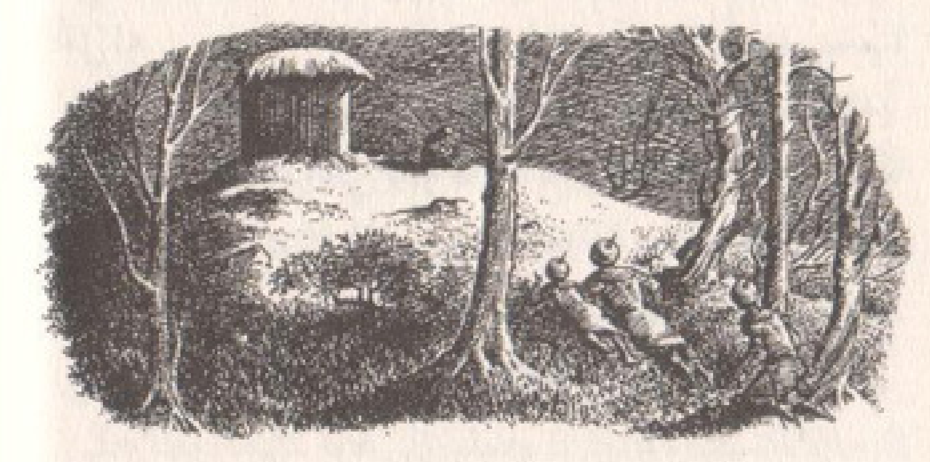
وهمس يُسطاس: «إنّها صغيرة الحجم جداً، وهذا هو ما يُسعِفها». إلّا أنّ جلّ قالت من المقدّمة: «اشْش، ضجّةً أقلّ!»

كانت الغابة حواليهم هادئة تماماً. بل إنّها كانت أهدأ بكثير من المعتاد. ففي ليلةٍ عاديّة بنارْنيا، كان ينبغي وجودُ بعض الأصوات: «ليلة سعيدة!» يقولها بحماسةٍ بين حين وآخر قُنفذٌ من القنافذ، أو نعيب بُومٍ في مكانٍ عالٍ، أو ربّما عزف نايٍ من بعيد يُشير إلى فُوناتٍ* يرقصون، أو بعض

* الفونات: شخصيات تظهر في الأساطير الرومانية، نصفها السفلي كرجلي التيس، ونصفها العلوي كنصف الإنسان العلوي، مع قرني تيس. مفردها «فون».

أصوات الطَّرْق أو الخفق يصدرها أقزامٌ من تحت الأرض. إلَّا أنَّ ذلك كلَّه كان منقطعاً تماماً، وخيَّم على نارنيا وجومٌ وخوف.

وبعد حينٍ بدأوا يصعدون تلَّة شديدة الانحدار، حيث أخذت الأشجار تتباعد. واستطاع تِريان أن يتبيَّن بغير وضوح رأس التلَّة المعهودة والإسطبل. وكانت جلّ آنذاك قد أخذت تسير بحَذَرٍ مُتزايد، وظلَّت تومئ بيدها للآخَرين كي يحذُوَا حذوَها. ثمَّ وقفت بلا حراك، ورآها تِريان تغوص في العشب وتختفي بغير أدنى صوت. وبعد لحظةٍ نهضت من جديد، وقرَّبت فمها إلى أذُن تِريان، وقالت بأدنى همسٍ ممكن: «انبطحْ تُبثِرْ أفضل!» وقد قالت «تُبثِر» بدل «تُبصِر»، ليس لأنَّها كانت تلثغ، بل لأنَّها عرفت أنَّ حرف الصاد الصافر يُصدِر صوتاً يمكن سماعُه صِدفةً أكثر من غيره.



وفي الحال انبطح تِريان، بمثل هدوء جلّ تقريباً، إنَّما ليس تماماً، لأنَّه كان أثقل وزناً وأكبر سنّاً. وما إن تمدَّدا

على الأرض، حتَّى انكشف له كيف يستطيع المرء من موقعه هناك أن يرى حافة التلَّة مقابل السماء المرصَّعة بالنجوم تماماً. وظهر قدَّام الأُفق شكلان أسودان: أحدهما الأسطبل، والآخر حارس كالورمنيٌّ على بُعد أقدام قليلة قُدَّام بابه. وقد كان يقوم بحراسة سيِّئة جدّاً، لا ماشياً ولا واقفاً أيضاً، بل جالساً ورمحه على كتفِه وذقنُه على صدره.

إذ ذاك قال تِريان لجلّ: «أحسنتِ!» لأنَّها مكَّنته من رؤية ما يحتاج إليه تماماً.

ثمَّ نهضوا، وتولَّى تِريان السير في الطليعة. فشقُّوا طريقهم بكلِّ بطء، وهم لا يكادون يجرؤون على التنفُّس، صعوداً إلى أجَمَة شجر لا تبعد عن الحارس أكثر من بضعة عشر متراً. وقال لهما تِريان هامساً: «انتظراني هنا حتَّى أرجع. وإذا أخفقتُ فاهربا». ثمَّ مشى متمهِّلاً بجرأة على مرأى من العدوّ.

فأجفل الرجل لمَّا رآه، وهمَّ بأن يهبَّ واقفاً، إذ خشي الحارسُ أن يكون تِريان واحداً مِن قادَتِه وأن يُعاقَب على جلوسه. ولكن قبل أن يتمكَّن الحارس من النهوض، كان تِريان قد ركع قربه على ركبة واحدة قائلاً:

«أأنت واحدٌ من رجال الحرب عند السلطان (عاش إلى الأبد!)؟ كم يُنعِش قلبي أن ألتقيَك بين هؤلاء النارنيانيِّين الوحوش والعفاريت! هاتِ يدك، يا صديقي».

وقبل أن يدري الحارس الكالورمنيُّ تماماً ما يجري، أحسَّ قبضةً قويَّة تمسك بيده اليُمنى. وفي اللحظة

التالية كان أحدُهم راكعاً على رجليه وهو يضغط بخنجرٍ على عُنقه.

وهمس تِريان في أُذن الحارس: «لا تأتِ بحركة، وإلّا قتلتُك! قُل لي أين أُحاديُّ القرن، تبقَ على قيد الحياة».

فقال الرجل سيّء الحظ مُتلعثِماً: «و... وراء الإسطبل، يا سيّدي».

«حسناً، قُم خُذني إليه!»

وبينما الرجل ينهض، لم يُفارِق رأس الخنجر عنقه. إلّا أنّه انتقل إلى خَلْف (بارِداً وواخزاً تماماً) إذ دار تِريان إلى وراء الرجل وثبّته في موضع مناسب تحت أذنه. فذهب الرجل مرتجفاً ودار إلى ما وراءَ الإسطبل.

ورغم الظلام، استطاع تِريان أن يرى في الحال شكل جَوهَر الأبيض، فقال: «سكوتاً! لا، لا تصهل. نعم، يا جَوهَر، هذا أنا. كيف ربطوك؟»

وسمع صوت جَوهَر يقول: «شدُّوا قوائمي الأربع بالشّكال*، وربطوني مُلجَماً بحلقةٍ في حائط الإسطبل».

«قف هنا، أيُّها الحارس، وظهرك إلى الحائط. هكذا! والآن، يا جَوهَر، سدِّد رأس قرنك إلى صدر هذا الكالورمنيّ».

* الشّكال: حبل تُربَط بهِ قائمة حيوان مدجّن فتبقى مطوية.

فقال جَوهَر: «بطيبة خاطر، يا مولاي».

«إذا تحرّك، فاطعنْ قلبه».

ثمّ قطع تِريان الحبال في ثوانٍ قليلة. وبما تبقّى منها ربَط يدي الحارس وقدميه. وبعد ذلك أمره بفتح فمه، ثمّ حشاه عُشباً وربَطه من فروة رأسه إلى ذقنه حتّى لا يتمكّن من إصدار أيّ صوت، وأقعده في وضعيّة جلوس، وأسنده إلى الحائط. وقال له:

«لقد قسَوتُ عليكَ قليلاً، يا عسكريُّ. ولكنّ الضرورة دعتني إلى ذلك. إذا تلاقَينا ثانيةً، فقد يصدف أن أُحسِن معاملتك. والآن، يا جَوهَر، لننطلق بهدوء!»

وطوّق رقبة الحيوان بذراعه اليسرى، ثمّ انحنى وقبّل أنفه، وسُرَّ كلاهما كثيراً. ورجعا بأهدإ ما يكون إلى المكان الذي فيه ترك الملك الولدين. وقد كان الظلام تحت الأشجار أشدّ، حتّى كاد يصطدم بيُسطاس قبل رؤيته.

وهمس تِريان: «كلُّ شيء بخير. لقد أنجزنا الليلة مهمّة عظيمة. والآن، إلى البيت».

ثمّ دارا وتقدّما خطوات قليلة، وإذا بيُسطاس يقول: «أين أنتِ يا پول؟» فلم يكن جواب. وسأل: «مولاي، هل جِلّ إلى جانبك الآخر؟»

فأجاب تِريان: «ماذا؟ أليست هي إلى جانبك الآخر؟»

وكانت لحظة رهيبة. إذ لم يجرؤا أن يُناديَاها، بل همسا باسْمِها بأعلى همساتٍ استطاعاها. إنّما لم يكُن جواب.

وسأل تِريان: «هل فارقتك وأنا غائب؟»

فقال يُسطاس: «لم أرَها، ولا سمعتُها، وهي تذهب. ولكنْ ربَّما ذهبَت دون علمي، إذ يمكنها أن تكون هادئةً هدوءَ الهرّ، كما رأيتَ بعينيك».

لحظتَئذٍ سُمع قرعُ طَبل من بعيد، فنصب جَوهَر أُذنيه إلى الأمام، وقال: «أقزام!»

وتمتم تِريان: «وأقزامٌ خَوَنة، أعداء، على الأرجح».

فيما قال جَوهَر: «وها هو شيءٌ آتٍ على حوافر وهو أقرب إلينا بكثير».

فوقف الآدميّان وأُحاديُّ القرن بلا حراك. لقد تراكمت الآن الأشياءُ المُقلِقة، بحيث باتوا لا يعرفون ماذا ينبغي أن يفعلوا. وأخذ وقْع الحوافر يتقارب منهم باطّراد.

ثمَّ همس صوتٌ قريبٌ منهم جداً: «يا هُوه! أجميعكم هنا؟»

وقد كان ذلك – بحمدِ السماء – صوت جِلّ.

وسأل يُسطاس بهمسٍ ساخط، إذ كان قد خاف للغاية: «أين كنتِ؟»

فقالت جِلّ لاهثةً: «في الإسطبل». ولكنَّ لُهاثها كان من ذلك النوع الذي يصدر عنك وأنت تُغالب ضحكةً مكبوتة.

وجأر يُسطاس: «أوه، أتحسبين الأمر مُضحِكاً؟ حسناً، كلُّ ما أستطيع قوله هو..».

إلَّا أنَّ جِلّ سألت: «هل أحضرتَ جَوهَر، يا مولاي؟»

«نعم! إنَّه هنا. ما ذلك الحيوان معك؟»

«إنَّه هو... ولكنْ لنمضِ إلى البيت قبل أن يستيقظ أحد!» ثمَّ صدرت انفجاراتُ ضحكٍ خفيفة مرَّةً أخرى.

فلبّى الآخرون طلبها حالاً، إذ كانوا قد لبثوا طويلاً في ذلك المكان الخطِر، وكانت طبول الأقزام أكثر قُرباً منهم على ما بدا. وبعدَ بضع دقائق في سيرِهم نحو الجنوب، قال يُسطاس: «ماذا تعنين بقولك إنَّك حصلت عليه هو؟»

فأجابت جِلّ: «أصلان المزيَّف!»

وسأل تِريان: «ماذا؟ أينَ كُنتِ؟ ماذا فعلتِ؟»

فردَّت جِلّ: «حسناً، يا مولاي. ما إن رأيتُ أنكما تمكَّنتُما من إزاحة الحارس من الطريق، حتَّى فكَّرتُ بأنَّه يحسن بي أن أُلقي نظرة على داخل الإسطبل لأرى ما فيه حقّاً. وهكذا زحفتُ إليه. وما كان أسهل سحْب السقّاطة! وبالطبع كان الظلام حالكاً في الداخل، والرائحة الفائحة كرائحة أيِّ إسطبل آخر. ثمَّ أشعلتُ عود كبريت فإذا بي – هل تُصدِّقان؟ – لا أجد هناك سوى هذا الحمار المُسِنّ وقد رُبِطت على ظهره صُرَّةٌ من جلدِ أسد. وهكذا سحبتُ سكّيني وقلتُ له إنَّ عليه أن يأتي معي. وبالحقيقة، لم يكن من داعٍ لتهديده بالسكّين قطعاً. فقد كان سَئِماً جداً من الإسطبل ومستعداً تماماً لمرافقتي... أليس كذلك يا لَغزان العزيز؟»

وقال يُسطاس: «يا لَلعجب! حسناً، أنا... أنا مُتحيِّر. لقد كنت غاضباً عليكِ قبل لحظات، وما زلتُ أظنُّ أنّه

كان دنيئاً منكِ أن تتسلَّي وحدكِ من دوننا. إنَّما ينبغي لي أن أعترف... حسناً، أعني أن أقول.. حسناً، أنَّه كان أمراً رائعاً أن تفعلي ما فعلتِه. فلو كانت فتىً، لوجب أن تُجعَل فارساً، أليس كذلك يا مولاي؟»

فردَّ تِريان: «لو كانت فتىً، لوجب أن تُجلَد بالسَّوط عقاباً على مخالفتها للأوامر». ولم يتمكَّن أحدٌ في الظلام أن يعرف أقال ذلك عابساً أم باسماً. إنَّما في الدقيقة التالية سُمع صوتُ صليلِ معدن. فسأل جَوهَر بحدَّة:

«ماذا تفعل، يا مولاي؟»

وقال تِريان بصوتٍ رهيب: «أسحب سيفي لأقطع رأس الحمار اللعين. قِفي جانباً، يا بنت!»

فقالت جِلّ: «آه، رجاءً لا تفعل، لا تفعل هذا. بالحقيقة، عليك ألّا تفعَل هذا. لم تكن الغلطة غلطته هو، بل كانت غلطة القرد. إنَّه لم يكن يفهم ما يفعله أو أنه أخطأ. وهو آسِفٌ جداً. ثمَّ إنَّه حمار لطيف. واسمه لَغزان. وقد طوَّقت عنقه بذراعيَّ!»

وقال تِريان: «يا جِلّ، أنت الأشجع والأفهم بشؤون الغابة بين رعاياي جميعاً، ولكنَّكِ أيضاً أكثرهم وقاحةً وعصياناً. حسناً، فليبقَ الحمار عائشاً. كيف تدافعُ عن نفسك، يا حمار؟»

فانطلق صوت الحمار قائلاً: «أنا، يا مولاي؟ أنا فعلاً آسِفٌ جداً إن كنتُ قد أخطأت. لقد قال القرد إنَّ أصلان أراد لي أن ألبس ذلك الزيّ. وظننتُ أنَّ القرد عليم. فأنا

لستُ ذكيّاً مثله. وأنا لَمْ أعملْ إلّا ما طلبه منّي. لم أكن مسروراً قطُّ بالعيش في ذلك الإسطبل. حتَّى إنَّني لا أدري ما كان يجري في الخارج. فلم يكن يسمح لي بالخروج إلّا دقيقةً أو دقيقتين في الليل. وبعضَ الأيّام، كانوا ينسَون أن يسقوني ماءً أيضاً».

عندئذٍ قال جَوهَر: «مولاي، أولئك الأقزام يقتربون أكثر فأكثر. فهل ينبغي أن نواجههم؟»

وفكَّر تِريان هُنيهةً، ثمَّ ضحك فجأةً ضحكة عالية. وبعدئذٍ تكلَّم، غير هامسٍ هذه المرَّة:

«وحقّ الأسد، إنَّ ذهني يتبلَّد! أنواجههم؟ حتماً سنواجههم. سنواجه أيّاً كان الآن. فعندنا هذا الحمار نُريهم إيّاه. فليرَوا الشيء الذي خافوه وانحنَوا له. يمكننا أن نُبيِّن لهم حقيقة مكيدة القرد الخبيثة. لقدِ انفضح سرُّه، ودارتِ الدائرة عليه. فغداً نشنق ذلك القرد على أعلى شجرة في نارنيا. كفانا همسٌ وتسلُّل وتنكُّر! أين أولئك الأقزام الشُّرَفاء؟ عندنا بشارةٌ لهم!»

بعد مُضيِّ ساعاتٍ من الهمس، يكون مجرَّدُ صوتِ أيِّ متحدِّثٍ يتكلَّم عالياً ذا تأثيرٍ مؤثِّرٍ على نحوٍ عجيب. وهكذا أخذَت الجماعة كلُّها تتكلَّم وتضحك. حتَّى لَغْزان رفع رأسه ونهق نهقةً عظيمة: هاوْ — هِي — هاو — هِي — هِي! وهذا أمرٌ كان القرد قد منعه منه أيّاماً.

عندئذٍ توجَّهوا صوب قرْع الطبول، فإذا به يتعالى باطِّراد، وما لبثوا أن رأوا ضوء مشاعل أيضاً. وقد وصلوا



إلى واحدٍ من تلك الطرق الوعرة (التي لا يكاد يصحُّ أن تُسمَّى طرقاً) كان يخترق خِربة المصباح. على ذلك الطريق شاهدوا نحو ثلاثين قزماً سائرين بثباتٍ وجدّ، حاملين كلُّهم رفوشهم* ومَعاوِلهم الصغيرة على أكتافهم. وكان كالورمنيّان مسلّحان يتقدَّمان الصفّ، وآخران يسوقانه من خَلف.

فخرج تِريان إلى ذلك الطريق، وقال بصوتٍ كالرَّعد: «وقوفاً! قِفا أيُّها العسكريّان. إلى أين تأخذان هؤلاء الأقزام النارنيانيِّين، وبأوامرِ مَن؟»

* الرفش: تلك الأداة التي تُرفَع وتُجرَف بها الحبوب والتراب، وهي تشبه الملعقة في شكلها.

الفصل السابع

أقزام لئام

إذ رأى العسكريّان الكالورمنيّان اللذان يتقدَّمان صفَّ الأقزام ما حسباه طَرقاناً (أو سيِّداً عظيماً) يرافقه خادمان مسلّحان، إذ ذاك توقَّفا ورفعا رمحيهما تحيّةً، وقال أحدُهما: «يا سيّدي، إنّنا نقتاد هؤلاء الأقزام إلى كالورمِن ليشتغلوا في مناجم السلطان (عاش إلى الأبد!)».

فردَّ تِريان: «قَسماً بالإله العظيم طاش، إنّهم طائعون جدّاً». ثمَّ التفت فجأةً إلى الأقزام أنفسهم، وكان واحدٌ من كلِّ ستّة بينهم تقريباً يحمل مشعلاً. ففي ذلك الضوء الخافق استطاع أن يرى وجوههم ذات اللحى ناظرةً كلُّها إليه بملامح التجهُّم والعناد. وسألهم: «هل شنَّ السلطان حرباً كبرى واحتلَّ بلادكم، أيُّها الأقزام، حتّى إنّكم تمضون صابرين لتموتوا في حُفَر الملح في بُغراهان؟»

فحدَّق العسكريّان إليه مدهوشَين، إلّا أنَّ الأقزام كلَّهم أجابوا: «هذهِ أوامر أصلان. إنّها أوامر أصلان. فهو قد باعنا. وماذا يمكننا أن نفعل ضدَّه؟»

ثمَّ أضاف واحدٌ منهم وهو يبصق: «بل هذا من فعل

السلطان! كم أودُّ لو يجرِّب هذا بنفسه!»

فقال العسكريُّ الرئيس: «سكوتاً، يا حقير!»

عندئذٍ جرَّ تِريانُ لَغْزانَ إلى الأمام مقابل الضوء، وقال: «انظروا! لقد كان ذلك كذباً بكذب. إنَّ أصلان لم يأتِ قطُّ إلى نارنيا هذه المرَّة. فالقرد قد خدعكم. وهذا هو الشيء الذي كان يُخرِجه إليكم من الإسطبل كي تروه. فانظروا إليه!»

إنَّ ما رآه الأقزام، وقد تمكَّنوا الآن من رؤيته عن قُرب، كان كافياً حتماً لدفعهم إلى التساؤل عن تصديقهم للخدعة. وكان جلد الأسد قد بات غير مرتَّب تماماً في أثناء حبس لَغْزان طويلاً داخل الإسطبل، ثم ازداد سوءاً في أثناء رحلته الطويلة وسط الغابة المظلمة. وصار معظمه متجمِّعاً في كتلة كبيرة فوق كتفٍ واحدة. أمَّا الرأس، فضلاً عن كونه قد انزاح إلى ناحيةٍ واحدة، فقد رجع إلى

الوراء كثيراً بطريقةٍ ما بحيث يستطيع أيُّ شخصٍ الآن أن يرى وجهَ الحمار الظريفَ اللطيف مُحملِقاً من داخله. وقد برز بعض الحشيش من أحد جانبي فمه، لأنَّه كان يقوم بشيءٍ من القضم الهادئ وهُم يصطحبونه. وكان يتمتم: «لم تكن الغلطة غلطتي. أنا لستُ ذكياً. ولم أقُل قطُّ إنَّني ذكيّ».

لبث الأقزام هُنيهةً يُحدِّقون إلى لَغْزان فاغري الأفواه، ثم قال أحد العسكريَّين بحدَّة: «أأنت مجنون، يا سيِّدي؟ ماذا تفعل بهؤلاء العبيد؟» فيما قال الآخر: «ومَن أنت؟» ولم يعُد أيٌّ من رمحَيهما في وضع التحيَّة الآن، بل أُنزِلا إلى تحت وصارا على أُهبة الاستعمال.

وقال العسكريُّ الرئيس: «هاتِ كلمة السرّ!»

فأجاب الملك وهو يسحب سيفه: «هذه كلمة السرّ عندي: ها النُّور يَطلع، والكذب يُنـزع! فالآن خُذ حِذرك، يا وغد، لأنَّني أنا تِريان ملك نارنيا».

ثمَّ هجم على العسكريِّ الرئيس كالبرق. أمَّا يُسطاس، وقد سحب سيفه لمَّا رأى الملك يسحب سيفه، فاندفع على العسكريِّ الآخر؛ وكان وجهه شاحباً شحوبَ الموتى، إلَّا أنَّني لا ألومه على ذلك. وأسعفه الحظُّ الذي يكون أحياناً من نصيب الأغرار. فقد نسي كلَّ ما حاول تِريان أن يُعلِّمه إيَّاه عصرَ النهار السابق، وضربَ بالسيف ضربةً شديدة (لستُ أدري فعلاً هل أبقى عينيه مفتوحتين)، فإذا به يجد الكالورمنيَّ الآخر صريعاً عند قدميه، ممَّا أدهشه

دهشةً فائقة. ومع أن ذلك كان فَرَجاً عظيماً، فقد كان في تلك اللحظة مُخيفاً بالأحرى. إذ دام قتال الملك ثانيةً أو ثانيتين بعد، ومن ثمَّ أجهز هو أيضاً على خصمه، وصاح بيُسطاس: «حذارِ الآخرَين!»

غير أنَّ الأقزام كانوا قد تخلَّصوا من الكالورمنيِّين الباقينَ، فلم يبقَ أيُّ عدوّ.

وقال تِريان مُربِّتاً ظهر يُسطاس: «أحسنتَ يا يُسطاس! والآن، أيُّها الأقزام، أنتم أحرار. وغداً أقودكم لتحرير نارنيا كلِّها. هتافاً مُثلَّثاً لأصلان!» غير أنَّ النتيجة التي تلت ذلك كانت سيِّئة جداً. فقد جرت محاولة اعتداء واهية من قِبَل بضعة أقزام (نحو خمسة) ما لبثت أن تلاشت في الحال؛ وصدرَت عن عددٍ من الآخرين تذمُّراتٌ متجهِّمة. وكثيرون منهم لم يقولوا شيئاً على الإطلاق.

فقالت جِلّ وقد نفِد صبرها: «ألا يفهمون؟ ما خَطبُكم جميعاً أيُّها الأقزام؟ أما سمعتم ما قاله الملك؟ لقد انتهى كلُّ شيء. إنَّ القرد لن يحكم نارنيا بعد. ويستطيع الجميع أن يرجعوا إلى الحياة العاديَّة. يمكنكم أن تمرحوا وتفرحوا من جديد. ألستُم مسرورين؟»

وبعدَ نحو دقيقة من الصمت، قال قزم غير حسَن المنظر ذو شعرٍ ولحية أسودَين كالفحم: «ومَن تكونين أنتِ يا آنستي الصغيرة؟»

فأجابت: «أنا جِلّ، جِلُّ التي أنقذَت الملك ريليان من أسْر السِّحر... وهذا يُسطاس الذي فعل ذلك أيضاً...

وقد عُدنا من عالمٍ آخر بعد مئاتٍ من السنين. فإنَّ أصلان أرسلنا».

ونظر جميع الأقزام بعضُهم إلى بعض مكشّرين، ومتبسّمين سخريةً واستهزاءً، لا فرحاً ومرحاً. ثم قال القزم الأسود (وكان اسمه فحمان): «حسناً، لستُ أدري ما تعتقدون، يا شباب، ولكنَّني أنا أعتقد أنَّني سمعتُ عن أصلان ما يكفيني سماعُه بقيةَ عمري».

فدمدم الأقزام الآخرون: «هذا صحيح، هذا صحيح! فالأمر كلُّه نبتة وهميَّة، نبتةٌ مُزهِرة».

فسأل تِريان: «ماذا تقصدون؟» ولم يكُن قدِ اعتراه الشحوب وهو يقاتل، إلَّا أنَّه شحب الآن. فقد ظنَّ أنَّ تلك ستكون لحظة سعيدة، ولكنَّها كانت تتحوَّل إلى ما يُشبِه حلماً مزعجاً.

وقال فَحمان: «لا بدَّ أنَّك تظنُّ أنَّنا حمقى فارغو الرؤوس، لا بدَّ أنَّك تظنُّ ذلك. لقد خُدِعنا مرَّةً؛ والآن

تتوقَّع منا أن نغيِّر قناعتنا في دقيقة واحدة. لا فائدة لنا في مزيد من القصص عن أصلان. انظر! تطلَّع إليه! حمارٌ مُسِنٌ ذو أُذنين طويلتين!»

فقال تِريان: «بحقّ السماء، إنك تدفعني إلى الجنون. أيُّ واحدٍ منّا قال إنّ هذا هو أصلان؟ إنّه صورة القرد المزيّفة لأصلان الحقيقي. ألا يمكنك أن تفهم هذا؟»

أجاب فَحمان: «وعندك صورة مُزيّفة أفضل، على ما أظنّ! لا، شكراً! لقد انخدعنا مرّة، ولن ننخدع ثانية».

فقال تِريان بغضب: «لا تزييف عندي. فأنا أخدم أصلان الحقيقيّ».

وقال بضعة أقزام: «أين هو؟ من هو؟ أرِنا إيّاه!»

أجاب تِريان: «أتظنّون أنّه في جيبي، يا أغبياء؟ مَن أنا حتّى أتمكّن من جعل أصلان يظهر إطاعةً لأمري؟ إنّه ليس أسداً أليفاً».

وما إن خرجت هذه الكلمات من فمه، حتّى أدرك أنّه خطا خطوةً خاطئة. فقد بدأ الأقزام حالاً يكرّرون: «ليس أسداً أليفاً، ليس أسداً أليفاً»، بغناءٍ رتيب ساخر. وقال أحدهم: «ذلك هو ما دأبت الفئة الأُخرى في قوله لنا».

فقالت جِلّ: «أتعني أنك لا تؤمن بأصلانَ الحقيقيّ؟ ولكنّني أنا رأيتُه. وهو قد أرسلنا نحن الاثنين إلى هُنا من عالمٍ آخر».

وقال فَحمان مبتسماً ابتسامةً عريضة: «آهه! هكذا

تقولين أنتِ. لقد علّموك أُمثولتك جيّداً. وها أنتِ تُسمِّعين درسك، أليس كذلك؟»

فصاح تِريان: «يا وضيع، هل تكُذّب سيّدةً في وجهها؟»

أجاب القزم: «ليكن كلامك مهذّباً، يا سيّد! لا أظنّ أننا نحتاج إلى مزيد من الملوك — إن كنتَ أنتَ تِريان مع أنّك لا تبدو شبيهاً به — كما لا نحتاج إلى أيّ أصلان. فسوف نتولّى تدبير أمورنا بأنفسنا من الآن فصاعداً، ولن نرفع قبّعاتنا احتراماً لأحد. مفهوم؟»

وقال الأقزام الآخرون: «صحيح! نحن مستقلّون الآن. فلا أصلانَ بعد، ولا ملوكَ آخرين، ولا مزيد من القصص السخيفة عن عوالم أُخرى. إنّ الأقزام هم للأقزام». ثمّ بدأوا يتّخذون أمكنتهم ويستعدّون للسير رجوعاً إلى المكان الذي جاؤوا منه.

فقال يُسطاس: «يا لكم من أوغاد صغار! ألن تقولوا ولو شكراً على إنقاذكم من مناجم الملح؟»

وقال فحمان وهو ينظر شزْراً: «بلى، نحن نعرف حقيقة الأمر تماماً. فأنتم أردتم أن تستخدمونا، ولذلك أنقذتمونا، إنكم تلعبون لعبةً من لعَبكم. هيا بنا، يا شباب!»

ثمّ أخذ الأقزام ينشدون أُغنيتهم الصغيرة الغريبة الموقَّعة على قرْع الطبول، وانطلقوا سائرين ليتواروا في قلب الظلام. وحدّق إليهم تِريان وأصدقاؤه مُتعجّبين. ثمّ قال الملك كلمةً وحيدة: «هيّا!» فتابعوا سيرهم.

وقد كانوا جماعةً صامتة. فإنَّ لَغْزان شعر بأنَّه ما يزال عرضةً للعار، كما أنَّه أيضاً لم يستوعب تماماً ما جرى. وفضلاً عن كون جِلّ مشمئزَّةً من الأقزام، فقد كانت شديدة الإعجاب بانتصار يُسطاس على الكالورمِنيّ وشعرت بالخجل تقريباً. أمّا يُسطاس فكان قلبه ما يزال يخفق بسرعةٍ.

ومشى تِريان وجَوهَر معاً بحزن في المؤخَّر، وقد ألقى الملك ذراعه على كتف أُحاديّ القرن، وكان هذا أحياناً يمسّ خدَّ الملك بأنفه الناعم. ولم يحاولا أن يُعزِّيا أحدُهما الآخر بالكلام. إذ لم يكن سهلاً للغاية التفكيرُ بأيِّ كلامٍ يُقال فيكون مُعزِّياً. وما كان قد خطر في بال تِريان قطُّ أن يكون من نتائج إقامة القرد لأصلانٍ مُزيَّف كفُّ الناس عن الإيمان بأصلانَ الحقيقيّ، بل كان يشعر في كثيرٍ من اليقين بأنَّ الأقزام سيقفون في صفِّه حالما يُبيِّن لهم أنَّهم قد خُدِعوا. وكان من شأنه في الليلة التالية أن يقودهم إلى تلَّة الإسطبل ويُريَ جميع المخلوقات لَغْزان، فينقلبَ الجميع على القرد، وربَّما يجري عراكٌ مع الكالورمِنيِّين ينتهي بعدَه كلُّ شيء. ولكنْ بدا له الآن أنَّه لا يستطيع أن يُعوِّل على أيِّ شيء. كما تساءل عن عدد النارنيانيِّين الآخرين الذين قد يتصرَّفون مثلما تصرَّف الأقزام.

وفجأةً قال لَغْزان: «أظنُّ أنَّ شخصاً يلحق بنا».

فتوقَّفوا وتسمَّعوا. وتأكَّد لهم وقْع قدمَين صغيرتين خلفهم.

عندئذٍ صاح الملك: «مَن هُناك؟»

فسُمع صوتٌ يقول: «ما هذا إلَّا أنا، يا مولاي، غَيمان القزم. وقد تمكَّنتُ من الفرار من بين الآخرين. أنا في صفِّك، يا مولاي، وفي صفِّ أصلان. فإذا وضعتَ في قبضتي سيفَ أقزام، أضربُ بسرورٍ ضربةً ناجحة بسرعةٍ فائقة قبل أن ينتهي كلُّ شيء!»

فتجمَّعوا كلُّهم حواليه، ورحَّبوا به وأثنَوا عليه، وربَّتوا كتفَيه. وبالطبع، ما كان قزم واحد ليُحدِث فَرقاً كبيراً جدّاً، ولكنَّ الحصول ولو على واحدٍ فقط كان أمراً مبهجاً جدّاً بطريقةٍ ما. وهكذا أشرقت وجوه الجميع. غير أنَّ جِلّ ويُسطاس لم يظلّا على بهجتهما طويلاً، إذ راحا يتثاءبان وقد ثقل رأساهما، ومنعهما إرهاقُهما الشديد أن يفكِّرا بأيِّ شيء سوى السرير.



وكان في أشدِّ ساعات الليل برداً، قُبَيلَ الفجر، أنَّهم وصلوا إلى البُرج. ولو وجدوا وجبة طعام جاهزةً لهم، لسَرَّهم جدّاً أن

يأكلوا. إلّا أنّهم ما كانوا لِيُطيقوا مجرَّد التفكير بالإزعاج والتأخير اللذَين يُصاحِبان إعداد وجبةٍ ما. فشربوا من جدولِ ماء، ورشرشوا بعض الماء على وجوههم، ثمّ تهالكوا على أسرّتهم المُثبّتة في الجدار، ما عدا لَغْزان وجَوهَر اللذَين قالا إنّ بقاءهما في الخارج سيكون أكثر إراحةً لهما. وربّما كان ذلك حسناً أيضاً، لأنّ وجود أُحاديّ قَرن وحمارٍ سمينٍ كبير الحجم داخل غُرفة يجعلها مزدحمةً دائماً.

إنّ أقزام نارنيا، رغم كون طولهم لا يتعدّى أربع أقدام، هم أصلَب المخلوقات وأقواها بين مَن يُعادِلونهم حجماً. وهكذا، فمع أنّ غيمان قضى نهاراً قاسياً وسهر ليلةً طويلة، فقد استيقظ قبل الآخرين وهو مُنتعِش ومُتجدِّد النشاط. وفي الحال أخذ قوس جِلّ وخرج، واصطاد حمامتَين بريّتَين. ثمّ قعد على درجة الباب ينتفهما ويُدردِش مع جَوهَر ولَغزان.

وقد بدا لَغْزان وشعر أنّه أحسنُ حالاً بكثير في ذلك الصباح. وإذ كان جَوهَر أُحاديّ قَرن، وتالياً أحدَ أشرفِ الحيوانات وألطفِها، فقد عامل لَغْزان بمنتهى اللطف والمجاملة، محدِّثاً إيّاه عن أشياءَ من النوع الذي يستطيعان كلاهما أن يفهماه، كالعشب والسُكّر والاعتناء بالحوافر.

وعندما خرج يُسطاس وجِلّ من البرْج، وهما يتثاءبان ويفركان أعيُنَهما، في العاشرة والنصف تقريباً، أراهما القزم أين يمكنهما أن يجدا كثيراً من نبتة نارنيانيّة تُدعى

«الحُمّاض البرّي»، وتُشبِه كثيراً عشبة الحُمَيض المعروفة، إلّا أنّ طعمها أطيب بكثير عندما تُطبَخ. (ويلزمها قليلٌ من السَّمن والفلفل لتصير فاخرة، إلّا أنّ ذلك كان بعيد المنال.) وهكذا، بشيءٍ من هنا وشيءٍ من هناك، توافرت لديهم مقوّماتٌ يخنة أساسيّةً للفَطور أو للغداء، أيّاً شئت أن تسمّي تلك الوجبة. أمّا تِريان فتوغّل في قلب الغابة قليلاً وفأسُه بيده، ثمّ رجع حاملاً بعض الأغصان اليابسة للوقود.

وبينما الوجبة تُطهى — الأمرُ الذي بدا أنّه استغرق وقتاً طويلاً ولا سيّما لأنّ رائحتها كانت تبدو أشهى فأشهى كلّما قاربت النُّضج — عثر الملك على عُدّة أقزام كاملة تُناسِب غيمان: قميص زَرَد وخوذة، وسيف وترس، وحزام وخنجر. ثمّ تفقّد سيف يُسطاس فتبيّن له أنّه قد ردّه إلى غمده مُتّسِخاً بعد قتل الكالورمنيّ، فوبّخه على ذلك وجعله يُنظّفه ويُلمّعه.

كلّ ذلك وجِلّ تروح وتجيء، مُحرِّكةً القِدْر أحياناً، وناظرةً أحياناً بحسد إلى الحمار ووحيد القرن اللذين كانا يرعيان العُشب راضيَين. وكم مرّةٍ تمنّت في ذلك الصباح لو تستطيع أن تأكل العشب!

ولكنْ لمّا حضرَت الوجبة، شعر الجميع بأنّها كانت تستحقّ الانتظار، وسكب الجميع حِصَصاً ثانية.

ثمّ لمّا أكل كلّ واحدٍ بقدْر استطاعته، خرج الآدميُّون الثلاثة والقزم وقعدوا على درجة الباب، واستلقى صاحبا

الأرجل الأربع مقابلهم، وعمد القزم (بإذنٍ من جِلَ وتريان كليهما) إلى إشعال غليونه. وقال الملك: «والآن، يا صديقنا غيمان، أغلب الظنّ أنّ عندك أخباراً عن العدوّ أكثر ممّا عندنا. فأخبِرْنا بكلّ ما تعرفه. وأوّلاً، ما الحكاية التي يحكونها عن نجاتي؟»

فقال غيمان: «أمكَر حكاية حُكِيَت، يا مولاي. وقد حكاها الهرُّ بُنّيَ، والأرجح أنّه اختلقها أيضاً. فيا مولاي، بُنّيَ هذا – وإن كان من هرٍّ ماكر فهو الأمكر – قال إنّه كان مارّاً بقرب الشجرة التي إليها ربَط أولئك الأوغاد جلالتك. وقال (مع احترامي الكلّيّ لك) إنّك كنتَ تُعوي وتلعن وتشتم أصلان، بعباراتٍ لا يودُّ أن يعيدَها (على حدّ قوله) متظاهراً باللياقة واللباقة على الطريقة التي تعرف جلالتك أنّ الهرَّ يُتقنها عندما يشاء. وعندئذ، كما يقول بُنّيَ، ظهر أصلان فجأةً في ومضة برق والْتهمَ جلالتك بلُقمةٍ واحدة.

«وقد ارتعدت جميع الحيوانات من هذه القصّة، وأُغمي على بعضها حالاً. أمّا القرد، فقد تابعها واستغلّها طبعاً. إذ قال: 'انظروا ما يفعله أصلان بالذين لا يحترمونه؛ ليكُن ذلك تحذيراً لكم جميعاً.' فأعولَت المخلوقات المسكينة ووَلْولت وقالت: 'سيكون كذلك، سيكون كذلك!' وهكذا، كانت النتيجة النهائيّة أنّ نجاة جلالتك لم تجعلهم يفكّرون في إمكانيّة وجود أصدقاء موالين ما زالوا يرغبون في مساعدتك، بل جعلتهم فقط

أشدَّ خوفاً من القرد وأكثر إطاعةً له».

عندئذٍ قال تِريان: «يا لها من سياسة شيطانيّة! إذاً، بُنّيَ هذا وثيق الصلة بمشورات القرد وخِططه».

فأجاب القزم: «مولاي، السؤال الأبرز الآن هو عن كون القرد خاضعاً لمشوراته هو. فالقرد بات مُولَعاً بالشراب، كما تعرف. وأعتقد أن المؤامرة الآن ينفّذها بمعظمها بُنّيَ أو رِشدَة (أي الزعيم الكالورمنيّ). وفي ظنّي أنّ بعض الكلمات التي بثّها بُنّيَ بين الأقزام هي المسؤولة عن ردّة الفعل الحقيرة التي بادلوك بها. وسأُطلِعكَ على السبب.

«كان واحدٌ من تلك الاجتماعات الرهيبة التي تُعقد في نصف الليل قد انتهى توّاً ليلةَ ما قبلَ البارحة، وكنتُ قد قطعتُ مسافةً لا بأس بها نحو بيتي، إذ تبيّنَ لي أنّي نسيتُ غليوني هناك. ولأنّ ذلك الغليون كان جيّداً بالفعل، لكونه قطعةً قديمة مُفضّلة عندي، فقد رجعتُ كي أبحث عنه. ولكنْ قبل وصولي إلى المكان الذي كنت جالساً فيه (وكان الظلام حالكاً جداً هناك)، سمعتُ صوت هرٍّ يقول: 'مِياو!' وصوتاً كالورمنيّاً يقول: 'ها هنا... تكلّم على مهل!' فما كان منّي إلّا أن وقفتُ حيث كنتُ وكأنّي تجمّدت. وكان هذان الاثنان هما بُنّيَ ورشدَة الطَّرْقان، كما يدعونه.

«قال الهرُّ بصوته الناعم: 'أيّها الطَّرْقان الشريف، إنّما أردتُ أن أعرف تماماً ماذا كنّا نعني كِلانا بقولنا عن أصلان إنّه ليس أكبر من طاش في شيء.'

«فردَّ رشدة: 'لا شكَّ، يا أذكى القِطَط، أنك قد فهمت ما أعنيه.'

«وقال بُنّيّ: 'أتعني أنّه لا وجود لكِلا هذين الشخصين؟'

«فقال الطَّرقان: 'جميع المُتنوّرين يعرفون هذا.'

«وخرخر الهِرّ: 'إذاً، يمكننا أن نفهم بعضُنا بعضاً. هل سئمتَ مثلي ذلك القردَ نوعاً ما؟'

«فقال ذاك: 'إنّه حيوان جاهل جَشِع، ولكنْ يجب أن نستخدمه الآن. فعلينا، أنا وأنت، أن ندبّرَ كلَّ شيء سرّاً ونجعل القرد يعمل ما نريد.'

«قال الهرّ: 'وسيكون أفضل (أليس كذلك؟) أن نستميل بعض النارنيانيّين الأكثر تنوُّراً إلى مشورتنا: واحداً فواحداً بقدْر ما نجدهم قادرين. فإنَّ الحيوانات التي تؤمن بأصلان حقّاً قد تنقلب في أيّة لحظة، ولَسوف تنقلب إذا فضحت حماقةُ القرد جهله وكشفت سرَّه. أمّا أُولئك الذين لا يعنيهم طاش ولا أصلان بل عيونهم مركَّزة فقط على منفعتهم الخاصّة وعلى أيّة مكافأة قد يعطيهم السلطان إيّاها عندما تصير نارنيا ولاية كالورمِنيّة، فإنّهم سيظلّون ثابتين على موقفهم.'

«فقال الزعيم: 'عظيم، يا هِرّ! ولكنِ اخترْ أولئك بدقّة وحذر!'».

بينما كان القزم يتكلَّم، بدا أنَّ النهار قد تغيَّر. فقد كان مُشمِساً لمّا قعدوا. أمّا الآن، فقد أخذ لَغْزان يرتجف، وحرّك

جَوهَر رأسه بانزعاج، وتطلّعت جِلّ إلى فوق، ثمّ قالت: «الغيوم تتلبّد فوقنا».

وقال لَغْزان: «والبرد شديد».

ونفخ تِريان على كفَّيه قائلاً: «بردٌ قارس، وحقِّ الأسد! أُف، ما هذه الرائحة الكريهة؟»

وقال يُسطاس لاهثاً: «يَعق! كأنّها رائحة موت. هل من طائر ميْت في مكانٍ قريب؟ ولماذا لم نُلاحِظ هذا قبلاً؟»

وهبَّ جَوهَر واقفاً على قوائمه باضطرابٍ هائل، ثمّ صاح وهو يُشير بقرنه:

«انظروا! انظروا ذلك! انظروا! انظروا!»

عندئذٍ شاهد الستّةُ كلُّهم شيئاً؛ وارتسمت على وجوههم جميعاً أمارات الفَزَع الشديد.

الفصل الثامن

أيَّ خَبَرٍ حمل النَّسر؟

في ظِلال الأشجار عند الطرف الأقصى من الفسحة، بدا شيءٌ ما يتحرَّك. وكان ينساب ببطء شديد نحو الشمال. وربَّما أمكن أوَّلَ وهلة أن تحسبه دخاناً، إذ كان رمادياً وشفّافاً بحيث يمكنك أن ترى الأشياء من خلاله. غير أنَّ الرائحة المُقرِفة المُهلِكة لم تكن رائحة دخان. ثمَّ إنَّ ذلك الشيء حافظ على شكله بدل أن يتموَّج ويتمعَّج كما يفعل الدُّخان. وكان شكله يُشبه شكل إنسان تقريباً، إلَّا أنَّ رأسه كان رأسَ طائرٍ من الطيور الجارحة له منقارٌ معقوفٌ قاسٍ. وكان له أربعُ أذرعٍ يرفعها عالياً فوق رأسه، ويمدُّها نحو الشمال كما لو كانَ يريد أن يُطبِق بها على نارنيا كلِّها. أمّا أصابعه العشرون كلُّها فكانت معقوفةً مثل منقاره ولها مخالب طويلة مُسنَّنة كبراثن الطيور، عوضاً عن الأظفار. وقد كان ذلك المخلوق يطفو على العشب بدل أن يمشي، وبدا أنَّ العشب ييبس تحته.

وبعدما ألقى لَغْزان نظرة واحدة على ذلك الشيء، نهق نهيقَ زعيق واندفع كالسهم إلى داخل البرج. وأخفت جِلَّ



وجهها بيديها حتى لا ترى منظره (مع أنَّها لم تكن جبانة، كما تعرف). أمّا الآخرون فراقبوه نحو دقيقة، حتّى توارى في قلب الأشجار الأكثف أغصاناً إلى يمينهم وغاب عن الأنظار. ثمَّ طلعت الشمس من جديد، وعادت الطيور تُغرِّد.

واستأنف الجميع تنفُّسهم الطبيعيّ، ثمَّ تحرَّكوا، بعدما كانوا كلُّهم قد جمدوا كالتماثيل ما داموا يَرونه.

وسأل يُسطاس همساً: «ماذا كان ذلك؟»

فقال تِريان: «لقد رأيتُه مرَّةً واحدة من قبل. ولكنَّه تلك المرَّة كان منحوتاً من حَجَر ومُغشّىً بالذهب وله ماستان صُلبتان عوض العينين. وقد كان ذلك لمَّا لم أكن أكبر منك سنّاً ونزلتُ ضيفاً في بلاط السلطان بمدينة طَشبان. فإنَّه اصطحبني إلى الهيكل الكبير المخصَّص لعبادة طاش. وهناك رأيته منحوتاً فوق المذبح».

عندئذٍ قال يُسطاس: «إذاً كان ذلك... ذلك الشيء هو طاش؟»

ولكنَّ تِريان، بدل أن يُجاوبه، طوَّق كتفي جِلّ بذراعيه وقال: «كيف حالكِ أنتِ، سيِّدتي؟»

فأبعدت جِلّ يدَيها عن وجهها الشاحب وتكلَّفت الابتسام قائلةً: «بخير، أنا بخير. ولكنَّ هذا المنظر أمرضني قليلاً بعض الوقت».

وقال أحاديُّ القرن: «يبدو لي إذاً أنَّ هنالك طاشاً حقيقيّاً، رغم كلّ شيء!»

فقال القزم: «نعم! وهذا القرد الأبله الذي لم يكن يؤمن بِطاش سوف يحصل على أكثر ممّا راهن عليه: لقد استدعى طاش، وها هو طاش قد حضر».

وقالت جِلّ: «إلى أين مضى ذلك المخلوق... ذلك الشيء؟»

فأجاب تِريان: «شمالاً إلى قلب نارنيا. لقد جاء لكي يُقيم بيننا. فهُم استدعَوه، وهو جاء».

وضحك القزم ضحكةً خافتة وفرك يديه الشعراوين إحداهما بالأُخرى قائلاً: «هُوْ، هُوْ، هُوْ! ستكون مُفاجأة للقرد. على الناس ألّا يدْعوا الشياطين إلّا إذا كانوا يعنون حقّاً ما يقولونه».

وقال جَوهَر: «مَن يدري إذا كان طاش مَرئيّاً بالنسبة إلى القرد؟»

وقال يُسطاس: «إلى أين ذهب لَغْزان؟»

ثمَّ نادَوا كلُّهم لَغْزان باسمه، وذهبت جِلّ إلى الجهة الأُخرى من البُرج لترى هل ذهب إلى هناك.

ولمّا تعبوا من التفتيش عنه، أطلَّ أخيراً برأسه الرماديّ الطويل ونظر بحذر من مدخل الباب وقال: «هل ذهب بعيداً؟» ثمَّ حين تمكّنوا أخيراً من حمله على الخروج كان يرتجف مرتعشاً كارتجاف الكلب قبل حصول عاصفة رعديّة.

عندئذٍ قال لَغْزان: «لقد تبيَّن لي الآن أنّني طالما كنتُ بالفعل حماراً رديئاً جدّاً. لم يكن ينبغي لي قطُّ أن أُصغي إلى شِفطة. وما ظننتُ يوماً أنَّ مثل هذه الأُمور قد تبدأ بالحدوث».

فبدأ يُسطاس يقول (قبل أن تقاطعه جِلّ): «لو قضيتَ وقتاً أقلَّ وأنت تقول إنّك لست ذكيّاً، ووقتاً أكثر محاولاً أن تكون ذكيّاً بقدر المُستطاع...».

«أُوه! دع لَغْزان المُسِنَّ المسكين وشأنه. لقد كانت تلك غلطة؛ ألم تكن كذلك يا لَغْزان العزيز؟» ثمَّ قبّلته على أنفه.

ورغم كون الجماعة كلِّهم قد صُعِقوا حيال ما رأوا، فإنّهم عادوا فقعدوا واسترسلوا في حديثهم.

ولم يكن عند جَوهَر كثيرٌ ليخبرهم به. فبينما كان أسيراً، قضى معظم وقته مربوطاً وراء الإسطبل، ولم يسمع بالطبع شيئاً من مؤامرات الأعداء. وقد تعرَّض للرَّفس (وإن كان يردُّ الرفس أحياناً) وللضرب والتهديد بالموت إن لم يقُل إنّه قد صدَّق أنَّ أصلان هو الذي كان يُخرَج خارجاً حتّى يَرَوه في ضوء النار كلَّ ليلة. وبالحقيقة أنّه كان

سيُعدَم صباح ذلك النهار بالذات لو لم يتمّ إنقاذُه. ولم يعرف ماذا جرى للحَمَل.

أمّا المسألة التي كان عليهم أن يقرّروا موقفهم منها فكانت: أيذهبون إلى تلّة الإسطبل ثانيةً تلك الليلة ويعرضون لَغْزان على النارنيانيّين ويحاولون إقناعهم بأنّهم قد خُدِعوا خدعةً خبيثة، أم ينسلّون نحو الشرق ليُلاقوا النجدة التي كان القنطور نارذَكاء آتياً بها من كَيرپَراڤيل، ثم يرجعون ليواجهوا القرد والكالورمنِيّين الذين معه بقوّةٍ وافية؟

وكان تِريان يرغب رغبة شديدة في اعتماد الخيار الأوّل، إذ كره فكرة ترك القرد يتنمّر على شعبه لحظةً واحدة أطول من اللازم. لكنْ من ناحيةٍ أخرى، كانت طريقةُ تصرُّف الأقزام البارحة إنذاراً له. وبدا له أنه لا يستطيع أن يتأكّد كيف تكون ردّة فعل الشعب إذا أراهم لَغْزان. ثمّ كان ينبغي أن يُحسَب حساب العسكريّين الكالورمنيّين؛ وقد خمّن غَيمان أنّ عددهم يناهز الثلاثين. وتيقّن تِريان أنّه إذا اصطفّ النارنيانيّون كلّهم في صفّه، تكون له ولِجُوهَر والولدين وغَيمان فرصة كبيرة بالتغلّب عليهم (أمّا لَغزان فلم يُدخِله في الحسبان). ولكنْ ماذا يكون لو أنّ نصف النارنيانيّين — بمن فيهم الأقزام — قعدوا جانباً مكتوفي الأيدي؟ أو لو قاتلوه أيضاً؟ لقد كانت المخاطرة أكبر من المتوقّع. يُضاف إلى ذلك أيضاً شكل طاش الغامض: ماذا يمكن أن يفعل؟

ثُمّ إنه، كما أشار غيمان، لن يكون ضَرَرٌ في ترك القرد يواجه متاعبه الخاصّة يوماً أو يومين. فليس عنده لَغْزان حتّى يُخرِجه ويُظهِره الآن. ولم يكن من السهل تصوُّر القصّة التي قد يطلع بها هو، أو الهِرُّ بُنّيّ، لتفسير ذلك. فإذا طلبَت الحيوانات ليلةً بعد ليلة أن ترى أصلان، ولم يُخرَج إليها أيُّ أصلان، فمن المؤكّد أن الشكّ يُداخِل حتّى أبسطَها.

وفي الأخير اتّفقوا جميعاً على أنّ الخِيار الأفضل هو أن ينطلقوا في سبيلهم ويحاولوا ملاقاة نارذَكاء.

وما إن قرّروا ذلك، حتّى تضاعفت بهجة الجميع على نحوٍ عجيب. ولستُ أظنُّ، بالصدق، أنّ ذلك حصل لأنّ أيّاً منهم كان خائفاً من وقوع معركة (ما عدا جلّ ويُسطاس على وجه الاحتمال). إلّا أنّني أقول واثقاً إنّ كلّ واحد منهم، في قرارة نفسه، قد سُرَّ سروراً بعدم الاقتراب أكثر — أو حتّى ذلك الحين — من ذلك الشيء البغيض الذي له رأسُ طائر والذي يُحتمَل أنّه كان ينتابُ تلّة الأسطبل آنذاك، سواءٌ كان مَرئيّاً أو غير مرئيّ. وعلى كلّ حال، فإنّ المرء دائماً يشعر بأنّه أحسن حالاً عندما يُقرّر قراره.

وقال تِريان إنّه يُستحسَن أن ينزعوا زِيّهم التنكّريّ، إذ لم يريدوا أن يحُسَبوا خطأً أنّهم كالورمنيّون بحيث قد يُهاجِمهم أيّ نارنيانيّين أوفياء قد يُقابِلونهم. ثمّ أحضر القزم رماداً من الموقد وشحماً من جرّة الشحم المحفوظ

لدهن السيوف ورؤوس الرماح، وخلطهما معاً في كتلةٍ غريبة. ونزعوا عنهم الدروع الكالورمنيَّة، ثمَّ نزلوا إلى جدول الماء.

وقد أحدث الخليط العجيب رغوةً شبيهة برغوة الصابون السائل. وكان منظراً بهيجاً ومأنوساً أن يُرى تِريان والولَدان راكعين قرب الماء وهم يفركون أقفية رِقابهم أو ينفخون وينفثون فيما يشطفون الرغوة عن وجوههم. ثم رجعوا جميعاً إلى البرج ووجوهُهم حمراء لامعة، كأُناسٍ اغتسلوا غسلةً إضافيَّة خاصة قبل حضور حفلةٍ. وبعدئذٍ تسلَّحوا من جديد على الطريقة النارنيانيَّة الحقيقيَّة، بسيوفٍ مستقيمة وأتراس مثلَّثة الزوايا. إذ ذاك قال تِريان: «هذا هو جسمي الأصليّ! هكذا أفضل. أشعر بأنّني رجلٌ حقيقيٌّ مرَّة أخرى».

وتوسَّل إليهم لُغزان بإلحاح أن ينـزعوا عنه جلد الأسد، قائلاً إنَّ الحرارة لا تُطاق وإنَّ طريقة خياطة الجلد على ظهره مزعجة جدّاً، فضلاً عن كونه يُظهره بمظهر مُضحِكٍ تماماً. ولكنَّهم قالوا له إنَّ عليه أن يظلَّ لابساً إيّاه قليلاً بعد، إذ إنَّهم يريدون أن تراه الحيوانات بذلك الزيّ، مع أنَّ عليهم الآن أن يُلاقوا نارذكاء أوّلاً.

ولم يكن ما بقي من لحم الحمامتين ولحم الأرنب جديراً بأن يُحمَل، فأخذوا شيئاً من البسكويت. ثمَّ أقفل تِريان باب البرج، فانتهت بذلك إقامتُهم هناك.

كانت الساعة قد جاوزت قليلاً الثانية بعد الظهر حين

انطلقوا. وكان ذلك بالفعل أوَّل نهار دافئ من ذلك الربيع. وقد بدت أوراق الشجر الجديدة أكبر بكثير ممّا كانت يوم أمس، كما كانت أزهار الثلج اللبَنيَّة اللون قد زالت، غير أنَّهم رأوا قليلاً من زهر الربيع. وكان ضوء الشمس يترامى من خلال الأشجار، والطيور تغرِّد، وخرير الماء الجاري يُسمع دائماً (وإن كان الماء بعيداً عن النظر غالباً). وهكذا كان صعباً التفكير بأشياءَ مروِّعة مثل طاش. وكان شعور الولدين أن «هذه هي نارنيا أخيراً». حتّى إنَّ قلب تِريان طاب وهو يمشي قدّامهم، مُدندِناً نشيداً نارنيانياً حماسيّاً قديماً قرارُه:

هُوه، دَمدِم، دَمدِم، دَمدِم،
دَمدِم يا طبلاً مضروباً!

ووراء الملك سار يُسطاس وغيمان القزم. وقد أخذ غيمان يُعلِّم يُسطاس أسماءَ جميع أشجار نارنيا وطيورها ونباتاتها التي لم يكُن يعرفها بعد. وكان يُسطاس أحياناً يذكر له بعض الأسماء الإنكليزيَّة.

ووراءهما سار لُغزان، ووراءه جِلّ وجَوهَر يمشيان مُتقارِبَين كثيراً. وكانت جِلّ، كما يمكنك أن تقول، قد وقعت في حُبِّ أُحاديِّ القرن. فإنَّها حسبت — ولم تكن بعيدةً عن الصواب كثيراً — أنَّه الحيوان الأكثر إشراقاً ورقَّةً وجمالاً بين جميع الحيوانات التي قابلَتها قبلاً؛ وقد

كان بالغ اللطف وناعم الكلام للغاية، حتّى إنّك لو كنتَ لا تعرفه، لكانَتْ لديك صعوبة في تصديق كم يمكنه أن يكون قاسياً ومُروّعاً في المعارك.

وقد قالت جِلّ: «أوه، ما أجمل هذا! ما أروع مجرّد المشْي هكذا! حبّذا لو يكون لنا المزيد من هذا النوع من المغامرة. مؤسِفٌ أن تشغلنا الأحداث الكثيرة الجارية دائماً في نارنيا».

غير أنّ أُحاديّ القرن أوضح لها أنّها على خطإٍ في ذلك. فقد قال إنّ أبناء آدم وحوّاء وبناتهما لا يؤتى بهم من عالمهم الغريب إلى نارنيا إلّا في الأوقات التي فيها تكون نارنيا مضطربة ومتقلّبة، ولكنْ لا ينبغي لها أن تحسب الحال دائماً على ذلك المِنوال. فما بين زياراتهم تمرّ مئات وآلاف من السنين التي فيها يتعاقب ملوكٌ يحكمون في سلام واحداً بعد واحد حتّى يكاد يصعب أن تتذكّر أسماءهم أو تُحصي أعدادهم، ولا يكاد يحدث شيء يستحقّ أن يُذكَر في كتب التاريخ. ثم مضى جَوهَر يتحدّث عن ملكاتٍ وأبطال لم تكن جِلّ قد سمعت بهم قطّ. فتحدّث عن الملكة «بَياض الوزّ» التي عاشت قبل أيّام الساحرة البيضاء والشتاء الطويل، والتي كانت فائقة الجمال جداً حتّى إنّها إذا نظرت في أيّة بِركة في الغابة كان النورُ المنعكس من وجهها عن الماء يتألّق كنجمةٍ في الليل طوال سنةٍ ويوم بعد ذلك. وتحدّث عن الأرنب «قمر الغاب» الذي كانت

له أُذنان تمكّنانه وهو جالسٌ بقرب بِركة المِرجل تحت هدير الشلّال العظيم من سماع ما يقوله البشر همساً في كَيرپراڤيل. وروى لها كيف أنّ المَلك غايل، العاشر تحدُّراً من فرانك أوّل الملوك جميعاً، أبحر بعيداً إلى البحار الشرقيّة وأنقذ أهل الجزر المنفردة من تنّينٍ كان يتهدّدهم، وكيف أعطَوه بالمقابل الجزر المنفردة لتكون إلى الأبد جزءاً من أراضي نارنيا الملوكية. وتحدّث عن قرونٍ بكاملها كان النارنيائيّون فيها كلّهم سعداء بحيث باتت الأشياء الوحيدة التي يمكن تذكُّرها هي الرقص والأعياد البارزة، أو مُباريات المبارزة على الأكثر، فكان كلّ يوم وكلّ أسبوع أفضل من سابقَيهما. وإذ مضى جَوهَر في أحاديثه، احتشدت في ذهن جِلّ صورة تلك السنين السعيدة كلّها، بآلافها العديدة، حتّى بات ذلك أشبه بالإطلال من جبلٍ عالٍ على سهل خصيب جميل مليء بالغابات والمياه وحقول الحنطة، يمتدّ إلى البعيد البعيد حتّى يغدو شريطاً رفيعاً يُغطّيه الضباب في أقصاه. فإذا بها تقول:

«آه، كم أتمنّى أن تُنهيَ أمر القرد سريعاً فنرجع إلى تلك الأوقات الصالحة المعتادة! ثمّ إنّني أرجو أن تستمرّ تلك الأوقات إلى أبد الآبدين. فإنّ عالمنا سيبلغ نهايته ذات يوم. أمّا هذا فربّما لا ينتهي. أُوه، يا جَوهَر، ألا يكون رائعاً أن تستمرّ نارنيا دائماً على ما كانت عليه كما قُلت؟»

فأجاب جَوهَر: «كلاّ، يا أُختِ، فكلُّ العوالم تسير إلى نهايتها، ما عدا بلد أصلان وحده!»

وقالت جِلّ: «حسناً، أرجو على الأقلّ أن تكون نهاية هذا العالم بعيدة عنا بملايين كثيرة من السنين... عجباً! لماذا توقّفنا؟»

ذلك أنّ الملك ويُسطاس والقزم وقفوا جميعاً يُحدّقون إلى السماء. فارتعدت جِلّ إذ تذكّرت الأهوال التي شهدوها حتّى الآن. ولكنّ ما رأوه هذه المرّة لم يكن شيئاً من ذلك النوع. فقد كان شيئاً صغيراً، بدا أسود على صفحة السماء الزرقاء.

عندئذٍ قال أُحاديُّ القرن: «أقول واثقاً، بالاعتماد على طريقة طيران هذا الطائر، إنّه طيرٌ ناطق».

فقال الملك: «هكذا أظنُّ أنا أيضاً. ولكنْ أهو صديقٌ أو واحد من جواسيس القرد؟»

وقال القزم: «يبدو لي، يا مولاي، أنّه بصّارُ النّسر».

وسأل يُسطاس: «أينبغي لنا أن نختبئ تحت الأشجار؟»

فقال تِريان: «لا، بل أفضلُ أن نقف بلا حراك كالصخور. فإنّه يرانا حتماً إن تحرّكنا».

وقال جَوهَر: «انظروا، إنّه يُحوّم! لقد رآنا فعلاً. وها هو يهبط في دوراتٍ واسعة».

إذ ذاك قال تِريان لجِلّ: «سهماً على الوتر، يا سيّدتي! ولكنْ لا تُطلقي حتّى أطلب منكِ. فقد يكون صديقاً».

ولو عرف المرء ما سيحدث تالياً، لكان مشهداً رائعاً أن يراقب الجمال والليونة اللذين بهما هبط ذلك الطائر الضخم. وقد حطّ على منحدر صخريٍّ على بُعد أقدامٍ قليلة من تِريان، وحنى رأسه الذي يعلوه عُرْف، وقال بصوته النسريّ العجيب: «تحيّةً أيّها الملك!»

فقال تِريان: «تحيّةً يا بصّار! وبما أنّك دعوتَني ملكاً، يحسن بي أن أصدّق أنّك لست تابعاً للقرد وأصلانه



المزيّف. إنّني مسرورٌ حقّاً بمجيئك».

وقال النّسر: «مولاي، عندما تسمع الخبر الذي أحمله، فإنّ أسفك لمجيئي سيكون أشدّ منه لأعظم ويلٍ حلّ بك على الإطلاق!»

عندئذٍ بدا أنّ قلب الملك توقّف عن الخفقان لمّا سمع هذه الكلمات، ولكنّه أطبق فكّيه بإحكامٍ وقال: «هاتِ أخبِرني!»

فقال بصّار: «لقد رأيتُ مشهدين: أحدهما كان امتلاء كيرپراڤيل بالنارنيانيّين الأموات والكالورمنيّين الأحياء. وقد رُفع عَلَم السُّلطان على مُنفَرجات الرماية الملوكيّة لديك في كيرپراڤيل، وهرب رعاياك من المدينة نحو الغابات في كل اتّجاه. وسقط قصر كيرپراڤيل من جهة البحر، إذ رست في مينائه عشرون سفينة كالورمنيّة كبيرة تحت جُنح الظلام في الليلة السابقة للبارحة».

عندئذٍ لم يقدر أيُّ واحد أن يقول كلمةً واحدة، فيما مضى النسر يقول: «أمّا المشهد الآخر، على مسافةٍ أقرب من كيرپراڤيل بنحو كيلومترين، فكان نارذكاء القنطور جثّةً هامدة وفي جنبه سهمٌ كالورمنيّ. وقد مكثتُ معه في ساعته الأخيرة وحمّلني هذه الرسالة إلى جلالتك: أن تتذكّر أنّ جميع العوالم تبلغ نهايتها وأنّ الموت الشريف كنزٌ ليس أحدٌ أفقرَ منَ أن يشتريَه!»

وبعد صمتٍ طويل، قال الملك: «إذاً، لم تعُد نارْنيا قائمة».



الفصل التاسع

الاجتماع الكبير على تلّة الإسطبل

مرَّ وقتٌ طويل وهم لا يقدرون أن يتكلّموا، ولا حتّى أن يذرفوا دمعة. ثمّ ضرب أُحاديُّ القرن الأرض بحافره، وهزّ عُرفَه، وتكلّم قائلاً:

«مولاي، لا داعيَ الآن للمشاورة. فنحن نرى أنّ خُطَط القرد قد رُسمت بإحكام يفوق ما تصوّرناه. ولا شكّ أنّه كان على تواصُل سرّيّ مع السلطان، وأنّه حالما عثر على جلد الأسد أرسل إليه طالباً منه أن يجهّز أُسطوله البحريّ للاستيلاء على كيرپراڤيل ونارنيا كلّها. فلا يبقى لدينا الآن نحن السبعة إلّا أن نرجع إلى تلّة الاسطبل ونكشف الحقيقة ونخوض المغامرة التي يرسلها إلينا أصلان. وإذا توفّقنا، بأعجوبةٍ عظيمة، في التغلُّب على أولئك الكالورمنيّين الثلاثين الذين مع القرد، فعندئذٍ نعود كي نموت في المعركة مع جيشهم الأكبر عدداً بكثير والذي سيزحف سريعاً من كيرپراڤيل».

فأوما تِريان برأسه موافقاً. إلّا أنّه التفت إلى الولدين وقال: «والآن، يا صديقان، حان الوقت كي ترجعا من هنا إلى عالمكما. لا شكّ أنكما فعلتما كلّ ما أُرسِلتما كي تفعلاه».

فقالت جِلّ: «و... ولكنّنا لم نفعل شيئاً»، وهي ما تزال ترتجف، لا من الخوف، بل لأنّ كلّ شيء كان مروّعاً للغاية.

وأجابَ الملك: «كلاّ! فقد فكَكتُماني عن الشجرة، وقد تسلّلتِ أمامي كالحيّة في الغابةِ البارحةَ وأحضرتِ لَغْزان؛ وأنت يا يُسطاس قتلتَ خصمك. ولكنّكما أصغر سنّاً من أن تشتركا في الخاتمة الدامية التي قد نواجهها نحن الآخرين الليلة، أو ربّما بعد ثلاثة أيّام من الآن. فأنا أرجو منكما — لا بل آمُركما — أن ترجعا إلى بلدكما. إذ إنّ العار سيحلّ بي إذا سمحتُ بأن يُصرَع مقاتلان شابّان مثلكما وهما يخوضان المعركة في صفّي».

فتكلّمت جِلّ (وقد بدت شاحبةً جدّاً عندما بدأتِ الكلام ثمّ احمرّ خدّاها كثيراً، ثمّ شحب وجهها من جديد) قائلةً: «لا، لا، لا! لَن نرجع الآن، ولا يعنيني ما تقوله. سنبقى معك مهما حدث، أليس كذلك يا يُسطاس؟»

وكان يُسطاس قد دسّ يديه في جيبيه (ناسياً كم يبدو ذلك غريباً حين يكون المرء لابساً قميصَ زَرَد). فقال: «نعم، ولكن لا داعي للتأثّر والانفعال بشأن ذلك، لأنّنا،

كما تعلمين، لا نملك أيّ خِيارٍ آخر. وما نفع التحدُّث عن رجوعنا إلى ديارنا؟ فكيف نرجع، وليس بيدنا أيّة طريقة سحريّة للرجوع؟»

كان ذلك كلاماً منطقيّاً جدّاً، ولكنّ جِلّ — في تلك اللحظة — كرهت أن يقوله يُسطاس. فإنّه كان مولعاً بأن يكون عمليّاً على نحوٍ بغيض حين يكون الآخرون متأثّرين أو متحمّسين.

ولمّا أدرك تِريان تعذُّر رجوع الغريبَين إلى بلدهما (إلّا إذا اختطفهما أصلان فجأةً)، أراد لهما تالياً أن يعبرا الجبال الجنوبيّة إلى داخل بلاد آرخيا، حيث قد يكونان في أمانٍ. غير أنّهما لم يعرفا الطريق إلى هناك، ولم يتوافر أحدٌ لإرساله معهما. ثمّ إنّ الكالورمنيّين، كما قال غيمان، حالما يستولون على نارنيا يتمكّنون حتماً من الاستيلاء على بلاد آرخيا في غضون الأُسبوع التالي أو بعده بقليل: فلطالما رغب السلطان في ضمّ ذينك البلدين الشماليّين إلى أراضيه. وفي الأخير توسّل يُسطاس وجِلّ توسُّلاً حارّاً، حتّى قال تِريان إنّهما يستطيعان أن يرافقاه ويجرّبا حظّهما، أو كما عبّر بطريقة بالغة الدقّة: «أن يخوضا المغامرة التي قد يرسلها أصلان إليهما».

وكانت فكرة الملك الأولى ألّا يرجعوا إلى تلّة الإسطبل قبل حلول الظلام، وقد باتوا منزعجين من مجرّد ذكر اسمها. إلّا أنّ القزم قال لهم إنّهم إذا وصلوا إلى هناك في ضوء النهار فقد يجدون المكان مهجوراً وليس فيها سوى

حارسٍ كالورمنيّ على وجه الاحتمال. ذلك أنَّ الحيوانات كانوا قد خافوا كثيراً ممّا قاله لهم القرد (والقط بُنّي) عن أصلانِ الجديد الغضبان — أو طَشْلان — حتّى إنّهم لم يجرؤوا على الاقتراب منه إلّا حينما يُدعَون جميعاً إلى تلك الاجتماعات الرهيبة في نصف الليل. وليس الكالورمنيّون أبداً من الخبراء بالعيشة في الغابات. لذلك اعتقد غيمان أنّهم حتّى في وضح النهار يمكنهم بسهولة الابتعاد إلى ما وراء الإسطبل بغير أن يراهم أحد. وهكذا فإنَّ التوجُّه إلى التلّة سيكون أصعب بكثير بعد هبوط الليل، إذ ربّما يكون القرد قد دعا الحيوانات إلى الاجتماع وجميعُ الكالورمنيّين في الخدمة والحراسة. ثمّ إذا ابتدأ الاجتماع فعلاً، يبقى لَغزان خلف الأسطبل، بعيداً عن الأنظار تماماً، حتّى اللحظة التي يريدون فيها أن يُبرِزوه. وكان من الواضح أنَّ تلك الفكرة جيّدة، لأنَّ فرصتهم الوحيدة كانت في إعطاء النارنيانيين مُفاجأة مُفاجئة.

فاتّفق الجميع على ذلك، وانطلقت الجماعة كلُّها في خطِّ سير جديد، نحو الشمال الغربي، باتّجاه التلّة البغيضة. وكان النسر أحياناً يطير ذهاباً وإياباً فوقهم، وأحياناً يجثم على ظهر لَغْزان. إنّما لم يكن أحد — حتّى الملك نفسه إلّا عند الضرورة القصوى — يحلم بالركوب على ظهر أُحاديِّ القرن.

وقال يُسطاس همساً: «بول، يمكنني أن أقول لك إنّني مُرتاع!»

فقالت جِلّ: «أُوه، أنت بخير يا صغرون. فأنت تقدر أن تقاتِل. أمّا أنا... فإنّني مرتعدة فعلاً، وها أنا أرتجف، إذا أردتَ الحقيقة!»

أجاب يُسطاس: «آه، إنَّ الارتجاف ليس بشيء. فأنا أشعر بأنّني أكاد أمرض».

وقالت جِلّ: «بحقّ السماء، لا تتكلَّم عن ذلك!»

ثمَّ سارا صامتين دقيقةً أو دقيقتين. وفجأةً قال يُسطاس: «جِلّ!»

فقالت جِلّ: «ماذا؟»

«ماذا يحدث إذا قُتِلنا هنا؟»

«حسناً، أظنُّ أنّنا نكون قد متنا».

«ولكنّني أقصد، ماذا يحدث في عالمنا الخاصّ؟ أنستيقظ لنجد أنفسنا في ذلك القطار من جديد؟ أم نتلاشى فحسب ولا يسمع أحدٌ بنا بعد؟ أم نموت أيضاً في إنكلترة؟»

«ويلاه! لم أفكّر في هذا قطّ».

«سيكون غريباً على بطرس والآخرين إذا رأوني ملوّحاً بيدي من نافذة القطار، ثمّ حين يدخل القطار إلى المحطّة لا يجدون لنا أثراً! أو إذا وجدوا اثنين... أعني، إذا كُنّا ميتين هناك في إنكلترة وأيضاً».

عندئذٍ قالت جِلّ: «يا للهول! يا لها من فكرة مروِّعة!»

فقال يُسطاس: «لن يكون ذلك مروِّعاً لنا نحن، فلَنْ نكون هناك».

وقالت جِلّ: «أكاد أتمنّى... إلّا أنّني لا أتمنّى».

«ماذا أردتِ أن تقولي؟»

«كنتُ أُريد أن أقول إنّني أتمنّى لو لم نأتِ. ولكنْ لا، لا، لن أقول ذلك. حتّى لو قُتلنا فعلاً. أُفضّل أن أموت وأنا أُقاتِل في سبيل نارنيا على أن أكبر في السنّ ويضعف عقلي في بلَدي وربّما أتنقّل في كرسيّ مُدولب متحرّك ثمّ أموت أخيراً كسائر الناس».

«أو يهرسكِ قطارٌ بريطانيّ!»

«لماذا تقول هذا؟»

«حسناً، عندما حصلت تلك الرجّة الرهيبة — تلك التي بدا أنّها نقلتنا حالاً إلى داخل نارنيا — تصوّرتُ أنّها كانت بداية حادث سير على سكّة الحديد. وهكذا سُررت سروراً عظيماً بأن نجد أنفسنا هنا بدلاً من ذلك».

وبينما جِلّ ويُسطاس يتحدّثان عن ذلك، كان الباقون يتباحثون في خُططهم ويصيرون أقلّ شقاءً وبؤساً. وذلك لأنّهم حاليّاً كانوا يفكّرون في ما ينبغي أن يفعلوه تلك الليلة بعينها، حتّى تراجعت إلى قعر أذهانهم فكرةُ ما حلّ بنارنيا، أي فكرةُ زوال جميع أمجادها وأفراحها. وكلّما توقّفوا عن الحديث تنتصب تلك الفكرة فيشعرون بالتعاسة من جديد. غير أنّهم ظلّوا يتحدّثون. وقد كان غيمان متحمّساً تماماً للعمل الخطير الذي كانوا ينوون القيام به تلك الليلة. إذ كان

على يقين بأنّ الخنزير البرّيّ والدبّ، وجميع الكلاب على الأرجح، سينتقلون إلى صفّهم في الحال. وما كان ليَصدّق أنّ جميع الأقزام الآخرين سيبقَون في صفّ فَحمان. ثمّ إنّ القتال في ضوء النار، وبين الأشجار دخولاً وخروجاً، سيكون في مصلحة الجانب الأضعف. وبعدُ فإذا تيسّر لهم أن يفوزوا الليلة، فهل يُضطرّون إلى المخاطرة بحياتهم في مواجهة الجيش الكالورمنيّ الرئيسيّ بعد بضعة أيّام؟

ولماذا لا يختبئون في الغابة، بل أيضاً في أعالي القفر الغربيّ ما وراء الشلاّل العظيم، ويعيشون عيشة الخارجين على القانون؟ وعندئذٍ قد يتقوّون تدريجيّاً من يوم إلى آخر، فيما ينضمّ إليهم حيوانات ناطقة وقومٌ من أهل بلاد آرخيا. وفي الأخير يبرزون من مخابئهم ويطردون الكالورمنيّين كلّهم من البلد (إذ يكونون قد صاروا لامبالاين آنذاك) فتنهض نارنيا من جديد. وبعد، أما حدث شيءٌ مثل ذلك في أيّام الملك ميراز؟

وقد سمع تِريان ذلك كلّه، وفكّر: «ولكنْ ماذا يكون من أمرِ طاش؟» وشعر في قرارة نفسه بأنّ أيّ شيءٍ من ذلك لن يحدث. غير أنّه لم يُفصِح عن ذلك.

ولمّا اقتربوا من تلّة الإسطبل، لزموا الصمت والهدوءَ طبعاً. ثمّ بدأ السير الحَذِر في الغابة. وقد مضى أكثر من ساعتين منذ رأوا التلّة أوّل مرّة حتّى وصلوا كلّهم إلى ما وراء الإسطبل. وكان ذلك عملاً لا يُحسِن المرء

وصفه تماماً إلّا إذا كتب صفحاتٍ كثيرة عنه. فالارتحال من نقطةِ اختباء إلى نقطة أُخرى كان مغامرة مستقلّةً، وقد مضت فترات انتظار طويلة في أثناء ذلك، وحصلت بضعة إنذارات زائفة. وإذا كنتَ كشّافاً جيّداً أو دليلاً خبيراً، فلا بدَّ أن تُدرِكَ كيف جرى ذلك فعلاً. وقُبيل الغروب تقريباً، وصلوا جميعهم سالمين إلى أجمة من شجر البهشيّة* تبعد خمسة أمتار تقريباً عن الإسطبل من الخلف. فقرقشوا كلُّهم شيئاً من البسكويت ثمَّ استلقَوا.

بعدئذٍ جاء الجزءُ الأصعب، ألا وهو الانتظار. ومن سَعد الوَلَدين أنّهما ناما نحو ساعتين، لكنّهما طبعاً استيقظا لمّا برد الليل، والأسوأ أنّهما استيقظا عطشانَين

*شجر البهشية: أشجار ورقها شائك، كثيراً ما تُستخدم في الزينة، بعضها يحمل ثمراً شبيهاً بالكرز.

جدّاً ولا سبيلَ إلى شربة ماء. أمّا لَغْزان، فاكتفى بالوقوف وهو يرتجف قليلاً من توتُّره، ولم يقُل كلمةً واحدة. غير أنَّ تِريان، ورأسُه مُسنَد إلى جنب جَوهَر، نام نوماً عميقاً كما لو كان في سريره الملوكيّ بقصر كَيرپرافيل، إلى أن أيقظه قرْع جَرس، فجلس وشاهد ضوءَ نار عند الجانب البعيد من الإسطبل، فعرف أنَّ الساعة قد حانت، وقال:

«قبِّلْني، يا جَوهَر، لأنَّ هذه حتماً آخِر ليلةٍ لنا على الأرض. وإن كنتُ قد أسأتُ إليك في أيِّ أمر، كبيرٍ أو صغير، فسامحني الآن».

فردَّ أُحاديُّ القرن: «عزيزي الملك، كدتُ أتمنّى لو أنّك أسأتَ إليَّ فعلاً حتّى أُسامحك بالإساءة. وداعاً! لقدِ اختبرنا أفراحاً عظيمة معاً. ولو أعطاني أصلان الخيار، ما كنتُ لأختار أيّة حياة أُخرى غير التي كانت لي ولا أيّة مِيتة أُخرى غير التي نحن ذاهبون إليها».

ثمَّ أيقظوا بصّاراً، وقد كان نائماً ورأسُه تحت جناحه (مّما جعله يبدو كأنْ لا رأس له أبداً)، وزحفوا نحو الإسطبل. وتركوا لَغْزان خلف الإسطبل تماماً (دون أن يبخلوا عليه بالكلمات اللطيفة، إذ لم يعد أيٌّ منهم غاضباً عليه الآن)، طالبين منه ألّا يتحرّكَ قبل أن يأتيَ أحدهم لاصطحابه، ثمّ تمركزوا عند أحد جوانب الإسطبل.

لم تكُن المَشعَلة قد أُوقِدت منذ وقتٍ طويل، وكانت قد بدأت تتأجّج. ولم تكُن تبعد عنهم سوى أمتار قليلة، وقد احتشد الجمهور الكبير من مخلوقات نارنيا عند

الجهة الأخرى منها، بحيث لم يتمكّن تِريان في البداية من رؤيتهم جيّداً، مع أنّه شاهد بالطبع عشراتٍ من العيون المتألّقة بسبب انعكاس النار، مثلما شاهدتَ عينَي أرنب أو هرّ في مرمى ضَوأي السيّارة الأماميَّين. وما إنِ استقرّ تِريان في مكانه، حتّى توقّف قرْع الجرس، وظهر من مكانٍ ما عن يساره هيئات ثلاثة أشخاص. كان أحد أولئك هو رِشدَة الطَّرْقان، الزعيم الكالورمنيّ. وكان ثانيهم هو القرد، وقد كان ممسكاً يد الطّرقان بكفّ إحدى قوائمه وهو يتذمّر ويُدمدم قائلاً: «ليس بهذه السرعة، لا تسر سريعاً هكذا، لستُ بصحة جيّدة أبداً. آه، يا لرأسي المسكين! إنّ هذه الاجتماعات في نصف الليل قد صارت أصعب من أن أحتملها. فالقرود لم يُخلَقوا للسهر طويلاً في الليل. وأنا لستُ فأراً أو خفّاشاً... آه، يا لرأسي المسكين!»

وإلى الجانب الآخر من القرد، في مشيةٍ وئيدة ومهيبة جدّاً، سار الهرُّ بُنّيَ وذيلُه مرفوعٌ إلى أعلى رأسيّاً. وكان الجميع مُتّجهين صوب المَشعَلة على مسافةٍ قريبة من تِريان بحيثُ كان ممكناً أن يروه حالاً لو نظروا إلى تلك الناحية. ومن السَّعد أنّهم لم ينظروا. لكنّ تِريان سمع رِشدَة يقول لِبُنّيَ بصوتٍ خفيض:

«والآن، يا هرّ، قُم بواجبك، وأحسِن تأدية دورك!»

فردّ بُنّيَ: «مِياو، مِياو، اتّكلْ عليّ!» ثمّ تقدّم مُجاوزا النار وقعد في الصفّ الأماميّ من الحيوانات المحتشدة: بين الجمهوَر، كما يمكنك أن تقول.



ففي الواقع أنَّ المشهد كلَّه، كما كان يجري، كان أشبه بمسرح. إذ كان أهل نارنيا مثل شاغلي المقاعد. أمّا خشبة المسرح فكانت البقعة الصغيرة ذات العشب قدّام الإسطبل تماماً، حيث تأجّجت المَشعَلة ووقف القرد والزعيم الكالورمني ليُخاطِبا الجمهور؛ في حين أنّ الإسطبل ذاته كان مثل الغرفة الخلفيّة وراء المسرح؛ كما كان تِريان وأصدقاؤه كأشخاصٍ يُجيلون نظرهم من وراء الكواليس. وقد كان مركزهم ممتازاً. فإذا تقدّم أيُّ واحدٍ منهم إلى الأمام ووقف في ضوء النار الساطع، تشخص إليه الأنظار كلُّها حالاً. وفي مقابل ذلك، ما داموا واقفين بلا حراك في ظلّ حائط الإسطبل الجانبيّ، يظلّ احتمال انكشافهم للعيان ضئيلاً.

وما لبث رِشدَة الطَرْقان أن جرّ القرد إلى مقربة من النار. ودار كلاهما ليواجها الجمهور، ممّا جعل ظهرَيهما بالطبع نحو تِريان ورفقائه. ثمّ قال رِشدة الطرقان بصوتٍ خفيض: «والآن، يا قرد، قُلِ الكلماتِ التي وضعَتْها على لسانك رؤوسٌ أحكم من رأسك. وارفع رأسك عالياً». وبينما هو يتكلّم دفع ظهر القرد بوخزةٍ أو نخسةٍ من رأس إبهامه.

وتمتم شِفطة: «دعْني وشأني!» إلّا أنّه عدّل جلسته وبدأ يقول، بصوتٍ أعلى: «والآن، اسمعوني كلُّكم جيّداً. لقد حدث أمرٌ رهيب. أمرٌ رديء شرّير. بل هو أشرُّ أمرٍ عُمِل في نارنيا على الإطلاق. وأصلان..».

عندئذٍ همس رِشدَة الطرْقان: «طَشلان، يا غبيّ!»

فقال القرد: «وطشلان، هذا ما أعنيه طبعاً، غاضبٌ جدّاً من جرّائه».

إذذاك ساد صمتٌ هائل فيما الحيوانات ينتظرون ليسمعوا أيّةَ ورطة جديدة ادُّخِرت لهم. وكذلك أيضاً حبست الجماعة الصغيرة عند آخِر الحائط الجانبيّ من الإسطبل أنفاسها، فيما مضى القرد يقول: «نعم، في هذه اللحظة عينها، والهائلُ المهولُ نفسُه بينَنا — هناك في الأسطبل ورائي تماماً — اختار حيوانٌ شرّير أن يفعل ما لا بدّ أن تعتقدوا أنّ أحداً لا يجرؤ على فعله، حتى لو كان ذلك بعيداً عنّا مسافة ألف ميل. فإنّ الحيوان المذكور لبس جلد أسد، وها هو يجول في هذه الغابات بالذات متظاهراً بأنّه أصلان».

وساءلت جِلّ نفسَها حيناً هل جُنّ القرد. وهل ينوي أن يُخبرِهم بالحقيقة كاملةً؟ ثمّ ارتفع هديرُ رعب وسخط من بين الحيوانات: «غُرْزُر! مَن هو؟ أين هو؟ دعْني أُغرِز أنيابي فيه!»

فزعق القرد: «لقد شُوهِد ليلة البارحة، إلّا أنّه مضى بعيداً. إنّه حمار! حمارٌ حقير من العامّة! فإذا شاهد أحدكم ذلك الحمار..».

عندئذٍ همرَت الحيوانات وهدرَت: «غُرْزُر! سنُمزّقه ونقضي عليه حتماً! خيرٌ له أن يزيح من طريقنا».

ونظرت جِلّ إلى الملك، فإذا فمه مفتوح وأمارات الرعب ترتسم على ملامح وجهه كلّها. وعندئذٍ أدركت

الخبث الشيطانيّ في خُطّة الأعداء. فإذ مزجوا أكذوبتهم بشيء من الحقّ جعلوها أقوى بكثير. إذاً، أيّ نفع الآن في إطلاع الحيوانات على أنّ حماراً أُلبِسَ جلدَ أسد حتّى يخدعهم؟ لن يقول القردُ سوى: «ذلك هو ما قلتُه توّاً!» فما نفْع إظهار لَغْزان لهم وعليه جلد الأسد؟ إنّهم سيمزّقونه إرْباً إرْباً فحسْب.

إذ ذاك همس يُسطاس: «لقد نزع ذلك الحجّة من أيدينا».

وقال تِريان: «إنّ البساط سُحب من تحت أقدامنا».

وقال غيمان: «يا له من دهاءٍ لعين! أُقسِم على أنّ هذه الكذبة الجديدة هي من اختلاق بُنَيّ».

الفصل العاشر

مَن سيدخل الإسطبلَ؟

أحسّت جِلّ شيئاً يُدغدِغ أُذنها. وكان ذلك جَوهَر أُحاديّ القرن هامساً لها همسةً عريضة كأنّها من فم حصان. وما إن سمعَت ما قاله، حتّى أومأت برأسهاَ ورجعت على رؤوس أصابع قدمَيها إلى حيث كان لَغْزان واقفاً. ثمّ قطعت بسرعةٍ وهدوء آخِر الخيوط التي ربطت جلد الأسد به. فلن ينفعه شيئاً أن يُقبَض عليه وهو مُرتَدٍ ذلك الجِلد، بعد قول القرد ما قاله! وودّت لو تُخبّئ الجلد في مكانٍ ما، بعيداً جدّاً من هناك، إلّا أنّه كان أثقل من أن يُحمَل. فكان أفضل شيءٍ تستطيعه هو أن تركله بقدمها ليختفي بين الشجيرات الكثيفة جدّاً. ثمّ أومأت لِلَغْزان كي يتبعها، وانضمّا كلاهما إلى الآخرين.

وكان القرد قد عاد يتكلّم، قائلاً: «وبعد ذلك الأمر الرهيب، صار أصلان — طَشلان — أشدَّ غضباً من ذي قبل. فهو يقول إنّه كان لطيفاً معكم إلى حدٍّ بعيد، إذ كان يخرج كلَّ ليلة حتّى تُشاهِدوه. أفهمتم؟ حسناً، إنّه لن يخرج بعد!»

فردَّ الحيوانات على ذلك بالعواء والمواء والصراخ والخوار، ولكن فجأةً ارتفع صوتٌ مختلفٌ تماماً تصحبه ضحكةٌ عالية، وسُمع يقول:

«اسمعوا ما يقوله القرد! إنَّنا نعرف لماذا لن يُخرِج إلينا أصلانه الغالي. وأنا أقول لكم لماذا: ذلك لأنَّ أصلان ليس عنده. ولم يكن عنده قطُّ أيُّ شيء سوى حمارٍ مُسِنّ على ظهره جِلدُ أسد. وها هو الآن قد فقد ذلك، ولا يدري ما يفعل!»

لم يستطع تِريان أن يرى جيِّداً الوجوه في الناحية الأخرى من النار، ولكنَّه حزر أنَّ ذلك كان فحمان، القزم الرئيس. ثمَّ تأكَّد من ذلك تماماً لمَّا تعالت، بعد ثانيةٍ واحدة، أصوات جميع الأقزام مُغنِّيةً معاً: «لا يدري ما يفعل! لا يدري ما يفعل! لا يدري ما يفعل!»

فجأر رِشدَة الطَّرْقان قائلاً: «سكوتاً! سكوتاً يا أبناء الطين! وأصغوا إليَّ، أنتمُ النارنيانيِّين الآخرين جميعاً، لئلا أُصدِر إلى مُقاتِليَّ جميعاً الأمرَ بأن يضربوكم بحدِّ السيف. لقد سبق اللورد شِفطة فأخبركم بأمر ذلك الحمار الشرِّير. فهل تظنُّون بسببه أنَّه ليس في الإسطبل طَشلانٌ حقيقيّ؟ هل تظنُّون؟ حذارِ، حذارِ!»

فصاح معظم الجمهور: «لا، لا!» ولكنَّ الأقزام قالوا: «صحيحٌ، يا أسودُ، أنَّه عندك. فهيّا، يا قرد، أرِنا ما في الإسطبل. الرؤية هي السبيل إلى التصديق!»

وبعد لحظةٍ من الصمت، قال القرد: «أنتمُ الأقزام تحسبون أنَّكم أذكياء جداً، أليس كذلك؟ ولكنْ ليس بهذه السرعة! فأنا لم أقُل قطُّ إنَّه لا يمكنكم أن تروا



طشلان. فمن أحبَّ، يمكنه أن يراه».

عندئذٍ لزم الجمهور كلُّه الصمت. ثمَّ بعد نحو دقيقة، بدأ الدبُّ يتكلَّم بصوتٍ بطيءٍ مُتحيِّر، فدمدم قائلاً: «لستُ أفهم هذا كلَّه تماماً. لقد فكَّرتُ أنك قُلت..».

فردَّ القرد: «أنتَ فكَّرت! وكأنَّما يمكن أن يدعو أحدٌ ما يجري داخل رأسك تفكيراً! فاسمعوا، أنتمُ الباقين. أيُّ واحد منكم يُمكن أن يرى طَشلان. إلّا أنَّه هو لَن يخرج، بل عليكم أنتم أن تدخلوا وترَوه».

إذ ذاك قالت عشرات الأصوات: «أوه! شكراً لك، شكراً لك، شكراً لك! ذلك هو ما أردناه! يمكننا أن ندخل ونراه وجهاً لوجه. وسيكون الآن لطيفاً، وتعود الأمور إلى مجراها المألوف!» ثمَّ غرَّدت الطيور، ونبحت الكلاب بتأثُّرٍ شديد. وبعدئذٍ حصل فجأةً نشاطٌ كبير وضجيجُ مخلوقاتٍ تهبُّ واقفةً. وفي لحظة واحدة كاد الجميع يتقدَّمون بسرعة ويحاولون أن يحتشدوا كلُّهم بباب الإسطبل.

غير أنَّ القرد صاح بهم: «إلى الوراء! بهدوء! ليس بهذه السرعة».

فتوقَّفت الحيوانات، وقد رفع كثير منها قائمةً في الهواء، وأخذت أذنابُ كثيرٍ منها ترتعش، فيما رؤوس الجميع مائلةٌ إلى ناحيةٍ واحدة.



وبدأ الدبُّ يقول: «لقد فكَّرتُ أنَّك قلت..». غير أنَّ شِفطة قاطعه قائلاً: «أيُّ واحد يمكنه أن يدخل، ولكنْ واحداً فواحداً. فمَن سيدخل أوّلاً؟ إنَّ طشلان لم يقُل إنَّه يشعر بأنَّه لطيفٌ جداً. فهو ما برح يلحس شفتيه كثيراً منذ ابتلع الملك الشرّير قبل ليلتَين. وما أكثر ما جار وهمر هذا الصباح! حتّى إنَّني أنا نفسي لا أُحبُّ كثيراً أن أدخل ذلك الإسطبل الليلة. ولكنْ كما تشاؤون. مَن يحبُّ أن يدخل أوّلاً؟ لا تلوموني إذا ابتلعكم بكاملكم أو أضرمكم كالجمر بمجرَّد رُعب عينيه. فهذا شأنكم. والآن! مَن يدخل أوّلاً؟ ماذا لو دخل واحدٌ منكم أيُّها الأقزام؟»

فردَّ فحمان ناخراً ساخراً: «رائع، رائع: ادخُلْ تُقتَل! كيف نعرف ماذا عندك هناك في الداخل؟»

وصاح القرد: «هُوْ هُوْ! إذاً قد بدأتَ تظنُّ أنَّ في الداخل شيئاً ما، إه؟ حسناً، قبلَ دقيقة كنتُم أنتم الحيوانات جميعاً تضجُّون وتعجُّون؟ فما الذي أخرسكم كلَّكم؟ مَن سيدخُل أوَّلاً؟»

غير أنَّ الحيوانات جميعاً وقفت تُحدِّق بعضُها إلى بعض، وبدأت تتراجع مبتعدةً عن الإسطبل. وباتت أذنابُ قليلة جداً ترتعش الآن، فيما أخذ القرد يتهادى ذهاباً وإياباً ويُقهقِه ساخراً من الجميع، قائلاً: «هُوْ هُوْ هُو! كنتُ أحسبُ أنَّكم كنتم كلُّكم متشوِّقين لرؤية أصلان وجهاً لوجه! لقد غيَّرتم رأيكم، إيه!»

عندئذٍ أمال تِريان رأسه ليسمع شيئاً كانت جِلَّ تحاول أن تهمس به في أذُنه.

سألَته: «ماذا تعتقده موجوداً داخل الإسطبل حقّاً؟»

فقال: «من يدري؟ ربّما كان في الداخل كالورمنيّان بيد كلٍّ منهما سيفٌ مجرَّد، إلى كِلا جانبَي الباب».

وسألَته: «ألا تعتقد أنّه ربّما كان في الداخل... كما تعلم... ذلك الشيءُ الرهيب الذي شاهدناه؟»

فهمس تِريان: «طاش بنفسه؟ لا عِلمَ عندي. ولكنْ تشجَّعي يا بُنيَّتي: فنحن كلّنا بين كفَّي أصلان الحقيقيّ».

بعدئذٍ حدث أمر مفاجئ جدّاً. إذ قال بُنَيّ الهرُّ بصوتٍ واضح بارد، وكأنّه غير متأثّر أبداً: «أنا أدخل، إذا شئتَ!»

فالتفت كلُّ مخلوق وركَّز عينيه على الهرّ. وقال غيمان للملك: «أرأيتَ دهاءَهم يا مولاي؟ هذا الهرُّ اللعين مشترك في المؤامرة، بل هو في قلبها تماماً. وأنا على يقين بأنْ مهما كان داخل الإسطبل فلن يؤذيه. وبعدئذٍ سيخرج بُنَيّ ويقول إنّه قد رأى أمراً عجيباً».

ولكنَّ الوقت لم يتّسع لتِريان حتّى يُجيب، إذ عمد القرد إلى دعوة الهرّ كي يتقدَّم، وقال: «هُوْ هُو! إذاً أنت، أيّها الهرُّ الجسور، تودُّ أن تراه وجهاً لوجه. فهيّا إذاً! سأفتح لك الباب. لا تلُمني إذا طيَّر رعبُه شاربيك عن وجهك. فهذا شأنُك».

ثم نهض الهرُّ، وخرج من مكانه بين الجمهور، ومشى مُتكلِّفاً الوقار والتأنُّق، رافعاً ذيله في الهواء، بغير

أن تنتأ شعرةٌ واحدة من فروه الناعم. وقد تقدَّم حتّى جاوز النار وبات قريباً جدّاً بحيث استطاع تِريان — من مكان وقوفه مُسنِداً كتفه إلى حائط الإسطبل الجانبيّ — أن يرى وجهه مباشرةً. ولم تطرفْ عيناه الكبيرتان الخضراوان قطّ. (حتّى إنّ يُسطاس تمتم قائلاً: «إنّه باردٌ كلوحِ جليديّ. فهو يعرف أنْ ليس هنالك ما يخاف منه».)

ومشى القرد إلى جانب الهرّ مُتثاقِلاً، وهو يضحك ضحكاً خافتاً ويُقطِّب جبينه، ثمَّ رفع كفَّ يده، وسحب السقّاطة، وفتح الباب. وخُيِّل إلى تِريان أنّه استطاع سماع خرخرة الهرّ وهو داخلٌ البابَ المُظلِم.

ثمَّ صدر فجأةً أرهبُ مواءِ هررةٍ سمعَته أُذناك: «آبي — آبي — أوووِي!..». فقفز الجميع من هول المفاجأة. وإذا كنتَ قد استيقظتَ ذات ليلة على صوت قِطَط تتنازع أو تتزاوج، فإنّك تعرف ذلك الصوت.

إلّا أنَّ هذا كان أسوأ. فقد انقلب القردُ رأساً على عقب إذ صدمه بُنَيّ وهو راجعٌ من الإسطبل بأقصى سرعة. ولو لم تكن تعرف أنّه هرّ، لربّما حسِبتَه ومضة برقٍ بُنِّيّة اللون. وقدِ انطلق كالسهم فوق العُشب المكشوف راجعاً إلى قلب الجمهور. وما كان أحدٌ ليرغب في رؤية هرٍّ في تلك الحالة! وكان يمكنك أن ترى الحيوانات تزيح من طريقه يميناً وشمالاً. ثمَّ اندفع صاعداً إلى شجرة، ودار على ذاته بسرعة، ونكَّس رأسَه إلى أسفل. وقد انتصب شعُر ذيله



حتّى كاد يوازي جسمَه ثُخناً، وبدت عيناه كأنّهما جاما* نارٍ خضراء، ووقفت كلُّ شعرةٍ على طول ظهره.

عندئذٍ همس غيمان: «إنّني أتخلّى عن لحيتي لأعرف هل يُمثِّل هذا الهر مجرَّد تمثيل، أم هل وجد في الداخل فعلاً ما روَّعه هكذا!»

فقال تِريان: «سكوتاً، يا صاحِ!» لأنَّ الزعيم والقرد كانا أيضاً يتهامسان، وقد أراد أن يسمع ما يقولان. إلاّ أنّه لم يوفَّق، بل سمع القرد فقط يُدمدِم: «رأسي، رأسي!» ولكنْ تكوَّن لديه انطباعٌ بأنَّ ذينك الاثنين حيَّرهما تصرُّف الهرّ كما حيَّره هو تقريباً.

ثمَّ قال الزعيم: «والآن، يا بُنَيّ، كُفَّ عن هذا الضجيج. وأخبرهم بما رأيت».

فزعق الهرّ: «آيي — آيي... آوُو... آواه!»

وقال الزعيم: «ألستَ تُدعى حيواناً ناطقاً؟ إذاً، كُفَّ عن ضجّتك اللعينة وتكلَّمْ!»

* الجام: وعاء لحمل جمر النار.

ولكنَّ ما أعقب ذلك كان مروِّعاً بالفعل. فقد تأكَّد لتِريان تماماً (كما للآخرين أيضاً) أنَّ الهرَّ كان يحاول أن يقول شيئاً، ولكنْ لم يخرجْ من فمه غير أصوات القطط المألوفة البشعة التي قد تسمعها من أيِّ هرٍّ غاضب أو مذعور في أيِّ شارعٍ من الشوارع. وكلَّما طال مواؤه، بدا أقلَّ شبهاً بالحيوانات الناطقة. ثمَّ تعالت من بين الحيوانات الأُخرى همهماتٌ ودمدماتٌ وصرخاتٌ حادَّة قصيرة تنمُّ كلُّها عن الانزعاج.

وسُمع صوت الدبِّ يقول: «انظروا، انظروا! إنَّه لا يقدر أن يتكلَّم. لقد نسي كيف ينطق! لقد عاد حيواناً أخرس. انظروا إلى وجهه!»

وتبيَّن للجميع أنَّ ذلك صحيح. ثمَّ وقع على أولئك النارنيانيِّين أشدُّ رُعبٍ على الإطلاق. فإنَّ كلَّ واحدٍ منهم قد تعلَّم — لمَّا كان صُوصاً أو جرواً صغيراً — كيف أنَّ أصلان عند بداية العالم حوَّل حيوانات نارنيا إلى حيواناتٍ ناطقة وأنذرهم بأنَّهم إن لم يكونوا صالحين فقد يُحوَّلون ثانيةً ليعودوا مثل الحيوانات الغبيَّة غير الناطقة المسكينة التي يلاقيها المرء في البلدان الأُخرى. ولذلك ولولوا قائلين: «ها هو ذلك يحدث لنا الآن!»

ومن ثمَّ أعولَتِ الحيوانات قائلةً: «الرحمة! الرحمة! أشفق علينا وأنقذنا، أيُّها اللورد شِفطة؛ قفْ بيننا وبين أصلان. فعليك أنت دائماً أن تدخل وتُكلِّمه نيابةً عنّا. نحن لا نجرؤ... لا نجرؤ!»

أمّا بُنّيَ فقد توارى في أعلى الشجرة. ولم يرَه أحدٌ قطّ بعد ذلك.

ووقف تِريان واضعاً يده على مقبض سيفه وحانياً رأسه. فقد دوّختْه أهوال تلك الليلة. وخُيِّل إليه أحياناً أنّ أفضل شيء هو أن يسحب سيفه حالاً ويندفع على الكالورمنيّين، غير أنّه في اللحظة التالية فكّر أنّه أفضلُ له أن ينتظر ويرى أيّ مُنعطفٍ جديدٍ قد تتحوّل الأمور فيه. ثمّ ظهر مُنعطَفٌ جديدٌ فعلاً.

فقد سُمع من ميسرة الجمهور صوتٌ جَهْوريٌ جليّ يقول: «أبي!» وعلم تِريان في الحال أنّ المتكلّم واحدٌ من الكالورمنيّين، لأنّ الجنود العاديّين في جيش السلطان يُنادون الضُبّاط بالتعبير «سيّدي!» إلّا أنّ الضبّاط يخاطبون رؤساءهم الكبار بالتعبير «أبي!» ولم يكن يُسطاس وجِلّ يعلمان ذلك، إلّا أنّهما بعدما نظرا هنا وهناك شاهدا المتكلّم، لأنّ الأشخاص الموجودين عند أطراف الجمهور كانت رؤيتهم بالطبع أسهل من رؤية الذين في الوسط، حيث جعل وهج النار كلّ ما هو وراءه يبدو قاتماً إلى أبعد حدّ. وقد كان المتكلّم شاباً طويل القامة ونحيلاً، بل أيضاً وسيماً على الطريقة الكالورمنيّة المتّصفة بالاسمرار والتعالي والشموخ.

وخاطبَ ذلك الشابُّ الزعيمَ قائلاً: «أبي! أنا أيضاً أرغب في الدخول».

فقال له الزعيم: «صَه يا إيميث! مَن طلب مشورتك؟ أيليق بفتىً أن يتكلّم؟»

وأجاب إيميث: «أبي! صحيحٌ أنّني أصغر سنّاً منك، ولكنّ دم الطراقنة يجري في عروقي، مثلي مثلك، وأنا أيضاً عبدُ طاش. لذلك..».

لكنّ رِشدَة الطرقان قال: «سكوتاً! ألستُ أنا قائدك؟ لا شأن لك بهذا الإسطبل. فهو لأهل نارنيا».

فأجاب إيميث: «كلاّ، يا أبي! لقد قلتَ إنّ أصلانهم وطاشنا كلاهما واحد. فإنْ كانت هذه هي الحقيقة، يكون طاش نفسُه هناك في الداخل. وعندئذٍ كيف تقول إنّه لا شأن لي به؟ فإنّني مستعدٌّ لأنْ أموت بسرورٍ ألف مِيتة حتّى أحظى بنظرةٍ واحدة إلى وجه طاش».

فقال الطّرقان رِشدَة: «أنت غبيٌّ ولا تدرك شيئاً! هذه شؤون عُليا».

عندئذٍ ازداد وجه إيميث عبوساً، وسأل: «أليس صحيحاً إذاً أنّ طاش وأصلان هما واحد؟ هل كذب القرد علينا؟»

فقال القرد: «بالطبع، هُما واحد».

وقال إيميث: «أقسِم على ذلك، يا قرد!»

فدمدم شِفطة قائلاً: «ويلاه! ليتكم تكفّون كلُّكم عن إزعاجي. فإنّ رأسي يؤلمني فعلاً. نعم، نعم، إنّني أُقسِم على ذلك».

وقال إيميث: «إذاً، يا أبي، أنا مصمّمٌ تماماً على الدخول».

وبدأ رِشدَة الطَّرقان يقول: «يا غبيّ...». إلّا أنّ الأقزام بدأوا يصرخون حالاً: «هيّا، يا أسْوَدُ! لماذا لا تدَعه يدخل؟ لماذا تُدخِل النارنيانيّين وتُبقي بني قومك خارجاً؟ ماذا لديك هناك في الداخل حتّى لا تريد لرجالك أن يلتقوه؟»

لم يكن تِريان ورفقاؤه يستطيعون أن يروا إلّا ظهر رِشدَة الطَّرقان. ولذلك لم يعرفوا كيف بدا منظر وجهه وهو يهزّ كتفيه قائلاً: «اشهدوا أنّي بريءٌ من دم هذا الفتى الغبيّ. ادخُل أيُّها الغِرُّ الطائش، وأسرِع!»

ثمّ كما فعل بُنّيّ، أقبل إيميث ماشياً على بقعة العشب المكشوفة بين المَشعَلة والإسطبل. وكانت عيناه تلمعان، ووجهُه شديدَ الوقار، ويده على مقبض سيفه، ورأسُه شامخاً. وقد شعرت جِلّ بميلٍ إلى البكاء لمّا نظرت إلى وجهه. وهمس جَوهَر في أذن الملك: «ورأسِ الأسد، أكاد أُحِبُّ هذا المحاربَ الشابّ، رغم كونه كالورمنياً. فإنّه يستحقُّ إلهاً أفضل من طاش».

وقال يُسطاس: «أتمنّى فعلاً لو نعرف ما هو داخلَ الإسطبل حقّاً!»

ثمّ فتح إيميث الباب ودخل إلى فم الإسطبل الأسود. وأغلق الباب خلفه. ومرّت فقط لحظاتٌ قليلة — لكنّها بدت أطول — قبل أن ينفتح الباب ثانيةً. ثمّ تدحرج منه شكلٌ لابسٌ سلاحاً كالورمنياً، ووقع على ظهره، وتمدّد بلا حراك، ثُمّ انغلق الباب وراءه. وقفز الزعيم نحوه، ثمّ انحنى فوقه محدّقاً إلى وجهه، فأجفل من هول المفاجأة. وما لبث أن تمالك نفسه، والتفت إلى الجمهور، وقال بصوتٍ عالٍ:

«لقد كان للفتى الطائش ما أراده. إنّه نظر إلى طاش، وها هو قد مات. فليكن هذا إنذاراً لكم جميعاً!»

فقالت الحيوانات المسكينة: «سيكون، سيكون!»

غير أنّ تِريان ورفاقه حدّقوا أوّلاً إلى الكالورمنيّ الميت ثُمّ بعضُهم إلى بعض. ذلك أنّهم، وهُم قريبون منه جدّاً، استطاعوا أن يروا ما لم يستطع الجمهور أن يروه، لكونهم بعيدين جدّاً ووراء النار: أنّ الرجُل الميت لم يكن إيميث! بل كان شخصاً آخر تماماً: رجُلاً أكبر سنّاً، وأسمن وأقلّ طولاً، وذا لحية كبيرة.

ثمّ ضحك القرد في خفوتٍ قائلاً: «هُوْ هُوْ هو! أهناك المزيد؟ هل يريد أيُّ شخص آخر أن يدخل؟ حسناً، ما دمتم كلُّكم خَجِلين، فسأختار أنا التاليَ. أنت، أنتَ أيُّها الخنزير البرّيّ! هيّا، تعال! سُوقوه أيُّها الكالورمنيُّون. إنّه سوف يرى طَشلان وجهاً لوجه».

فنهض الخنزير البرّيُّ واقفاً بتثاقُل، وقال صائحاً: «أُومْف! هيّا إذاً. جرّبوا نابَيّ!»

ولمّا رأى تِريانُ الحيوانَ الشجاع يستعدُّ للقتال دفاعاً عن نفسه، والجنود الكالورمنيِّين يبدأون بالإطباق عليه بسيوفهم الحدباء المجرّدة، ولا أحدَ يهبُّ لنجدته، بدا أنَّ شيئاً تفجَّر داخله. ولم يعد يهمُّه أتكونُ تلك اللحظة هي الأنسبَ للتدخُّل أم لا تكون.

فقال للآخرين همساً: «سُلُّوا السيوف، ووتِّروا السهام، واتبعوني!»

وفي اللحظة التالية شاهد النارنيانيُّون المدهوشون سبعة أشكال يقفزون إلى الأمام من قدّام الإسطبل، وأربعة منهم في دروع برّاقة. وتألّق سيف الملك في ضوء النار إذ لوَّح به فوق رأسه وصاح بصوتٍ عظيم:

«ههُنا أقف أنا، تِريان ملك نارنيا، باسم أصلان، كي أُثبِت بجسدي أنَّ طاش شيطانٌ خبيث، والقِردَ خائنٌ كثير المساوئ، وهؤلاء الكالورمنيِّين يستحقون الموت. فإلى صفّي، يا جميع النارنيانيِّين الأوفياء. أتنتظرون حتّى يقتلكم سادتُكم الجُدد كُلُّكم واحداً بعد واحد؟»

الفصل الحادي عشر

الأحداث تتسارع

تراجع رِشدَة الطَّرقان إلى الوراء بسرعة البرق ليبتعد عن متناوَل سيف الملك تِريان. ولم يكن رِشدة جباناً، وكان من شأنه إذا دعت الحاجة أن يُقاتِل وحيداً في مواجهة تِريان والقزم. غير أنّه لم يكن يستطيع أن يصمد في وجه النَّسر وأُحاديِّ القرن أيضاً. فقد كان يعرف كيف تستطيع النسور أن تصدم وجهك وهي طائرة وتنقر عينيك وتُعميَك بأجنحتها. كما كان قد سمع من أبيه (وهو مِمّن خاضوا معارك ضد النارنيانيِّين) أنّه ما من إنسان، إلّا إذا تسلَّح بالسهام أو برمحٍ طويل، يقدر أن يُباري أُحاديُّ قرن، لأنّه يشبُّ على قائمتيه الخلفيَّتين وهو واقعٌ عليك وعندئذٍ تُضطَرُّ إلى التعامل مع حافرَيه الأماميَّين وقرنه وأسنانه في آنٍ واحد. لذلك اندفع رِشدَة إلى وسط الجمهور ووقف يُنادي:

«إليَّ، إليَّ، يا جنود السلطان (عاش إلى الأبد!). إليَّ يا جميع النارنيانيِّين المُوالِين، لئلا يقع غضب طَشلان عليكم!»

وبينما كان ذلك يجري، حدث أمران آخران أيضاً. فإنَّ القرد لم يدركُ الخطر الداهم بمثل السرعة التي بها أدركه الطرقان. وظلَّ بضعَ ثوانٍ مُقرفصاً قربَ النار يُحدّق إلى القادمين الجُدد. ثمَّ هجم تِريان على ذلك المخلوق التَّعس، وأمسك به من قفا رقبته، واندفع عائداً به إلى الإسطبل، حيث صاح: «افتحوا الباب!» ففتحة غُيمان. وقال تِريان وهو يقذف بالقرد إلى قلب الظلام: «اذهَب واشربْ دواءَك، يا شِفطة!» ولكنْ ما إن سفق القزم الباب وأغلقه، حتّى شعَّ من داخل الإسطبل نورٌ أزرق، ضاربٌ إلى الاخضرار، يُعمي الأبصار، واهتزّت الأرض، وسُمعت ضجّة غريبة: قَرْق وزَغْق كأنّهما صوتُ خشن صادر من طائر هائل متوحّش غريب الشكل.

عندئذٍ أعولَت الحيوانات وولْوَلت ونادت: «طَشلان! استُرنا منه!» وسقط كثير منها أرضاً، كما أخفت حيواناتٌ كثيرة وجوهها بأجنحتها أو مخالبها. ولم يُلاحظ أحدٌ سوى بصّار النَّسر وجه رِشدَة الطرقان في تلك اللحظة، إذ كانت للنَّسر أقوى عينين بين جميع الكائنات الحيَّة. وممّا رآه بصّار، عرف في الحال أنَّ رِشدة كان مدهوشاً، ومرعوباً تقريباً، مثله مثل جميع الباقين.

وفكّر بصّار: «ها هو شخص دعا إلى آلهة لا يؤمن بها. فكيف تكون حاله فعلاً إذا جاءت هذه الآلهة فعلاً؟»

أمّا الأمر الثالث الذي حدث في ذلك الحين عينه، فقد كان بالحقيقة الأمر الجميل الوحيد تلك الليلة. ذلك

أنَّ كلَّ كلبٍ ناطق في ذلك الاجتماع (وكان يضمُّ خمسة عشر كلباً) أقبل واثباً ونابحاً بابتهاج ليلتحق بصفّ الملك. وكان أغلب الكلاب من النوع الكبير الضَّخم ذي الكتفين المكتنزَتين والفكّين القويّين. وقد كان قدوم الكلاب أشبه بتكسُّر موجهٍ عظيمة على شاطئ البحر، مِن شأنها أن تُوقعك تقريباً. فمع أنَّ أولئك الكلاب كانوا كلاباً ناطقين، فقد كانت لهم جميعُ صفات الكلاب وتصرُّفاتهم: وقد وقفوا كلُّهم ووضعوا مخالبهم الأماميَّة على أكتاف الآدميّين ولحسوا وجوههم، قائلين كلُّهم معاً: «أهلاً بكم، أهلاً بكم! سوف نساعدكم، سنُساعدكم، سنُساعِد، عَوعَو! قولوا لنا كيف يمكننا أن نُساعِد، قولوا لنا كيف، كيف. كيف نُساعِد، كيف نُعاوِن، عَوعَو!»

كان ذلك جميلاً وبهيجاً جداً بحيث يجعلك ترغب في البكاء.

فها هو أخيراً شيءٌ ممّا كانوا يترجّون حدوثه. ثمَّ حين أقبلت بعد قليل بضعة حيوانات صغيرة (فئران

وأخلاد وسنجاب أو أكثر) وهي تعدو بخطىً سريعة ورشيقة وتهتف فرحاً قائلةً: «انظروا، انظروا. نحن هنا!». وحين أقبل بعدها الدبُّ والخنـزيرُ البرّيّ، بدأ يُسطاس يشعر بأنَّ كلَّ شيء، بعد كلِّ ما جرى، قد يصير على أحسن حال. غير أنَّ تِريان أجال نظرة مُحملِقاً فرأى كم كان عدد الحيوانات التي تحرَّكت قليلاً. ثمَّ نادى:

«إليَّ، إليَّ! هل صرتم كلُّكم جبناء منذُ أصبحتُ أنا مَلِككم؟».

فدمدمت عشراتُ الأصوات: «لا نستجرئ. إنَّ طشلان سيغضب علينا. احمِنا من طشلان».

وسألَ تِريان: «أين جميع الأحصنة الناطقة؟»

فزعقت الفئران قائلةً: «نحن رأيناهم، نحن رأيناهم. لقد أجبرهم القرد على العمل. وهم كلُّهم مربوطون تحتُ عند أسفل التلَّة».

عندئذٍ قال تِريان: «إذاً أيُّها الصغار جميعاً، أنتم القوارِضَ والقواضم وكسّاري الجوز، اركضوا بأقصى



سرعة تقدرون عليها وتحقَّقوا من كون الأحصنة في صفِّنا. وإن كانوا معنا، فأعملوا أسنانكم في الحبال واقرضوها حتَّى تتحرَّر الأحصنة، وأحضِروهم إلى هُنا».

فارتفعت الأصوات الصغيرة كلُّها قائلةً: «سمعاً وطاعةً، يا مولانا!» وانطلق أولئك القوم الصغار، ذوو العيون البصيرة والأسنان الحادَّة، وأذنابُهم تهتزُّ بخفَّة ورشاقة. وابتسم تِريان بدافع الحُبِّ الصادق إذ رآهم منطلقين. غير أنَّ الوقت كان قد حان فعلاً للتفكير في أمور أُخرى. فإنَّ رِشدة الطَّرْقان كان يُصدِر أوامره قائلاً: «إلى الأمام! اقبضوا عليهم جميعاً أحياءً إنِ استطعتم، واقذفوا بهم إلى الإسطبل، أوِ ادفعوهم إلى داخله دفعاً. وعندما يصيرون كلُّهم في الداخل، عندئذٍ نُضْرِم النار في الإسطبل ونجعلهم مُحرَقةً تُقدَّم إلى الإله العظيم طاش».

وقال بصّار لنفسه: «هَا! إذاً بهذه الطريقة يرجو أن يكسب صفح طاش عن عدم إيمانه به».

عندئذٍ كان صفُّ الأعداء قد بدأ يتحرَّك إلى الأمام، وكان يضمُّ نصف قوَّة رِشدة، ولم يكد الوقت يتَّسع لتِريان حتَّى يُصدِر أوامره:

«إلى الميسرة يا جِلّ، وحاولي أن ترمي منهم أكبر عددٍ ممكنٍ قبل وصولهم إلينا. ولينطلقِ الخنـزيرُ البرّيُّ والدبُّ إلى جانبها. وليكن غيمان إلى يساري، ويُسطاس إلى يميني. ويا جَوهَر، تولَّ الجناح الأيمن. وقف إلى جانبه، يا لَغْزان، واستخدم حوافرك. ويا بصّار، حوِّم واضرب. وأنتمُ

الكلاب، سيروا وراءنا تماماً. ثمّ انتشِروا بينهم بعد بدء المُسايفة. وليُساعِدْنا أصلان!»

أمّا يُسطاس فوقف وقلبه يخفق بسرعة رهيبة، متمنّياً ومترجّياً أن يكون شجاعاً. ولم يكن قد رأى قبلاً أيَّ شيء جعل الدم يجمد في عروقه مثلَ ذلك الصفّ من الرجال السُّود الوجوه واللامعي العيون (مع أنّه سبق أن رأى تنّيناً وأفعى بحر). وقد كان في ذلك الصفّ خمسة عشر كالورمنيّاً وثورٌ ناطق من نارنيا، وسُلَيلان الثعلب، ورَغِل الساطير. ثمّ سمع يُسطاس رنين قوس وانطلاق سهم إلى يساره، وإذا برجُلٍ كالورمنيّ يخرّ صريعاً؛ ثمّ سمع رنّةً وانطلاقةً أُخرَيين أعقبهما سقوط الساطير. فانطلق صوت تِريان قائلاً: «أحسنتِ يا بُنيّتي!» ثمّ أحاط بهم العدوّ.

ولم يقدر يُسطاس قطُّ أن يتذكّر ما جرى في الدقيقتين التاليتين. فقد كان ذلك كلُّه أشبه بحلم (كالذي تراه عندما تكون حرارتك فوق الأربعين درجة)، إلى أن سمع صوت رِشدَة الطَّرقان منادياً من بعيد:

«انسحبوا! تراجعوا إلى هنا وتشكّلوا من جديد».

عندئذٍ استعاد يُسطاس وعيه، وشاهد الكالورمنيّين يتراجعون بسرعة نحو رفقائهم. ولكنْ لم يرجعوا كلُّهم. فقد سقط اثنان منهم قتيلين طعناً بقرن جَوهَر، وواحدٌ بضربةٍ من سيف تِريان. وكان الثعلب جثّةً هامدة عند قدمي يُسطاس، حتّى ساءل نفسه إن كان هو قد قتله. كذلك خرّ الثور صريعاً، وقد أصاب عينَه سهمٌ أطلقته جِلّ ومزّق جنبَه

نابُ الخنزير البرّيّ. ولكنّ صفّنا أيضاً تكبّد بعض الخسائر. فقد قُتِل ثلاثة كلاب، وكان رابعٌ يعرج خلف الصفّ على ثلاث أرجُل وهو يئنّ. وانطرح الدبُّ على الأرض وهو يتحرّك بضعفٍ شديد. ثمّ تمتم بصوته العميق الخشِن وهو مرتبكٌ جداً: «أنا... أنا لا... أفهم»، وألقى رأسه الضخم على العشب بهدوءِ طفلٍ ينام، ولم يعد يتحرّك قطّ.

وهكذا مُنيَ الهجوم الأوّل بالفشل في الواقع. ولم يبدُ يُسطاس قادراً على الابتهاج به، إذ كان عطشاناً عطشاً شديداً وذراعه تؤلمه أيضاً.

وإذ رجع الكالورمنيّون المهزومون إلى قائدهم، بدأ الأقزام يسخرون منهم، زاعقين:

«هل اكتفيتُم، يا سودُ؟ ألا يعجبكم ذلك؟ لماذا لا يذهب طرْقانكم العظيم ويُقاتِل بنفسه بدل أن يُرسِلكم إلى حتفكم؟ يا لكم من سودٍ مساكين!»

وصاح تِريان: «يا أقزام، تعالَوا إلى هنا، واستعملوا سيوفكم، لا ألسِنتكم. ما زال الوقتُ متوافراً. يا أقزام نارنيا! أنا أعرف أنّكم تُحسِنون القتال. عودوا إلى ولائكم!»

فردّ الأقزام ساخرين: «ياه! هذا مُستَبعد. فأنتم دجّالون كبار مثلكم مثل الآخرين. إنّنا لا نريد أيَّ ملوك. الأقزام مع الأقزام. بُوو!»

ثمّ انطلق صوتُ طبل: لا طبل أقزام هذه المرّة، بل طبل كالورمنيّ كبير مصنوع من جلد الثيران. وقد كره الوَلَدان صوتَ الطبل منذ أن بدأ يُقرَع: بُووم — بُووم

— با — با — بووم! ولكنْ كان من شأنهما أن يكرهاه أكثر لو علما معناه. أمّا تِريان فكان يعلمه. ذلك أنّه عنى وجودَ مزيدٍ من الجنود الكالورمنيّين في مكانٍ قريب، وأنّ رِشدَة الطرقان يستدعيهم كي يساعدوه. ونظر تِريان وجَوهَر أحدهما إلى الآخر بحزن. فإنّهما كانا قد بدأا توّاً يرجوان أن يُحالِف النّصر صفَّهما تلك الليلة. ولكنْ لو ظهر أعداءٌ آخرون، لانتهى أمرُهما هُما ومَن معهُما.

وحملق تِريان حواليه يائساً. فإذا بضعةُ نارنيانيّين واقفون مع الكالورمنيين، إمّا خيانةً وإمّا خوفاً صادقاً من «طشلان». وآخرون جالسون بلا حراك وهم يُحدِّقون، بغير أن يكون مرجَّحاً أن ينضمُّوا إلى أيّ الجانبَين. ولكنْ كان عدد الحيوانات الآن أقلّ، وقد تقلّص عدد الجمهور كثيراً. فمن الواضح أنّ عدداً منهم تسلّلوا بهدوء ومضَوا بعيداً في أثناء القتال.

وعاد صوت الطبل البغيض المروِّع يعلو: بُوْوم — بُووم — با — با — بووم! ثم بدأ صوتُ آخر يختلط به. فقال جَوهَر: «اسمعوا!» ثمّ قال بصّار: «انظروا!» وبعد لحظة تبدَّد الشكُّ في ماهيّة الأمر. إذْ بحوافرَ راعدة ورؤوسٍ مرفوعة ومناخرَ موسّعة وأعرافٍ متموّجة، اندفع على التلّ صعوداً أكثر من عشرين حصاناً ناطقاً من أحصنة نارنيا. فإنّ القوارض والقواضم قد عملوا عملهم!

وفتح غيمان القزم والولدان أفواههم للهتاف، ولكنّ

الهتاف لم يحصل قطّ. فقد زخر الهواء فجأةً برنين الأقواس وهسيس السهام. وكان الأقزام هم الذين يطلقون السهام! ولم تكد جِلّ تُصدِّق ما رأته عيناها، إذ كانوا يرمون الأحصنة، والأقزام رُماةٌ مَهَرة مُهلِكون. وأخذتِ الأحصنة تسقط واحداً بعد واحد. فلم يَصل إلى الملك أيُّ واحدٍ من تلك الحيوانات الشريفة.

عندئذٍ زعق يُسطاس وهو يرتعد غيظاً: «خنازيرُ لِئام! وحوشٌ صغار، أدناس أنجاس خوَنة!»

حتّى جَوهَر قال: «أأركض وراء هؤلاء الأقزام، يا مولاي، وأشكُّ في قرني عشرةً منهم بكلّ طعنة؟»

ولكنّ تِريان قال ووجهُه صُلبٌ كالصوّان: «تمالكْ نفسك يا جَوهَر!» ثمّ خاطب جِلّ قائلاً: «إذا وجب أن تبكي، يا قلبي، فحوّلي وجهك جانباً حتّى لا تُبلّلي وتر قوسك». كما قال ليُسطاس: «هدوءاً يا يُسطاس! لا تشتم مثلما يفعل أبناء الشارع. فالمحارب النبيل لا يشتم. إذْ لغتُه الوحيدة إمّا الكلام اللائق وإمّا الضَّرَبات القاضية».

غير أنّ الأقزام ردُّوا على يُسطاس ساخرين: «كانت هذه مفاجأةً لك أيُّها الصبيُّ الصغير، إيه؟ لقد ظننت أنّنا في صفّكم أنتم، أليس كذلك؟ لا بأس! نحن لا نريد أيّة أحصنة ناطقة. ولا نريد لكم أن تفوزوا، كما لا نريد ذلك للعصابة الأخرى. فلا يمكنكم أن تستميلونا نحن إليكم. إنّ الأقزام هم للأقزام!»

وكان رِشدَة الطَّرقان ما يزال يتكلَّم إلى رجاله، مُحدِّداً بغير شكٍّ ترتيبات الهجوم التالي، وربمَّا متمنياً لو بعث كامل قوَّته في الهجوم الأوَّل. ثمّ قرع الطبل من جديد. وعندئذٍ سمع تِريان ورفقاؤه ما روَّعهم: طبلاً مُجاوِباً بقرعاتٍ أخفَّ بكثيرٍ كما لو كانت آتيةً من مكان بعيد جدّاً. ذلك أنَّ جماعةً أخرى من الكالورمنيِّين قد سمعوا إشارة رِشدَة وكانوا آتين لمساندته. ولم يكن يمكنك أن تعرف من وجه تِريان أنَّه فقد الآن كلَّ أمل. إذ قال بصوتٍ واقعيّ:

«اسمعوا! علينا أن نشنَّ هجوماً الآن، قبل أن تتعزَّز قوَّة هؤلاء الأوغاد بدعم رفقائهم».

فقال غيمان: «هلاّ تذكر، يا مولاي، أنَّ وراء ظهورنا هُنا حائطَ الإسطبل الخشبيّ. فإذا تقدَّمنا، أفلا نتعرَّض للتطويق ونُطعَن برؤوس السيوف بين أكتافنا؟»

أجاب تِريان: «كان ممكناً أن أقول قولك، أيُّها القزم العزيز، لو لم تكن خطَّتهم هي أن يُرغمونا على الدخول إلى الإسطبل. فكلَّما ابتعدنا عن بابه المُهلِك، كان أفضل لنا».

وقال بصّار: «الملك على حقّ. بُعداً عن هذا الإسطبل اللعين، وعن العفريت الذي فيه كائناً ما كان، وبأيِّ ثمن!»

فقال يُسطاس: «نعم، لنبتعدْ من هنا فعلاً. بدأتُ أكره مجرَّد منظر هذا الإسطبل».

وأضاف تِريان: «جيِّد! والآن انظروا إلى هناك عن يسارنا، ترَوا صخرة كبيرة ناصعة البياض تتلألأ كالبلَّور

في ضوء النار. أوّلاً سنهجمُ على هؤلاء الكالورمنيِّين. فأنتِ أيَّتها الصبيَّة سوف تتقدَّمين عن يسارنا وترمين من صفوفهم أكبر عددٍ ممكن. وأنتَ، أيُّها النسر، طِر على وجوههم من اليمين، فيما نُهاجِمهم نحنُ فجأةً. ثمّ حين نصير قريبين منهم جدّاً بحيث لا تعودين تقدرين، يا جِلّ، أن ترمي عليهم مخافة أن تُصيبينا، ترجعين إلى الصخرة البيضاء وتنتظرين. وأنتم الآخرين أبقوا آذانكم مفتوحة جيِّداً ولو أثناء القتال. فينبغي أن نَضطرَّهم إلى الفرار في غضون دقائق قليلة، وإلّا فلن نتمكَّن من طردهم أبداً، لأنَّنا أقلُّ منهم عدداً. وحالما أصرخ 'إلى الوراء'، أسرِعوا للانضمام إلى جِلّ عند الصخرة البيضاء، حيث تكون لنا حمايةٌ من ورائنا ويمكننا أن نتنفَّس قليلاً. والآنَ انطلقي، يا جِلّ!»

فركضت جِلّ مسافة سبعة أمتار تقريباً، وهي تشعر بالوحدة الرهيبة، ثمّ أخَّرت رجلها اليُمنى وقدَّمت رجلها اليُسرى، وركَّبت سهماً في وتر قوسها. وقد تمنَّت لو أنَّ يديها لم تكونا ترتجفان كثيراً.

وإذِ انطلق سهمُها الأوَّل نحو الأعداء، وطار فوق رؤوسهم، قالت: «يا لها من رمية رديئة!» إلّا أنَّها وضعت على الوتر سهماً آخر في اللحظة التالية، وهي تعرف أنَّ السرعة هي العنصر الأهمّ. وقد رأت شيئاً كبيراً وأسود يهاجم وجوه الكالورمنيِّين. وكان ذلك هو بصّاراً. وإذا برجُلٍ يرمي سيفه ويرفع كلتا يديه لحماية عينيه، ثمّ يحذو



رجلٌ آخر حذوه. وبعدئذٍ أصاب أحدُ سهامها رجلاً، ثمَّ أصاب آخر ذئباً نارنيانياً كان، على ما يبدو، قد انضمَّ إلى العدوّ.

ولكنْ ما إن مضى على إطلاقها السهام بضعُ ثوانٍ فقط، حتّى اضطُرَّت إلى التوقُّف. إذ بسيوفٍ بارقة، وبنابَي الخنزير البرّي وقَرنِ جَوهَر، وعلى نُباح حادٍّ من الكلاب، اندفع تِريان ومَن معه على الأعداء وكأنّهم يخوضون سباقَ مئة متر. وقد أدهش جِلّ أن ترى مدى عدم الاستعداد الذي بدا لدى الكالورمنيّين. ولم تدرِ أنَّ ذلك كان نتيجةً لعملها وعمل النَّسر. فإنَّ جنوداً قليلين جدّاً يمكنهم أن يظلّوا ناظرين إلى الأمام بثبات إذا كانوا يتلقَّون سهاماً في وجوههم من جهة، ويتعرَّضون لنقراتِ نسر من الجهة الأخرى.

وهتفت جِلّ: «أوه، حسناً فعلتم! حسناً فعلتم!» إذ كانت فرقة الملك تشقُّ طريقها وسط الأعداء تماماً. وكان أحاديُّ القرن يرمي الرجال مثلما ترمي القشَّ بالمِذراة. حتّى يُسطاس بدا لجِلّ أنّه يحارب بكلّ براعة (رغم كونه لا يعرف كثيراً من فنون المُسايفة). وقد أنشبت الكلاب أنيابها في حناجر الكالورمنيّين! فها هو النصر قد تحقَّق أخيراً...

ولكنْ بصدمةٍ شديدة مروِّعة لاحظت جِلّ شيئاً. فمع أنَّ الكالورمنيّين كانوا يسقطون مع كلّ ضربة سيف نارنياني، فلم يبدُ قطُّ أنَّ عددهم يقلّ؛ بل بات منهم

بالفعل الآن عددٌ أكثر من ذاك الذي كان موجوداً عند بدء المعركة. وقد زاد عددُهم كلَّ ثانية، راكضِين من كلِّ جهة. وكان أولئك كالورمِنيِّين جُدداً، وقد جاءُوا حاملِين رماحاً، في جمهورٍ كبير كاد يحجب عن جِلّ رؤية رفقائها.

وعندئذٍ سمعت صوت تِريان صائحاً: «إلى الوراء! إلى الصخرة!»

فقد وصلت التعزيزات إلى جيش العدوّ، بعدما فعل الطبل فِعله.

الفصل الثاني عشر

عبرَ باب الإسطبل

كان ينبغي لجِلّ أن تكون قد تراجعت إلى الصخرة البيضاء. غير أنّها نسِيَت تماماً ذلك الجزء من الأوامر التي تلقّتها، إذ تأثّرت تأثّراً شديداً بمشاهدة القتال. ثمّ تذكّرت ذلك، فدارت حالاً وركضت صوب الصخرة ووصلت إليها قبل الآخرين. بنحو ثانيةٍ واحدة. وهكذا صدف أنّ ظهورهم جميعاً باتت باتّجاه العدوّ حيناً. ثمّ استداروا جميعاً حالما بلغوا الصخرة، وإذا بمشهدٍ مروّع يلوح أمام أعيُنِهم.

فإنّ كالورمنيّاً كان يعدو نحو باب الإسطبل، وهو يحمل شيئاً يرفس ويُكافح. ولمّا وصل إلى ما بينهم وبين النار، استطاعوا أن يروا معاً شكل الرجل وشكل ما كان يحمله، فإذا به يُسطاس.

عندئذٍ اندفع تِريان وأُحاديُّ القرن لنجدة يُسطاس. ولكنّ الكالورمنيَّ كان قد وصل إلى مكانٍ أقرب منهما بكثير إلى باب الإسطبل. وقبل أن يقطعا نصف المسافة، زجَّ بيُسطاس إلى الداخل وأغلق الباب عليه. وكان ستّة

كالورمنيِّين آخرين قد ركضوا وراءه، ووقفوا في صفٍّ على الفسحة المكشوفة أمام الإسطبل، فلم يعُد من سبيلٍ للوصول إلى بابه الآن.

ولكنَّ جِلَ، حتَّى عندئذٍ، تذكَّرت أنَّ عليها إبقاء وجهها مائلاً جانباً على بُعد كافٍ من قوسها، قائلةً: «حتَّى لو لم أتمكَّن من الكفِّ عن البكاء، فإنَّني لن أبلِّل وتر قوسي».

وفجأةً قال غيمان: «حذارِ السهام!»

فحنى كلٌّ منهم رأسه بسرعة، وأسدل غماء خوذته حتَّى غطَّى أنفه تماماً، وربضت الكلاب في المؤخَّر. ولكنْ رغمَ انطلاق بعض السهام باتِّجاههم، تبيَّن سريعاً أنَّ الرماية ليست عليهم. فقد كان فَحمان وأقزامه يُطلِقون السهام من جديد. وكانوا هذه المرَّة يرمون على الكالورمنيِّين بهدوءٍ وثبات.

وعلا صوت فَحمان قائلاً: «واصِلوا الرماية يا فِتيان! كلُّكم معاً، بانتِباه. إنَّنا لا نريد سوداً كما لا نريد قروداً... أو أُسوداً... أو ملوكاً. فالأقزام للأقزام!»

ومهما قلتَ عن الأقزام، فلا أحد يمكن أن يقول إنَّهم غير شُجعان. فقد كان يمكنهم بسهولة أن يذهبوا إلى مكانٍ آمِن بعيد. ولكنَّهم فضَّلوا أن يبقوا هناك ويُقتِّلوا من كلا الطرفين أكبر عددٍ ممكن، إلَّا حين يكون كلا الطرفين لطيفَين بحيث يوفِّران عليهم العناء إذ يقتلان بعضهم بعضاً. فقد أرادوا أن يستولوا هم على نارنيا.

ولكنَّ ما لم يحسبوا له حساباً على الأرجح هو أنَّ الكالورمنيِّين كانوا مُدرَّعين، وأنَّ الأحصنة كانت بِلا حماية. ثمَّ إنَّ الكالورمنيِّين كان لديهم قائد. وقد علا صوت رِشدة الطرقان قائلاً:

«ليُراقِبْ ثلاثون منكم أولئك الأغبياء عند الصخرة البيضاء. وليتبعْني الباقون حتَّى نُلقِّن أبناء التراب هؤلاء درساً قاسياً».

أمَّا تِريان وأصدقاؤه، وهم ما يزالون يلهثون من جرَّاء القتال، شاكرين على استراحتهم بضع دقائق، فقد وقفوا هناك يشاهدون ما يجري فيما اقتاد الطَّرقان رجاله على الأقزام. وكان المشهد غريباً آنذاك. فالنار كانت قد خمدت قليلاً، فبات الضوء الصادر منها الآن أضعف وذا لونٍ أحمر أشدَّ قتاماً. وعلى مدِّ النظر، كان مكان الاجتماع كلُّه قد خلا، إلَّا من الأقزام والكالورمنيِّين. وفي ذلك الضوء، لم يكن ممكناً أن يتبيَّن المرءُ كثيراً ممَّا يجري. إنَّما بدا كأنَّ الأقزام كانوا يخوضون معركة حامية. وقد استطاع تِريان أن يسمع فحمان وهو يتكلَّم كلاماً رهيباً، والطَّرقانَ يُنادي بين حينٍ وآخر: «اقبضوا على أكبر عددٍ ممكن أحياءً! اقبضوا عليهم أحياءً!»

ومهما كانت حالة تلك المعركة، فإنَّها لم تدُم طويلاً. وقد تلاشت جَلَبتها. ثمَّ شاهدَت جِلّ الطرقانَ راجعاً إلى الإسطبل، يتبعه أحد عشر رجلاً يجرُّون أحد عشر قزماً مُقيَّدين. (لم يُعرَف قطُّ هل قُتل الآخرون كلُّهم، أم هل فرَّ بعضٌ منهم.)

وقال رِشدَة الطَّرقان: «اِطرحوهم أحياءً إلى داخل مقام طاش!»

وعندما طُرح الأحد عشر قزماً، أو رُفسوا رفساً، إلى قلب ذلك المدخل المُظلِم، واحداً بعد واحد، ثُمَّ أُغلق الباب من جديد، انحنى رِشدَة منخفضاً أمام الإسطبل وقال:

«هؤلاء أيضاً قُربانٌ مُحرَقةٍ لك، يا مَولانا طاش!»

وبدأ جميع الكالورمنيِّين يقرعون تروسهم بمسطَّحات سيوفهم ويصيحون: «طاش! طاش! الإله العظيم طاش! طاش الغلاَّب البطَّاش!» (لم يعُد من كلامٍ فارغٍ بعدُ عن «طشلان».)

راقبَتِ الجماعة الصغيرة عند الصخرة البيضاء هذه الأفعال، وهمسوا بعضُهم لبعض. فقد وجدوا مجرى ماءٍ رقيقاً جارياً على الصخرة، وشربوا كلُّهم بتلهُّف: جِلّ وغَيمان والملك بأيديهم؛ أمَّا ذوات الأربع فلعقت المياه من الحوض الذي كوَّنته عند أسفل الصخرة. وكان عطشهم شديداً حتَّى بدت تلك أطيبَ شربة شربوها في حياتهم. وبينما كانوا يشربون، كانت سعادتهم غامرة ولم يستطيعوا أن يفكِّروا في أيِّ شيء آخر.

وقال غَيمان: «أشعر في قرارة نفسي بأنَّنا، واحداً فواحداً، سوف نجتاز ذلك الباب المظلم قبل الصباح. ويمكنني أن أُفكِّر بمِئة مِيتة كنتُ أتمنَّى أن أموتها».

فقال تِريان: «إنَّه بالحقيقة بابٌ بغيض. فهو أشبه بفمٍ فاغِر».

وقالت جِلّ بصوتٍ مرتعش: «آه، ألا يمكننا أن نفعل أيَّ شيء لوقف ما يجري؟»

فقال أُحاديُّ القرن وهو يمسُّها بأنفه مسّاً رقيقاً: «كلاَّ، أيَّتها الصديقة الحسناء! فقد يكون بالنسبة إلينا البابَ الذي يؤدِّي بنا إلى بلد أصلان، وعندئذٍ نتعشَّى الليلة إلى مائدة أصلان».

ثمَّ أدار الطَّرقان رِشدَة ظهره نحو الإسطبل، ومشى على مهلٍ إلى مكانٍ مُقابِل للصخرة البيضاء، وقال:

«اسمعوا! إذا تقدَّم الخنزير البرِّيُّ والكلاب وأُحاديُّ القرن إليَّ ووضعوا أنفسهم تحت رحمتي، يظلُّون على قيد الحياة. فالخنزير البرِّيُّ سيذهب إلى قفصٍ في حديقة السُّلطان، والكلابُ إلى مَرابي كلاب السلطان. أمَّا أُحاديُّ القرن، فبعد أن أنشر قرنه سيجرُّ عربة. وأمَّا النَّسر والولدان وذاك الذي كان الملك، فسيُقدَّمون إلى طاش الليلة».

فكانت الدَّمدمة هي الجواب الوحيد.

ثمَّ قال الطَّرقان: «إلى الأمام، يا جنود! اقتلوا الحيوانات، ولكنِ اقبضوا على ذوي الرِّجلَين أحياءً».

عندئذٍ بدأت المعركة الأخيرة التي خاضها ملك نارنيا الأخير.

وما جعل الوضع معدوم الأمل، حتَّى لو صرفنا النظر عن أعداد العدوّ، كان الرِّماح. فإنَّ الكالورمنيِّين الذين

كانوا في صفّ القرد من البداية تقريباً لم تكُن لديهم رماح. وسبب ذلك أنّهم قد دخلوا إلى نارنيا فرداً فرداً أو اثنين اثنين، متظاهرين أنّهم تجّار مُسالِمون، وطبعاً لم يكونوا حاملين رماحاً لأنّ الرمح ليس شيئاً يمكنك أن تُخفيَه. أمّا الكالورمنيّون الجدد فلا بدّ أنّهم دخلوا لاحقاً، بعدما كان القرد قد صار قويّاً بالفعل وباتوا هم قادرين على التقدّم علناً. فإنّ الرماح أحدثتِ الفرق كلّه. إذ يمكنك بواسطة رمحٍ طويل أن تقتل خنزيراً بريّاً قبل أن تصير في متناول نابَيه، وأحاديَّ قرن قبل أن تغدو في متناوَل قرنه؛ إذا كنت سريعاً جدّاً وحافظتَ على رباطة جأشك. فها هي الرماح المصوّبة الآن تُطبِق على تِريان وآخِر أصدقائه، وإذا بهم جميعاً يقاتلون حالاً لإنقاذ أرواحهم.

وعلى نحوٍ ما، لم يكن الوضع سيّئاً للغاية كما قد يُخيَّل إليك. فعندما تكون مستخدِماً لكلّ عضلةٍ استخداماً كليّاً (حانياً رأسك بسرعةٍ تحت رأس رمحٍ هنا، وقافزاً فوقه هناك، أو هاجماً إلى الأمام حيناً، ومتراجعاً إلى الوراء حيناً، أو مُنعطِفاً في خطٍّ دائريّ) لا يبقى لديك كثيرٌ من الوقت حتّى تشعر إمّا بالخوف وإمّا بالحزن.

وقد علم تِريان أنّه لا يستطيع الآن أن يفعل أيَّ شيءٍ لأجل الآخرين: فها هو المصير الواحد آتٍ عليهم جميعاً. ولاح له الخنزير البريُّ ساقطاً إلى أحد جانبيه، وجَوهَر يُقاتِل بشدّةٍ وعُنفٍ إلى الجانب الآخر. ومن زاويةِ إحدى عينيه رأى، مجرّدَ رؤيةٍ، كالورمنيّاً ضخماً يجرُّ جِلّ بشعرها

مبتعداً بها إلى مكانٍ ما. ولكنّه بالكادّ فكّر في أيّ شيءٍ من هذه الأشياء، إذ كان الشيءُ الوحيد الذي يفكّر بهِ هو أن يبذل حياته أغلى بذلٍ ممكن. وكان أسوأ ما في الأمر أنّه لم يقدر أن يبقى في الموضع الذي بدأ فيه، أي تحت الصخرة البيضاء. فالرجل الذي يحارب أكثر من عشرة أعداء دُفعةً واحدة ينبغي له أن ينتهز الفرص كُلّما تمكّن: ينبغي أن يهجم كالسَّهم حيثما رأى صدر عدوّ أو عُنقَه مكشوفاً. وبضربات قليلة جدّاً، قد يُبعِدك ذلك مسافةً غير قصيرة عن النقطة التي بدأتَ فيها. فسرعان ما تبيَّن لتِريان أنّه يبتعد نحو اليمين أكثر فأكثر، مقترباً من الإسطبل باطّراد. وقد كانت في ذهنه فكرةٌ غامضة بأنّ للابتعاد عن الإسطبل سبباً وجيهاً، غير أنّه لم يتمكّن عندئذٍ من تذكُّر حقيقة ذلك السبب. وعلى كلّ حال، لم تكن بيده حيلة.

ولم يلبث أن توضّح كلُّ شيءٍ في الحال. فقد تبيّن له أنّه كان يُقاتِل الطَّرقان نفسه. وكانت المَشعَلة (أو ما بقي منها) قدّامه مباشرةً. بل إنّه كان في الواقع يُقاتِل في مدخل الإسطبل ذاته، وقد فُتح الباب وأمسَكَ به كالورمنيّان اثنان، على أُهبة إغلاقه حالما يصير هو في داخله. آنذاك تذكّر كلَّ شيء، وأدرك أنّ عدوّه ما برح يدفعه تدريجيّاً نحو الإسطبل، متعمّداً ذلك منذ بدء القتال. وبينما هو يفكّر في ذلك، كان ما يزال يُقاتِل الطرقان على أشدّ ما يمكنه.

ثمَّ خطرت في بال تِريان فكرة جديدة. فألقى سيفه، واندفع مسرعاً إلى الأمام، وانخفض تحت نصل سيف الطرقان الأحدب، ثمَّ أمسك عدوَّه من حزامه بكلتا يديه، وقفز عائداً إلى الإسطبل، صائحاً:

«ادخُلْ وقابِل طاش بنفسك!»

عندئذٍ سُمِعت ضجَّة تصمُّ الآذان. وكما حصل عندما زُجَّ بالقرد إلى الداخل، اهتزَّتِ الأرض وتوهَّج نورٌ يُعمي الأبصار.

وصرخ الجنديّان الكالورمنيّان في الخارج: «طاش، طاش!» ثمَّ سفقا الباب. فإذا أراد طاش زعيمهما، فلا بدَّ من أن يحصل عليه. أمّا هما، مهما كانتِ الظروف، فلم يرغبا في مقابلة طاش.

وعلى مدى لُحيظات، لم يعرف تِريان أين كان، ولا حتّى مَن هو. ثمَّ هدأ روعه وطرف بعينيه، ونظر حواليه. فإذا الإسطبل في الداخل غير مظلم كما قد توقَّع. فإنَّه كان في ضوءٍ قويّ، ولذلك كانت عيناه تطرفان.

والتفت لينظر إلى رِشدَة الطَّرقان، إلاّ أنَّ رِشدَة لم يكن ناظراً إليه. فقد أطلق رِشدة زعقة حادَّة وأشار بيده، ثمَّ وضع يديه قدّام وجهه، وخرَّ على الأرض منبطحاً على وجهه. فنظر تِريان في الاتّجاه الذي إليه أشار الطَّرقان. وعندئذٍ فهم الأمر.

كان شكلٌ رهيب مُقبِلاً نحوهما. وكان أصغر بكثير من ذلك الشكل الذي سبق أن رأوه من البرج، وإن



كان ما يزال أكبر بكثير من الإنسان، وكان هو إيّاه: له رأس نسر، وأربع أذرع، ومنقاره مفتوح، وعيناه متأجّجتان. وقد صدر من منقاره صوتٌ خفيضٌ أجشّ: «لقدِ استدعيتَني إلى نارنيا، يا رِشدَة الطرقان. وها أنا هنا. فماذا تودُّ أن تقول لي؟»

ولكنّ الطرقان لم يرفع وجهه عن الأرض، ولا قال كلمة واحدة، بل كان يرتعد كإنسان مُصاب بحازوقة شديدة. لقد كان شجاعاً في المعارك شجاعةً كافية. ولكنّ نصف شجاعته كان قد فارقه في وقتٍ مُبكّر من تلك الليلة، لمّا بدأ يشكُّ في إمكانيّة وجود طاشٍ حقيقيّ. والآن فارقه النصفُ الباقي.

ثمّ إنّ طاش، بنخعةٍ مفاجئة — كدجاجةٍ تنقضُّ لتلتقط دودة — وثب على رِشدَه التّعِس ودسَّه تحت الذراع العُليا من ذراعيه اليُمنيَين. بعدئذٍ أدار طاش رأسه جانبياً ليُحدِّق إلى تِريان بإحدى عينيه الرهيبتين، لأنّه لم يكن يستطيع أن ينظر مُباشرةً ما دام له رأسُ طائر.

ولكنْ في الحال سُمع صوتٌ من وراء طاش، قويٌّ وصافٍ مثل بحر الصيف، قائلاً:

«اذهب من هُنا، أيُّها الوحش، آخِذاً فريستك الشرعيَّة إلى موضعك الخاصّ: باسْم أصلان وأبي أصلان العظيم، إمبرطوار ما وراء البحر».

عندئذٍ تلاشى المسخ الكريه، والطَّرقان ما يزال تحت

إبطه. والتفت تِريان ليرى مَن تكلّم. فإذا بما رآه يجعل قلبه يخفق خفقاناً لم يخفق مثلَه في أيّة معركة.

ذلك أنّ سبعة ملوك وملكات وقفوا أمامه، وعلى رؤوسهم كلّهم تيجان، وجميعُهم لابسون ثياباً بهيّة متألّقة، إلّا أنّ الملوك كانوا لابسين دروعاً فاخرة أيضاً وسيوفُهم مسلولة بأيديهم.

فانحنى تِريان بأدب وهَمَّ بالكلام، وإذا بصُغرى الملكات تضحك. وحدّق إلى وجهها تحديقاً شديداً، ثمّ شهق مذهولاً إذ عرفها. فقد كانت هي جِلّ، ولكنْ ليس جِلّ كما سبق أن رآها مؤخّراً: ووجهُها متّسخ، وعيناها دامعتان، وثوبُها القطنيُّ العتيق منزلق عن إحدى كتِفَيها؛ بل بَدَت مُرتاحة ومُنتعِشة، وكأنّها خارجةٌ لتوّها من حمّام مُنعِش. وقد ظنّ أوّلَ وهلة أنّها بدت أكبر سنّاً، غير أنّها لم تبدُ كذلك بعد قليل؛ وهو لم يستطع قطُّ أن يُقرِّر قراره بشأن ذلك. ثمّ تبيّن له أنّ أصغر الملوك كان يُسطاس؛ إلّا أنّه هو أيضاً كان قد تغيّر مثلما تغيّرت جِلّ.

وما لبث تِريان أن شعر بالارتباك والحَرَج لوجوده بين هؤلاء القوم، وما زال عليه دم المعركة وغبارُها وعَرَقُها. وبعد هُنيَهة أدرك أنّه لم يكن في تلك الحالة قطعاً. فقد كان منتعشاً ومرتاحاً ونظيفاً، ولابساً ثياباً كالّتي كان من شأنه أن يلبسها لوليمةٍ عظيمة في كَيرپراڤيل. (ولكنْ في نارنيا لا تكون ثيابك الجيّدة أبداً هي ثيابك غير المريحة. فأهل نارنيا يعرفون كيف يصنعون ملابس مريحة وجميلة



المنظر معاً. ولم يكُن يوجَد في البلد من أوّله إلى آخره أشياءُ مثل النّشا أو الفلانيلّة أو النسيج المُتمغّط.)

ثمّ تقدّمت جِلّ وانحنت انحناءةً جميلة، وقالت: «مولاي، دعْني أعرِّفك إلى بطرس، الملك الأعلى على جميع الملوك في نارنيا».

ولم يكن من داعٍ لأن يسأل تِريان عمّن يكون الملك الأعلى، لأنّه تذكّر وجهه من حلمه (وإن كان الوجه هنا أكثر نُبلاً بكثير). فتقدّم إلى الأمام وركع على إحدى ركبتيه وقبّل يد بطرس وقال:

«أيّها الملك الأعلى، أهلاً بك ومرحبا!»

عندئذٍ أقامه الملك الأعلى وقبّله على كِلا خدّيه، كما ينبغي للملك الأعلى. ثمّ قدّم إليه كُبرى الملكات سنّاً — ولكنّها هي أيضاً لم تبدُ مُسنّة ولم يكن على رأسها شعرٌ أشيب ولا كان على وجهها تجاعيد — وقال:

«سيّدي، هذه هي تلك الليدي پولي التي جاءت إلى نارنيا في اليوم الأوّل، لمّا جعل أصلان الأشجار تطلع والحيوانات تنطق».

ثمّ عرّفه تالياً برجُل فاضت لحيته الذهبيّة على صدره وكان وجهه زاخراً بالحكمة، قائلاً: «وهذا هو اللورد ديغوري الذي رافقها في ذلك اليوم. وهذا أخي الملك إدمون؛ وهذه أُختي، الملكة لوسي».

وبعدما حيّا تِريان هؤلاء جميعاً، قال: «مولاي، إن كنتُ قد أحسنتُ قراءة التاريخ، ينبغي أن تكون ههُنا أُخرى. اليس لجلالتك أُختان؟ أين الملكة سوزان؟»

فأجاب بطرس باختصار وحسرة: «إنّ أُختي سوزان لم تعُد صديقةً لنارنيا».

وقال يُسطاس: «نعم، وكلّما حاولتَ أن تجعلها تأتي وتتحدّث عن نارنيا، أو تفعل شيئاً يخصُّ نارنيا، تقول: "أيّةُ ذكريات رائعة لديكم! تصوّروا أنّكم ما زلتم تفكّرون في جميع هذه الألعاب المضحكة التي كنّا نلعبها لمّا كنّا صغاراً"!»

وقالت جِلّ: «أُوه، سوزان! لا يعنيها في هذه الأيّام شيء سوى جوارب النيلون وأصابع حمرة الشفاه والسهرات والحفلات. ولطالما شُغفت وحرصت على أن تكون راشدة».

وقالت الليدي پولي: «راشدة حقاً؟ أودُّ لو تنضج فعلاً! لقد ضيّعت كل فترة دراستها في المدرسة وهي ترغب في

أن يكون لها العمر الذي هي فيه الآن، ولسوف تُضيّع ما بقي من حياتها لتظلّ في ذلك العمر. فإنّ كامل فكرتها هي أن تعدو عدْواً إلى أسخف فترةٍ في حياة المرء بأسرع ما يمكنها ثمّ تتوقّف هناك أطول مدّة ممكنة».

فقال بطرس: «حسناً، دعونا لا نتحدّث عن ذلك الآن. انظروا! ها هنا أشجارٌ مُثمِرة طيّبة. فلنتذوّقها».

وعندئذٍ نظر تِريان حواليه، أوّل مرّة، فأدرك كم كانت هذه المغامرة غريبةً وعجيبة جدّاً.

الفصل الثالث عشر

كيف رفض الأقزام أن يَدخلوا

ظنّ تِريان — أو كان يمكن أن يظنّ لو أُتيح له أيّ وقت للتفكير — أنّهم كانوا داخل إسطبلٍ صغير مسقوف بالأغصان، طولُه نحو أربعة أمتار وعرضُه نحو مترين. وبالحقيقة أنّهم كانوا واقفين على العشب، وفوقهم السماء الزرقاء العالية، وكان الهواء الذي يهبُّ رقيقاً على وجوههم نسيم يومٍ من أوّل أيّام الصيف.

وعلى مقربةٍ منهم كانت غيضةُ أشجار كثيفة الورق، ولكنْ من تحت كلّ ورقة أطلّت أثمارٌ لم يرَ أحدٌ مثلها في عالمنا، بألوانها الذهبيّة أو الصفراء الباهتة أو الأرجوانيّة أو الحمراء اللمّاعة. وقد جعلت الأثمارُ تِريان يحسب أنّ الخريف ينبغي أن يكون قد حلّ، ولكنْ كان في طبيعة الهواء شيءٌ أكّد له أنّه لا يمكن أن يكون الزمن قد جاوز حزيران (يونيو). فتوجّهوا كلُّهم نحو الأشجار.

ومدَّ كلُّ واحد يده ليقطف الثمرة التي أعجبه منظرُها أكثرَ الكُلّ، ثم توقَّف الجميع هُنَيهةً. فقد كان ذلك الثمر فائق الجمال حتّى شعر كلٌّ منهم هذا الشعور: «لا يُعقل أن تكون هذه الثمرة لي أنا... فمن المؤكد أنّه مُحرَّمٌ علينا أن نقطفها».

إلّا أنّ بطرس قال: «لا بأس! أنا أعرف ما يدور في أفكارنا كلّنا. ولكنّني على ثقة، بل على ثقة تامّة، بأنْ لا داعيَ لذلك. فلديَّ شعور بأنّنا وصلنا إلى البلد الذي فيه كلُّ شيءٍ مسموحٌ به».

فقال يُسطاس: «هيّا إذاً!» وبدأ الجميع يأكلون.

تُرى، كيف كانت تلك الفاكهة؟ مؤسفٌ أنّه لا يستطيع أحد أن يصف الطَّعم. فكلُّ ما يمكنني قوله هو أنّه مُقارنةً بتلك الأثمار تبدو أنضَرُ تُفّاحة أكلتَها تافهة، والبرتقالة الأكثرُ عصيراً ناشفة، والإجّاصة الأكثر ليونةً صلبة ومُتخشّبة، وأحلى حبّة فريز حامضة. ثمّ إنّ الثمار كانت بلا بزور، كما لم يكن هنالك حصىً ولا دبابير. ولو أكلتَ من تلك الثمار مرّةً واحدة، لكان مذاق أطايب العالم كلّها كالدواء المرّ بعدها. غير أنّني لا أستطيع وصف ذلك الثمر حقاً. فإنّك لن تعرف طعمه فعلاً إلّا إذا أُتيح لك أن تذهب إلى تلك البلاد وتتذوّقه بنفسك.

ولمّا أكلوا كفايتهم، قال يُسطاس للملك بطرس: «لم تُخبِرنا بعدُ كيف جئتَ إلى هنا. فقد كنتَ تهمُّ بإخبارنا قبلما ظهر الملك تِريان».

فردَّ بطرس: «ليس لديَّ كثيرٌ أُخبِركم به. فقد كُنّا أنا وإدمون واقِفَين على رصيف المحطّة، وشاهدنا قطاركما مُقبلاً. وأتذكّر أنّني حسبتُه منعطفاً بسرعة فائقة. كما أتذكّر أنّني فكّرت كم يكون مُبهِجاً لو كان أهلُنا على متن القطار ذاته، مع أنّ لوسي لم تعرف ذلك..».

وسأل تِريان: «أهلُكم، أيُّها الملك الأعلى؟»

«أعني أبي وأُمّي: والدَينا أنا وإدمون ولوسي».

فسألته جِلّ: «ولماذا يكونان في القطار؟ هل تقصد أن تقول إنّهما هما يعرفان بأمر نارنيا؟»

«كلّا! فلا علاقةَ لنارنيا بالأمر. لقد كانا في طريقهما إلى بريستول. وأنا إنّما سمعتُ أنّهما كانا ذاهبَين إلى هناك ذلك الصباح. ولكنّ إدمون قال إنّهما كانا مُضطرَّين لأنْ يستقلّا ذلك القطار بعينه». (وقد كان إدمون خبيراً بأوقات قطارات سكّة الحديد.)

وعادت جِلّ تسأل: «وماذا حدث بعدئذٍ؟»

فقال الملك الأعلى: «حسناً، ليس سهلاً وصفُ ذلك.. أهو سهلٌ، يا إدمون؟»

أجاب إدمون: «ليس كثيراً. فلم يكن ذلك قطُّ مثل تلك المرّة التي فيها سُحِبنا من عالمنا بواسطة السحر. إذ حصل هديرٌ مروِّع وضربني شيءٌ ضربةً عنيفة، إلّا أنّه لم يؤذِني. ولم أشعر بالخوف مثلما شعرتُ... حسناً... بالتأثّر والانفعال. أُوه، وهذا أمرٌ غريب: فقد كانت رُكبتي تؤلِمني من جرّاء ضربةٍ طائشة أصابتني في ملعب الرُّكبي،

وإذا بي أُلاحظ أنَّ الألم قد زال فجأةً. ثمَّ شعرت بأنَّني خفيف الوزن كثيراً. وبعدئذٍ... وجدنا أنفسنا هنا».

وقال اللورد ديغوري، ماسحاً آخِر آثار الفاكهة عن لحيته الذهبيَّة: «ونحن حصل لنا مثلُ ذلك تقريباً في عربة القطار. إنَّما أظنُّ أنَّنا، أنا وأنت يا بولي، شعرنا عموماً بأنَّنا لم نعُد مُتيبِّسين. أنتم الصغار لن تفهموا ذلك. إلَّا أنَّنا لم نعُدْ نشعر بالتقدُّم في السنّ».

فقالت جِلّ: «صغارٌ بالحقيقة! فأنا لا أظنُّ أنَّكما أنتما الاثنين أكبر سنّاً منّا بكثيرٍ هنا».

وقالت الليدي بولي: «حسناً، إن لم نكُن أكبر منكم الآن، فقد كُنَّا أكبر في ما مضى».

فسأل يُسطاس: «وماذا كان جارياً منذ مجيئكم إلى هنا؟»

أجاب بطرس: «حسناً، مضى وقت طويل (على الأقلّ أحسبُ أنَّه كان طويلاً) ولم يجرِ شيء. ثمَّ انفتح الباب...»

فقال تِريان: «الباب؟»

قال بطرس: «نعم، الباب الذي دخلتَ — أو خرجتَ — منه. هل نسيت؟»

«ولكنْ أين هو؟»

فأشار بطرس بيده قائلاً: «انظر!»

ونظر تِريان فرأى المنظر الأغرب والأعجب بين ما يمكنك أن تتصوَّره. فعلى بُعد أمتار قليلة فقط، واضحاً للعِيان تحت ضوء الشمس، قام بابٌ خشبيٌّ خشن،



وحولَه إطار المدخل وحده دون سواه، بلا حيطان ولا سقف. ومشى نحوه مرتبكاً، فتبعه الآخرون، مترقِّبين أن يروا ما ينوي القيام به. فتقدَّم ودار إلى الجانب الآخر من الباب. ولكنْ بدا الوضع على حاله من الجهة الأُخرى أيضاً: إذ إنَّ الملك كان ما يزال في الهواء الطَّلق، في صباح يومٍ صيفيّ. وكان الباب قائماً هناك وحده كما لو أنَّه قد طلع في موضعه طلوعَ الشجرة.

ثمَّ قال تِريان للملك الأعلى: «سيِّدي الكريم، إنَّ هذا أمرٌ عجيب جدّاً».

فقال بطرس مبتسماً: «إنَّه الباب الذي دخلتَ منه مع ذلك الكالورمنيّ قبل خمس دقائق».

«ولكنْ ألم أدخل إلى الإسطبل خارجاً من الغابة؟ أمّا هذا فيبدو باباً يؤدّي من لامكان إلى لامكان».

أجاب بطرس: «إنّه يبدو كذلك إذا مشيتَ حوله. ولكنْ ضَع عينك على ذلك المكان الذي فيه شقٌّ بين اثنين من الألواح، وانظر من خلاله».

ووضع تِريان عينه على الشقّ. فلم يستطع في البداية أن يرى شيئاً غير الظلام. ثمّ لمّا اعتادت عيناه ذلك، رأى الوَهَج الأحمر الباهت الصادر من مَشعَلةٍ كادت تخمد، ورأى فوقها نجوماً في فضاءٍ أسود. بعدئذٍ استطاع أن يرى أشكالاً سوداء متحرّكة أو واقفة بينه وبين النار، وتمكّن من سماعهم يتحدّثون بأصواتٍ كأصوات الكالورمنيّين. وهكذا عرف أنّه كان ناظراً من خلال باب الإسطبل إلى عتمة خِربة المصباح، حيث خاض معركته الأخيرة. وقد كان أولئك الرجال يتباحثون هل يدخلون ويُفتّشون عن رِشدَة الطّرقان (ولكنّ أيّاً منهم لم يُرِد أن يفعل ذلك) أم هل يضرِمون النار في الإسطبل.

ثمّ أجال نظره ثانيةً، ولم يكَد يُصدّق ما رأته عيناه. فقد كانت السماء الزرقاء فوق رأسه، والحقول الخضراء تنتشر على مدى النظر في كلّ اتّجاه، وأصدقاؤه الجُدد حواليه ضاحكين.

عندئذٍ ابتسم تِريان أيضاً: «إذاً يبدو أنّ الإسطبل منظوراً إليه من الداخل والإسطبل منظوراً إليه من الخارج مكانان مختلفان».

فقال اللورد ديغوري: «نعم، إنّ داخله أكبر من خارجه».

وقالت الملكة لوسي: «نعم، في عالمنا أيضاً، احتوى إسطبلٌ مرّةً في داخله على ما كان أكبر من العالم كلّه».

وقد كانت تلك أوّل مرّة تكلّمت فيها. ومن نشوة الابتهاج في صوتها، عرف تِريان سبب ذلك. فإنّها كانت تتشرّب كلّ شيء باهتمامٍ وحماسةٍ فاقا ما حازه الآخرون، وقد حالت سعادتُها الغامرة دون تمكّنها من الكلام. وأراد تِريان أن يسمعها تتكلّم من جديد، فقال: «من بعد إذنكِ، يا سيّدة، تابعي حديثك. أخبريني بمغامرتك كاملةً».

فقالت لوسي: «بعد الرجّة والضجّة، وجدنا أنفسنا هنا. وقد حيّرنا الباب كما حيّرك. ثم انفتح أوّلَ مرّة (عند انفتاحه رأينا الظلام من المدخل) وعبرَه رجل ضخم بيده سيفٌ مجرّد. وقد عرفنا من سلاحِهِ أنّه كالورمنيّ.

«وقف الرجل قرب الباب رافعاً سيفه، مُسنِداً كتفه إلى الحائط، على أُهبةِ ضَرب أيّ شخص يعبر. فتقدّمنا إليه وكلّمناه، ولكنْ خُيّل إلينا أنّه لم يقدر أن يرانا ولا أن يسمعنا. وهو لم يلتفت قطُّ إلى السماء وضوء الشمس والعشب: فأظنّ أنّه لم يستطع رؤيتها أيضاً. ومن ثَمّ انتظرنا وقتاً طويلاً. ثمّ سمعنا سَحب السقّاطة في الجهة الأُخرى من الباب. ولكنّ الرجل لم يتأهّب للضرب بسيفه حتّى يُتاح له أن يرى مَن القادِم. وهكذا افترضنا أنّه قد قيل له أن يضرب بعضاً

ويصفَح عن بعض. ولكنْ ما إنِ انفتح الباب حتّى برز طاش فجأةً عند هذا الجانب من الباب، ولم يرَ أيٌّ منّا من أين جاء. ومن خلال الباب جاء هرٌّ كبير، ألقى على طاش نظرةً واحدة ثمّ فرّ لينجو بحياته: وقد فعل ذلك في الوقت المناسب، إذ وثب عليه طاش فاصطدم منقاره بالباب وهو ينغلق. وكان في وسع الرجل أن يرى طاش، فشحب وجهه جداً وانحنى أمام ذلك الوحش، إلّا أنّ هذا تلاشى حالاً.

«بعدئذٍ انتظرنا أيضاً وقتاً طويلاً. وأخيراً انفتح الباب ثالثَ مرّة ودخل منه كالورمنيٌّ شابّ. وقد أعجبني فعلاً. إذ ذاك أجفل الحارس الواقف عند الباب، وبدت عليه الدهشة البالغة حالما رآه. فأظنّ أنّه كان ينتظر شخصاً آخر مختلفاً تماماً...»

عندئذٍ قال يُسطاس (وقد كان متعوّداً أن يُقاطع الأحاديث... ويا لها من عادة سيّئة!): «لقد فهمتُ كلَّ شيء الآن. فقد دخل الهرُّ أوّلاً، وكانت لدى الحارس أوامر بألّا يؤذيَه. ثمّ كان ينبغي للهرّ أن يخرج ويقول إنّه رأى طشلانهم الرهيب، ويتظاهر بأنّه مذعورٌ حتّى يُروِّع الحيوانات الباقية. ولكنْ ما لم يحزره شِفطة قطعاً كان أنّ طاش الحقيقيَّ سيظهر، وهكذا خرج الهرُّ بُنّيّ مذعوراً بالفعل: وبعد ذلك كان من شأن شِفطة أن يُدخِل أيَّ مخلوقٍ أراد التخلُّص منه فيقتل الحارس جميع الداخلين. ثُمَّ...»

إذ ذاك قال تِريان برقّة: «يا صاحِ، إنّك تُعوّق الآنسة عن إكمال قصّتها».

فتابعت لوسي تقول: «حسناً، لقد ذُهِل الحارس، ممّا وفّر للرجل الآخر وقتاً كافياً للتنبُّه. وهكذا تقاتلا، فقتل الشابُّ الحارس وطوّحه إلى خارج الباب. ثمّ أقبل ماشياً على مهل إلى حيثُ كُنّا نحن. وقد استطاع أن يرانا ويرى كلَّ شيء سوانا. وحاولنا أن نتكلّم إليه، إلّا أنه كان أشبه برجُلٍ في غيبوبة. فقد ظلَّ يقول: 'طاش، طاش، أين طاش؟ أنا ذاهبٌ إلى طاش!' وهكذا تخلّينا عن محاولاتنا، ومضى هو إلى مكانٍ ما، هناك في البعيد. ولقد رقَّ له قلبي فعلاً. وبعد ذلك... يا لَلهول!»

وإذ قالت لوسي ذلك، عبَست وظهر على وجهها التأثُّر الشديد. فقال إدمون:

«بعد ذلك طوّح أحدهم قرداً عبرَ الباب، فإذا بطاش هناك من جديد. وأختي رقيقة القلب جدّاً بحيث لا تودُّ أن تخبرك بأنّ طاش نقر نقرةً واحدة بمنقاره، وإذا بالقردِ يختفي!»

وقال يُسطاس: «وجبةٌ جيّدة! ومع ذلك آمل أن يختلف مع طاش أيضاً».

لكنّ إدمون أضاف: «وبعد ذلك، أقبل نحو اثني عشر قزماً، ثمّ جِلّ، ثمّ يُسطاس، وأخيراً أنت نفسُك».

فقال يُسطاس: «أرجو أن يكون قد أكل الأقزام أيضاً. فيا لهم من خنازيرَ صغار!»

وقالت لوسي: «لا، لم يأكلهم. ولا تكُن بغيضاً! إنّهم ما زالوا هنا. وبالحقيقة، يمكنكم أن تَروهم من هنا. وقد بذلتُ كلَّ جهد لمصادقتهم، فلم أنجحْ قطّ».

فصاح يُسطاس: «مصادقتهم؟ لو تعلمين كيف كان أولئك الأقزام يتصرّفون!»

وقالت لوسي: «أوه، كُفَّ عن هذا يا يُسطاس! تعال وانظر إليهم فعلاً. أيُّها الملك تِريان، لعلَّك أنت تقدر أن تؤثّر فيهم».

فقال تِريان: «لا يمكنني أن أشعر بحبٍّ كبير للأقزام اليوم. ولكنْ بناءً على طلبك، يا سيّدة، أنا مستعدٌّ للقيام بما هو أعظم من هذا».

فتقدَّمتهم لوسي، وسرعان ما تمكّنوا كلُّهم من رؤية الأقزام. وقد كان منظرهم غريباً جدّاً. فإنّهم لم يكونوا يتمشّون أو يُمتّعون أنفسهم (مع أنَّ الحِبال التي كانوا مُوثَقين بها تلاشت على ما يبدو)، ولا كانوا مُستلقين يستريحون. وإنّما كانوا قاعدين مُتلاصِقين تقريباً في حلقة صغيرة مواجهين بعضهم لبعض. ولم يلتفتوا قطُّ حواليهم ولا تنبّهوا إلى وجود آدميَّين حتّى اقترب منهم تِريان ولوسي كثيراً بحيث أمكنهما أن يلمساهم. عندئذٍ أمال الأقزام كلُّهم رؤوسهم كما لو لم يكونوا قادرين أن يروا أحداً، غير أنّهم كانوا يُصغون بانتباه شديد محاولين أن يحزروا من الصوت ما كان يجري.

ثمّ قال واحدٌ منهم بصوتٍ خشن: «انتبهوا! تطلّعوا أين أنتم سائرون. حذارِ أن تصطدموا بوجوهنا!»

فردَّ يُسطاس ساخطاً: «لا بأس! لسنا عمياناً. ففي وجوهنا عيون».

إذ ذاك قال القزم نفسُه، وكان اسمه نكّاش: «ينبغي أن تكون عيوناً جيّدة البصر إن قدرتم أن تروا في الداخل هنا».

فسأل إدمون: «أين؟»

وقال نكّاش: «عجباً، أيُّها الأحمق العنيد! في الداخل هنا طبعاً. في هذا الإسطبل الصغير الضيّق، الكريه الرائحة، الشديد السواد، الشبيه بالوكر!»

فسأله تِريان: «أأنتم عميان؟»

أجاب نكّاش: «ألسنا جميعُنا عمياناً في الظلام؟»

وقالت لوسي: «ولكنْ ليس من ظلام، أيُّها الأقزام الحمقى المساكين. ألا يمكنكم أن تروا؟ ارفعوا أنظاركم! تطلّعوا حواليكم! ألا يمكنكم أن تَروا السماء والأشجار والأزهار؟ ألا يمكنكم أن تَروني أنا؟»

«باسْم كلّ خداع، كيف يمكنني أن أرى ما ليس موجوداً؟ وكيف يمكنني أن أراكِ في هذه الظلمة الشديدة السواد حيث لا ترينني أنتِ أيضاً؟»

قالت لوسي: «ولكنّني أنا أقدر أن أراك. وسأُبرهن لك أنّني أقدر أن أراك: فأنت واضع غليوناً في فمك».

فردَّ نكّاش: «أيُّ شخصٍ يعرف رائحة التبغ يحزر ذلك».

وقالت لوسي: «يا لكم من مساكين! إنَّ هذا رهيب». ثمَّ خطرت في بالها فكرة. فانحنت وقطفت بعض زهور

البنفسج البرّيّ وقالت: «اسمع، يا قزم! حتّى لو كانت عيناك سقيمتين، فلعلّ أنفك سليم: أيمكنك أن تشمّ هذه؟» ثمّ مالت قليلاً ومدّت الأزاهير النديّة الطازجة إلى أنف نكّاش البشع. ولكنّها اضطرّت لأنْ تقفز إلى الوراء بسرعة كي تتجنّب ضربةً من قبضته الصغيرة القاسية. وقد صاح قائلاً:

«إيّاكِ إيّاكِ! كيف تجرؤين؟ ماذا تقصدين بإقحامك شيئاً من قشّ الإسطبل الكريه في وجهي؟ وقد كانت فيه شوكةٌ أيضاً. إنّ هذا التصرّف شبيهٌ بكلامكِ الوقح!»

فقال تِريان: «يا ابنَ التراب، هذه هي الملكة لوسي، وقد أرسلها أصلان إلى هُنا من الماضي السحيق. ولأجل خاطرها فقط لا أعمد — أنا تِريان مَلِككم الشرعيّ — إلى قطع رؤوسكم جميعاً من فوق أكتافكم، ما دُمتُم خَوَنةً تبرهنَت خيانتُهم مرّةً ومرّتين».

وردّ نكّاش هاتفاً: «حسناً، ألن يُنهيَ هذا كلّ شيء؟ كيف يمكنك أن تسترسل في هذا الكلام الفارغ كلّه؟ إنّ أسدَك العجيب لم يأتِ لنجدتك... ألعلّه أتى؟ لا أعتقد ذلك! والآن — الآن بالذات — بعدما ضُرِبتَ وحُشِرتَ داخل هذا الوكر المظلم، مثلك مثلنا جميعاً، ما زلتَ تلعب لعبتك القديمة عينها. فها أنت تُطلِق كذبة جديدة! إذ تحاول أن تجعلنا نُصدّق أنْ ليس أيُّ واحدٍ منّا محبوساً، وأنْ ليس من ظلام، والسماء تعرف ماذا بعد».

فصاح تِريان: «ليس من وكر مُظلِم إلّا في مخيّلتك، أيها الأحمق. فاخرج منها خارجاً» ثمّ انحنى إلى الأمام وأمسك بنكّاش من حزامه وقلنسوته ودفعه خارجَ حلقة الأقزام حالاً. ولكنْ حالما أرخاه تِريان، عاد مسرعاً كالسهم إلى مكانه بين الآخرين، فاركاً أنفه وصائحاً:

«آو، آو! لماذا تفعل بي ذلك؟ إنّك ضربتَ بي عُرضَ الباب، وكدتَ تكسر لي أنفي!»

فقالت لوسي: «يا ويلاه! ماذا ينبغي لنا أن نفعل لأجلهم؟»

وقال يُسطاس: «لندَعْهم وشأنَهم!» ولكنْ ما إن تكلّم حتّى ارتعشت الأرض. وفجأةً صار الهواء الطيّبُ أطيب، وومض خلفهم بهاءٌ باهر. فالتفتوا جميعاً، وكان آخر من التفت هو تِريان لأنّه كان خائفاً. وإذا محبوبُ قلبه، الأسدُ الذهبيّ، أصلانُ نفسه، بضخامته وحقيقته، واقفٌ هناك. وكان الآخرون قد ركعوا في حلقةٍ حول قائمتيه الأماميّتين وأخذوا يدسّون أيديَهم ورؤوسهم في لُبدته، إذ حنى هو رأسَه الكبير كي يمسّهم بلسانه. ثمّ ثبّتَ عينيه على تِريان، فاقترب تِريان منه مرتجفاً وانطرح عند أقدامه، فقبّله (الأسد) وقال: «نِعمّا، يا آخِرَ ملوك نارنيا، يا مَن صمد في أحلك ساعة!»

وقالت لوسي في غمرة دموعها: «أصلان، هل يمكنك... هل تريد... أن تفعل شيئاً لأجل هؤلاء الأقزام المساكين؟»

أجاب أصلان: «أيّتها العزيزة الغالية، سأُريكِ ما يمكنني أن أفعله وما لا يمكنني أن أفعله، على السواء». ثمّ اقترب إلى الأقزام كثيراً وزمجر زمجرةً خفيضة، ولكنّها رُغم كونها خفيضة جعلت الهواء كلّه يهتزّ. إلّا أنّ الأقزام قالوا بعضهم لبعض: «أسمعتم هذا؟ إنّها العصابة في الطَرَف الآخر من الأسطبل، وهم يحاولون إخافتنا. وهم يقومون بذلك بواسطة آلةٍ ما. فلا يهمّكم الأمر أبداً. إنّهم لن يتمكّنوا من إدخالنا ثانيةً!»

ثمّ رفع أصلان رأسه وهزّ لُبدته. وفي الحال ظهرت مأدبة عظيمة على رُكبَتي كلّ قَزم: فطائر وألْسِنة وحَمام وكعكٌ مُحلّى ومُثلّجات، ووُضِعَت في يمين كُلّ قزم كأسٌ من النبيذ الفاخر. ولكنّ ذلك لم ينفع كثيراً. فقد باشروا الأكل والشرب بشراهةٍ مُفرِطة، ولكنِ اتّضح أنّهم لم يستطيعوا أن يتذوّقوا ذلك بالطريقة الصحيحة. إذ ظنّوا أنّهم كانوا يأكلون ويشربون فقط ممّا يمكنك أن تجده في



إسطبلٍ ما. فقال واحد منهم إنّه كان يحاول أن يأكل تبناً، وقال آخر إنّه قضم قضمةً من رأسِ لِفتٍ عتيق، وقال ثالث إنّه وجد ورقة ملفوف نيئة. ورفعوا كؤوساً ذهبيّة من النبيذ الأحمر الفاخر إلى شفاههم، وقالوا: «يَعْق! تصوّروا شرْب مياهٍ وسخة من حوض طالما وَرَدَهُ حمار! لم نكن نحسب قطّ أنّنا سنصل إلى هذا الحدّ».

ولكنْ ما لبث كلّ قزم أن بدأ يشكّ أنّ كلّ قزمٍ آخر قد وجد شيئاً أطيب ممّا وجده هو، فأخذوا يتهافتون ويتناتشون، ثمّ انتقلوا إلى التخاصُم والتناحر، بحيث نشبت في غضون دقائق قليلة معارك حامية بينهم جميعاً، ولطّخوا وجوههم وثيابهم بالطعام الشهيّ كُلّه أو داسوه بأقدامهم.

ولكنّهم لمّا قعدوا أخيراً كي يُعالِجوا الكدَمات تحت عيونهم، ويُداووا أُنوفَهم الدامية، قالوا جميعاً: «حسناً، على كلّ حال لم تنجحْ أيّة خدعة معنا. فنحن لم نسمح لأحدٍ بإدخالنا. إنّ الأقزام للأقزام!»



عندئذٍ قال أصلان: «أترَين أنَّهم لم يسمحوا لنا بأن نساعدهم؟ لقدِ اختاروا الدهاء بدلاً من التصديق. فسِجنُهم إنَّما هو في عقولهم فقط، ومع ذلك فهم محبوسون فيه. كما أنَّهم خائفون جدّاً من أن يُدخَلوا بحيث لا يُمكِن أن يُخرَجوا. ولكنْ تعالَوا، يا صغاري. فإنَّ لديَّ عملاً آخر يجب أن أقوم به».

ثمَّ تقدَّم إلى الباب، فتبعوه كلُّهم. ورفع رأسه ثمَّ زمجر: «الآنَ حان الوقت!» وبعدئذٍ زأر بصوتٍ أعلى: «الوقت!» ثمَّ زمجر بصوتٍ عالٍ جدّاً بحيث كان يمكن أن يُزعزِع النجوم: «الوقت». فإذا بالباب ينفتح على وسعه!

الفصل الرابع عشر

اللَّيل يهبط على نارنيا

وقف الجميع إلى جانب أصلان، عن يمينه، ونظروا من خلال الباب المفتوح.

كانت المَشعَلة قدِ انطفأت، وعمَّ الظلام الأرض كلَّها. وبالحقيقة، لم يكن يمكنك أن تقول إنَّك تنظر إلى قلب غابة لولا رؤيتك نهاية أشكال الشجر السوداء وبداية النجوم. ولكنْ لمَّا زمجر أصلان مرَّةً أُخرى بعد، رأوا إلى يسارهم شكلاً أسود آخر في البعيد. ذلك أنَّهم رأوا رُقعةً أُخرى لا نجوم فيها، وأخذت تلك الرقعة ترتفع أكثر فأكثر حتَّى صارت بهيئة إنسانٍ مارد، هو الأضخم بين العمالقة جميعاً. وكانوا كلُّهم يعرفون نارنيا معرفةً جيِّدة بحيث خمَّنوا أين ينبغي أن يكون واقفاً. فلا بُدَّ أنَّه كان على الأراضي المستنقعيَّة العالية الممتدَّة بعيداً إلى الشمال ما وراء نهر الشرثار.

عندئذٍ تذكَّر يُسطاس وجِلّ كيف أنَّهما ذات مرَّة قديماً، في الكهوف التي تحت تلك المستنقعات، شاهدا مارداً ضخماً نائماً وقيل لهما إنَّ اسمه هو «الأبُ زمان»،

وإنَّه سوف يستيقظ يومَ ينتهي العالم.

ثمَّ قال أصلان، رغم أنَّهما لم يتكلَّما: «نعم، بينما كان نائماً يحلم، كان اسمُه الأب زمان. أمّا الآن، وقدِ استيقظ، فسيكون له اسمٌ جديد».

بعدئذٍ قرَّب المارد الضخم بوقاً إلى فمه. واستطاعوا رؤية ذلك من تغيُّر الشكل الأسود الذي شكَّله مقابل النجوم. وبعد ذلك بوقتٍ غير قصير — لأنَّ الصوت ينتقل ببطء شديد — سمعوا صوت البوق عالياً ورهيباً لكنْ ذا جمالٍ خلاَّب غريب.

وفي الحال امتلأت السماء بالشُّهب أو النيازك. ولئن كانت رؤية نيزك واحد أمراً حسناً، فقد صارت هذه النيازك عشرات، ثمَّ عشرينات، ثمَّ مئات، حتَّى أصبحت كمطر من فضّة؛ واستمرَّ ذلك مدَّةً طويلة. وبعد حينٍ من استمراره، بدأ واحد أو اثنان منهم يتصوّران وجود شكلٍ قاتم ثانٍ على صفحة الفضاء، فضلاً عن شكل المارد. وقد كان في مكانٍ مختلف، فوق رؤوسهم تماماً، في سقف السماء فوقُ، كما يمكنك أن تقول. وفكَّر إدمون: «لعلَّه غيمة». وعلى كلّ حال، لم يكن هنالك نجوم، بل مجرَّد سواد، ولكنَّ انهمار النجوم حوالَيهم استمرَّ. ثمَّ أخذت الرقعة الخالية من النجوم تتوسَّع، منتشرةً أبعد فأبعد من مركز الفضاء. وما لبث أن اسودَّ رُبع السماء، ثمَّ نصفُها. وفي الأخير بات انهمار النيازك جارياً فقط في الأسفل قربَ الأفق.

وبارتعاشةِ دهشة (داخَلَها أيضاً شيءٌ من الرُّعب) أدركوا كلُّهم ما كان يجري. فإنَّ السواد المنتشر لم يكن غيمةً قطّ، بل كان مجرَّد فراغ. والجزء الأسود من السماء كان الجزء الذي لم تبقَ فيه نجوم. وكانت جميع النجوم تتساقط، إذ دعاها أصلان إلى العودة لوطنها للمبيت.

أمّا الثواني القليلة الأخيرة قبل توقُّف انهمار النجوم كليّاً، فكانت حافلةً بالروعة. إذ أخذت النجوم تتساقط حواليهم. ولكنَّ النجوم في ذلك العالم ليست هي الأجرام الملتهبة التي في عالمنا، بل هي أشخاص (وقد قابل إدمون ولوسي أحدهم ذات مرَّة). وهكذا شاهدوا الآن مطراً غزيراً من الأشخاص المتألِّقين اللامعين، وكلُّهم ذوو شعر طويلٍ كالفضَّة المتأجِّجة ورماح كالمعدن الشديد الاتّقاد، مُنهمِراً عليهم من الفضاء الأسود، أسرع من الحجارة المتساقطة. وقد صدر عن أولئك القوم صوتُ هَسهسة إذ هبطوا وأحرقوا العُشب. وقد انزلقت تلك النجوم كلُّها ووقفت في مكانٍ ما خلفَهم، إلى جهة اليمين قليلاً.

وكانت تلك حَسَنة عظيمة، لأنَّه لولاها — بعدما خلَتِ السماء من النجوم — لكان كلُّ شيء في ظلام دامس ولم يكن يمكنك أن ترى شيئاً. أمّا الآن، والحالةُ هذه، فقد ألقت جمهرةُ النجوم من ورائهم ضوءاً أبيض شديداً فوق أكتافهم. واستطاعوا أن يروا أميالاً بعد أميال من غابات نارنيا منبسطةً أمامهم وهي تبدو كما لو كان ضوء غامر قد سُلِّط عليها. وانتشر وراء كلّ شُجيرة، بل

وراء كلّ ورقة عُشبٍ تقريباً، ظلُّها الأسود. وبدا طرف كلّ ورقة شجر حادّاً مسنوناً، حتّى تكاد تظنّ أنّ لمْسَك لها قد يجرح إصبعك.

وترامت على العشب أمامهم ظلالُهم هم. غير أنّ الأمر العظيم العجيب كان ظلّ أصلان. فقد امتدّ بعيداً إلى يسارهم، هائلاً ورهيباً جدّاً. وذلك كلّه كان تحت سماءٍ سوف تبقى خاليةً من النجوم إلى الأبد.

وقد كان الضوء المنبعث ممّا وراءهم (وعن يمينهم قليلاً) قويّاً جدّاً بحيث أضاء حتّى سفوحَ المستنقعات الشمالية. وظهرت أشياء تتحرّك هناك، إذ كانت حيواناتٌ هائلة تدبّ وتنساب إلى قلب نارنيا: تنانينُ ضخمة، وسِقّايات عملاقة، وطيورٌ بلا ريش ذاتُ أجنحة تُشبه أجنحة الخفافيش. وقد اختفت تلك كلُّها في قلب الغابة، ثمّ ساد سكونٌ بضعَ دقائق.

بعدئذٍ سُمِعت — من بعيدٍ جدّاً أوّلَ الأمر — أصوات وَلولَة، تبعها من كلّ جهةٍ صليلٌ ووقعُ أقدام مسرعة وحفيفُ أجنحة. وأخذ ذلك يقترب أكثر فأكثر. وسرعان ما أمكنتهم أن يميّزوا بين عدْو الأقدام الصغيرة وخبْط المخالب الكبيرة، وبين طقطقة الأظلاف الدقيقة ودويّ الحوافر الضخمة. ثمّ بات في وسعهم أن يرَوا آلاف العيون البرّاقة.

وأخيراً، من بين ظلال الأشجار، صعوداً على سفح الجبل للنجاة بالحياة العزيزة، بالآلاف وبالملايين، ظهرت

مخلوقات من كلّ نوع: حيوانات ناطقة، أقزام، ساطيرات، فونات، مَرَدة، كالورمنيّون، آرخيانيّون، أحُاديُو قَدَم*، كائنات غيرُ برّيةٍ غريبةٌ من الجزر النائية في أراضي الغرب المجهولة. ثم هرعت هذه المخلوقات كلُّها إلى مدخل الباب، حيث كان أصلان واقفاً.

كان هذا الجزء من المغامرة هو الجزء الوحيد الذي بدا أشبه بحلم عند حصوله، والذي يكاد يصعب تذكُّره جيّداً في ما بعد. وخصوصاً أن واحداً منهم لم يكن في وسعه أن يحدّد مدّة استمراره. فأحياناً بدا أنّه دام دقائق قليلة فقط؛ ولكن أحياناً بدا أنّه ربّما استغرق سنين عديدة. ومن الواضح أنّه لم يكُن ممكناً قطُّ أن يحاول جمهورٌ بتلك الكثرة عبور ذلك الباب، إلّا إذا كان الباب قد صار أكبر بكثير أو كانت المخلوقات فجأةً قد صارت صغيرةً كالبعوض. غير أنّ أحداً منهم لم يُفكّر حينذاك في شيءٍ من هذا النوع.

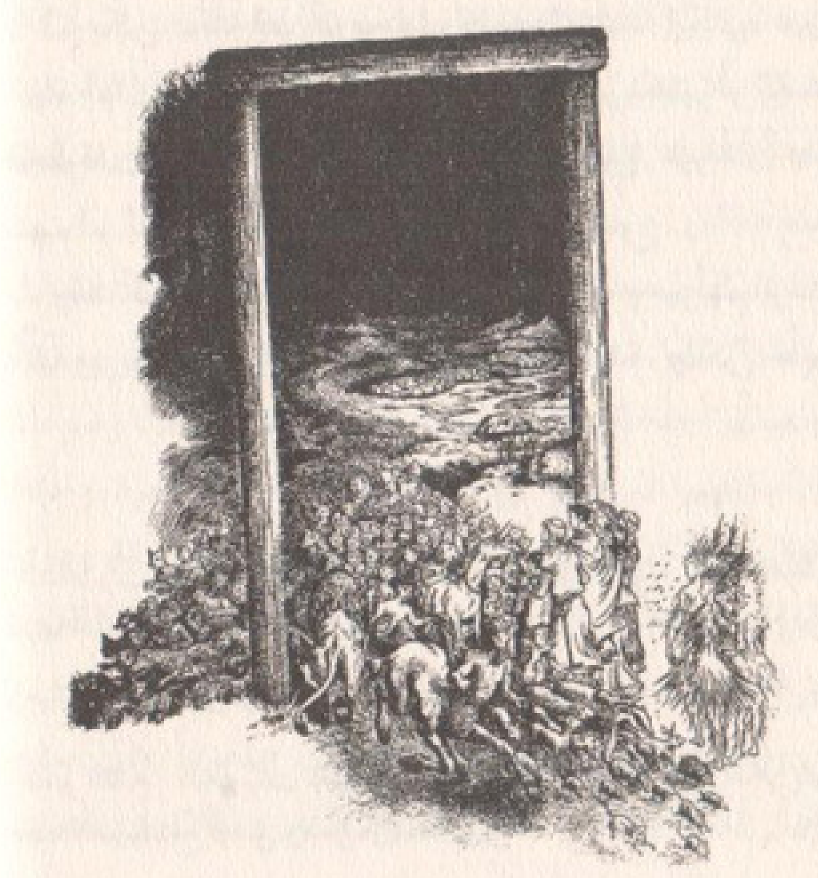
وقد أقبل المخلوقات مندفعين بسرعة، وعيونُهم تزداد تألُّقاً وبريقاً كلّما اقتربوا من النجوم الواقفة. ولكنْ حين

* الساطيرات: شخصيات تظهر في الأساطير اليونانية، وهي مشابهة للفونات لكنها أعنف وأشد. مفردها «ساطير».

آرخيانيّون: نسبة إلى آرخيا، وهي بلاد تقع إلى الجنوب من نارنيا.

أحاديو القدم: شخصيات تظهر في إحدى الجزر الشرقية التي سافر إليها الملك كاسبيان مع لوسي وإدمون ويُسطاس.

وصولهم إلى أصلان، كان يحدث لكلٍّ منهم أمرٌ واحد من أمرين. فقد نظروا كلُّهم مباشرةً إلى وجهه؛ ولستُ أظنُّ أنَّ الخيار في ذلك كان بأيديهم. وعندما نظر بعضهم، تغيَّرت تعابير وجوههم على نحوٍ رهيب مُبديةً الخوف والبغض. إلاَّ أنَّ الخوف والبغض لم يستمرّا على وجوه الحيوانات الناطقة سوى كسرٍ من الثانية. فكان يمكنك أن ترى أنَّها فجأةً توقفت عن أن تكون حيوانات ناطقة، إذ عادت مجرَّد حيوانات عاديَّة. وجميع المخلوقات الذين نظروا إلى أصلان بتلك الطريقة انحرفوا إلى يمينهم، أي إلى يسار أصلان، واختفَوا في قلب ظلّه الأسود الهائل



الذي كان ممتداً إلى البعيد عن يسار الباب (كما سبق أن عرفتَ). هؤلاء لم يَرَهم الأولادُ مرَّةً أُخرى على الإطلاق. ولستُ أدري ما حلَّ بهم. أمّا الآخرون فنظروا إلى وجه أصلان وأحبّوه، مع أنَّ بعضاً منهم كانوا مرتعبين جدّاً في الوقت نفسه. هؤلاء كلُّهم دخلوا من الباب، إلى يمين أصلان. وقد كان بينهم بعضُ النماذج الغريبة. حتَّى إنَّ يُسطاس عرف من بينهم واحداً من أولئك الأقزام أنفسهم الذين أسهموا في الرماية على الأحصنة. ولكنْ لم يتَّسع له الوقت حتَّى يتساءل عن مثل هذا الأمر (على كُلٍّ، ليس هذا شأناً من شؤونه)، لأنَّ فرحاً عظيماً طرد من رأسه كلَّ شيء آخر. وبين المخلوقات السعيدة التي احتشدت الآن حول تِريان وأصدقائه، كان جميعُ الذين حسبوهم أمواتاً. فقد كان هنالك نارذكاء القنطور، وجَوهَر أُحاديُّ القرن، والخنزير البريُّ الصالح، والدبُّ الطيِّب، وبصّار النسر، والكلاب العزيزة، والأحصنة، وغَيمان القزم.

«ابعدَ إلى الداخل وأعلى إلى فوق!» هكذا هتف نارذكاء، ثمَّ انطلق مسرعاً نحو الغرب وحوافرُه تهدر كالرعد. ومع أنَّهم لم يفهموا قصده، فقد جعلتهم كلماتُه بطريقةٍ من الطرق يشعرون بموجاتٍ من السرور تغمر كيانهم. وقد أطلق الخنزير البرِّيُّ قُباعَ تعجُّب وفرح عند سماع تلك الكلمات. وهمَّ الدبُّ بأن يُتمتِم بأنَّه ما زال غير فاهم قبلما لفتت نظرَه الأشجارُ المثمرة خلفَهم. فتهادى

نحو تلك الأشجار مُهَرولاً بأسرع ما يمكنه، وهناك – بلا شكّ – وجد شيئاً فَهِمه كثيراً جدّاً. أمّا الكلاب فقد ظلّت في مكانها وهي تحرّك أذنابها. وكذلك ظلّ غيمان يُصافح الجميع بيده، والابتساماتُ العريضة ترتسم على كامل وجهه النبيل الصادق. وأتكأ جَوهَر رأسه الأبيض بياضَ الثلج على كتف الملك تِريان، وهمس الملكُ بشيء في أذنه. وبعدئذٍ وجّه الجميع انتباههم من جديد إلى ما تُمكِن رؤيتُه من خلال الباب المفتوح.

أصبحت نارنيا الآن مرتعاً للتّنانين والسقّايات العملاقة، فصالت وجالت تقتلع الأشجار من جذورها وتسحقها سحقاً كما لو كانت عيداناً من نبات الراوَنْد الطبّيّ. وصارت الغابات تختفي دقيقةً بعد دقيقة. فأصبحت الأراضي كلُّها جرداء، وباتَ يُمكِنك أن ترى جميع التضاريس التي لم تكُنْ لتُلاحظها قبلاً، حتّى أصغر الروابي والحُفَر، ومات العشبُ كلُّه. وسرعان ما لاحظ تِريان أنّه كان ناظراً إلى عالمٍ من الصخور والأراضي الجرداء. حتّى إنّك لا تكاد تصدّق أنّه قد عاش هنالك أيُّ كائن حيّ. أمّا الوحوش الهائلة نفسها فقد شاخت وتمدّدت على الأرض وماتت. ثمّ تجعّدت أجسامُها وانكمشت حتّى برزت عظامها، وسرعان ما صارت مجرّد هياكل عظميّة ضخمة مُتناثِرة هنا وهناك على الصخور الجرداء، حيث بدت كما لو كانت قد ماتت منذ آلاف السنين. وقد عمّ السُّكون كلّ شيء وقتاً طويلاً.



أخيراً أقبل متحرّكاً نحوهم من طرف العالم الشرقيّ شيءٌ أبيض: خطٌّ مُستوٍ طويل أبيضُ اللون تألّق في ضوء النجوم الواقفة. وخرقتِ السكونَ ضجّةٌ شاملة: همهمة أوّلاً، ثمّ دمدمة، ثمّ هديرٌ مُدَوّ. وعندئذٍ استطاعوا أن يرَوا ما كان آتياً، وكم كان سريعاً. وقد كان ذلك سوراً مُزبداً من الماء. فإنّ مدَّ البحر كان طاغياً. وفي العالم الخالي من الشجر، كان يُمكِنك أن ترى ذلك جيّداً إلى أبعد حدّ. فكان يمكنك أن ترى جميع الأنهار تتوسّع والبُحيرات تكبر، والبحيرات المنفصلة تتّصل بعضها ببعض مُشكّلةً بحراً واحداً، والأودية تصير بُحيراتٍ جديدة، والجبال تنقلب جُزُراً، لتعود تلك الجُزر فتختفي هي أيضاً. أمّا أراضي المستنقعات العالية إلى يسارهم، والجبال الأعلى إلى يمينهم، فقد تفتّتت وانهارت مُحدِثةً دوياً شديداً وطرطشةً هائلة، وغرقت في المياه الطامِيَة؛ وقد وصلت المياه المُدَوّمة إلى عتبة الباب بالذات (إلّا أنّها لم تُجاوِزْها قطّ) حتّى تكسّرَ الموج وانتشر الزَبَد حول قائمتَي أصلان

الأماميَّتين. ومن ثمَّ غمرت المياه المستوية كلَّ الأراضي من حيثُ كانوا واقفين إلى حيثُ لاقتِ المياهُ الأفق.

وفي البعيد بدأ نورٌ يطلع. فإنَّ شُعاعة فجرٍ كئيب ومشؤوم انتشرت على طول الأفق، ثمَّ توسَّعت وازدادت ضياءً، حتَّى إنهم أخيراً بالكاد لاحظوا ضوء النجوم الواقفين خلفهم. وفي الأخير طلعت الشمس. ولمَّا طلعت، نظر اللورد ديغوري والليدي پولي بعضُهما إلى بعض وأومأا برأسيهما إيماءةً خفيفة. فهذان الاثنان، في عالم مختلف، شاهدا ذات مرَّة شمساً تموت، ولذلك عرفا حالاً أنَّ هذه الشمس أيضاً كانت تموت. وقد كانت أكبر ممَّا ينبغي أن تكون بثلاثة أضعاف — ثمَّ بعشرين ضعفاً — كما كانت حمراء احمراراً قاتماً جدّاً. وإذ ترامت أشعَّتها على مارد الزمان الكبير، احمرَّ هو أيضاً. وبانعكاس أشعَّة تلك الشمس، بدت خِربةُ المياهِ العديمةِ الشواطئ أشبه بالدم.

بعدئذٍ طلع القمر، في موقعه غير الصحيح تماماً، قريباً جدّاً من الشمس، وبدا هو أيضاً أحمر. وعند مرآه، أخذت الشمس تُطلِق نحوه ألسنة لهب هائلة كأنَّها شواربُ أو أفاعٍ من النيران القرمزيَّة، كما لو كانت أخطبوطاً يحاول أن يَشدَّه إليه بمجاسّه. ولربَّما جذبته إليها فعلاً. فعلى كلّ حال، أقبل إليها، على مهلٍ أوَّلاً ثمَّ بسرعة متزايدة، حتَّى التفَّت ألسنة لهبها الطويلة حوله، واندفع الاثنان معاً وصارا كرةً ضخمة واحدة كجمرة مشتعلة. وتساقطت منها كُتَل نار كبيرة في البحر فتعالَت منه غيومٌ من البخار.

ثمَّ قال أصلان: «ضَع حدّاً الآن!»

فطرح المارد بوقه في البحر. ثمَّ مدَّ عبر الفضاء ذراعاً واحدة — وقد بدت شديدة السواد وطويلةً آلافَ الكيلومترات — حتى وصلت يدُه إلى الشمس. فأمسك بالشمس وعصرها في يده كما قد تعصر أنتَ برتقالة. وفي الحال عمَّ ظلامٌ شامل تام.

عندئذٍ تراجع الجميع — ما عدا أصلان — بسرعةٍ أمام الهواء الجليديّ القارس الذي هبَّ عليهم الآن من خلال مدخل الباب الذي كانت دلّات الجليد قد غطَّت أطرافه. وقال أصلان: «يا بطرس، مَلِك نارنيا الأعلى، أغلقِ الباب!»

فمال بطرس، وهو يرتجف برداً، إلى قلب الظلام وسحب الباب ليغلقه. وإذ سحبه، حزَّ الجليدَ حزّاً. ثمَّ أخرج بطرس مفتاحاً ذهبيّاً وأقفل الباب بشيءٍ من عدم الإتقان (إذ إنَّ يديه خدرتا وازرقَّتا، ولو في تلك اللحظة القصيرة).

لقد رأوا ما كفى من الأشياء الغريبة عبر ذلك المدخل. ولكن كان أغرب أن ينظر أيٌّ منهم حواليهم فيجد أنَّهم في وضح نهارٍ دافئ، والسماءُ الزرقاء فوق رؤوسهم، والزهور عند أقدامهم، وعينا أصلان تضحكان. ثمَّ دار أصلان بسرعة، وخفض جسمَه قليلاً، وضرب جنبَيه بذيله، وانطلق إلى الأمام كسهمٍ ذهبيّ.

وأمال رأسه قليلاً لينظر من فوق كتفه ويصيح بهم: «هيّا إلى الداخل أبعد! هيّا إلى فوقُ أعلى!» ولكنْ من

يستطيع أن يُجاريَه في سرعته؟ وهكذا مضَوا سائرين نحو الغرب كي يتبعوه.

ثمَّ قال بطرس: «إذاً، هوذا الليل يهبط على نارنيا. عجباً، يا لوسي! إنّكِ لن تبكي، ما دام أصلان يتقدَّمنا، وكلُّنا هنا؟»

فردَّت لوسي: «لا تحاول مَنعي، يا بطرس! أنا متأكّدة أنَّ أصلان لن يمنعني. أنا متأكّدة أنّه ليس خطأً أن أبكي على نارنيا. فكِّر في كل ما ينطرح ميْتاً ومتجمِّداً وراء ذلك الباب».

وقالت جِلّ: «نعم، إنّني كنت أتمنّى فعلاً لو تدوم إلى الأبد. أنا أعرف أنَّ عالمنا نحن لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. لكنّني حسبتُ فعلاً أنَّ نارنيا ستدوم».

فقال اللورد ديغوري: «أنا شاهدتُ بداية نارنيا. ولم أحسب أنّني سأعيش حتّى أشهد موتها».

ثمَّ قال تِريان: «سادتي، يحسن بالليديات أن يبكين. انظروا، أنا نفسي أبكي. لقد شاهدتُ أُمّي تموت. وأيَّ عالمٍ عرفتُ سوى نارنيا؟ فليس من الفضيلة، بل من عدم اللياقة الشديد، ألّا نبكي!»

ومضَوا مُبتعدين عن الباب وعن الأقزام الذين كانوا ما يزالون محتشدين معاً في إسطبلهم الوهميّ. وبينما هم سائرون حدَّثوا بعضُهم بعضاً عن الحروب القديمة والسِّلم القديم والملوك القدامى، وعن أمجاد نارنيا كلِّها.

وكانت الكلاب ما تزال معهم، فشاركت في الحديث،

إنّما ليس كثيراً، لأنّها انشغلت جدّاً بالركض إلى الأمام والركض إلى الوراء، وبالاندفاع كي تتشمَّم الروائح في العشب حتّى أخذت تعطس. وفجأةً شمَّ الكلاب رائحةً بدا أنّها أثارتهم كثيراً جدّاً، فأخذوا يتجادلون بشأنها: «نعم، هي هي... لا، ليست هي إيّاها... ذلك هو ما قلتُه تماماً... أيُّ واحد يمكن أن يستشمَّ حقيقة تلك الرائحة... أبعِد أنفك الكبير جانباً وأخلِ الطريق ودَع غيرك يتشمَّم».

وسأل بطرس: «ما هي، يا أبناء العمّ؟»

فقال بضعة كلابٍ فوراً: «إنّها رائحة كالورمنيّ، يا مولانا!»

فقال بطرس: «إذاً، أرشدونا إليه! وسواءٌ لاقانا مسالماً أو محارباً، ينبغي أن نُرحِّب به».

إذ ذاك اندفعت الكلاب إلى الأمام كالسهام، ورجعت بعد وقتٍ قصير وهي تركض كما لو كانت حياتها تتعلّق بذلك الأمر، نابحةً نباحاً عالياً، لتقول إنّه بالحقيقة كالورمنيّ. (والكلاب الناطقة، مثلُها مثل الكلاب العاديّة، تتصرَّف كما لو كانت تعتقد أنَّ ما تعمله في اللحظة الحاضرة، مهما كان، هو مهمٌّ أهميّةً كُبرى.)

وتوجَّه الآخرون إلى حيثُ دلَّتهم الكلاب، فوجدوا كالورمنياً شاباً قاعداً تحت شجرة كستناء، قربَ جدولِ ماءٍ صافٍ. وكان هو إيميث. وقد نهض حالاً وانحنى بوقار ثمَّ قال لبطرس:

«سيِّدي، لا أدري أصديقي أنت أم عدوِّي. ولكنِّي أعتبره شرفاً عظيماً أن تكون هذا أو ذاك. ألم يقُل أحد الشعراء إن الصديق الشريف هو أعظم هبة وإنَّ العدوَّ الشريف هو تالي أعظم هبة؟»

فقال بطرس: «سيِّدي، لا أعرف بوجود داعٍ لنشوب حرب بينك وبيننا».

وقالت جِلّ: «هلَّا تخبرنا مَن أنت وماذا جرى لك!»

فهَبهبتِ الكلاب: «إن كان من قِصَّةٍ تُحكى، فلنشربْ كلُّنا شربةً ونقعد. لقد هدَّنا التعب».

وقال يُسطاس: «حسناً، لا بدَّ أن يهدَّكم التعب إذا ظَلَلتم تروحون وتجيئون بسرعة كما كنتم تفعلون!»

وهكذا قعد الآدميُّون على العشب. وبعدما شربت الكلاب كلُّها شربة صاخبة جدّاً من الجدول، جلست جميعاً مستقيمةً تماماً وهي تلهث وألسنتها مُدَلاَّةٌ من رؤوسها قليلاً إلى ناحيةٍ واحدة كي تسمع القصَّة. ولكنْ جَوهَر ظلَّ واقفاً وهو يصقل قرنه على جنبه.

الفصل الخامس عشر

أبعد إلى فوق وأبعد إلى العُمق

قال إيميث: «اعلموا أيُّها الملوك المحارِبون، وأنتنَّ أيَّتها السيِّداتُ اللواتي يُضيء جمالهنَّ الكون، أنَّني أنا إيميث، الابنُ السابع لِحِرْفة طَرْقان مدينة طيهِشبان الواقعة إلى الغرب ما وراء الصحراء. وقد جئتُ مؤخَّراً إلى نارنيا مع تسعةٍ وعشرين آخرين تحت إمرة رِشدَة الطَّرقان. ولمَّا سمعتُ أوَّلاً أنَّه ينبغي لنا أن نزحف على نارنيا، ابتهجتُ؛ لأنَّني كنتُ قد سمعتُ بأمورٍ كثيرة عن بلدكم وتشوَّقت جدّاً لمنازلتكم في المعركة. ولكنْ عندما تبيَّن لي أنَّ علينا أن ندخل بلدكم متنكِّرين بزيِّ تجَّار (وهو لباسٌ مُخجِل لمحاربٍ وابنِ طَرْقان) وأن نقوم بعملنا بواسطة الأكاذيب والاحتيال، عندئذٍ فارقتني بهجتي. وأكثر الكلِّ حين تبيَّن لي أنَّ علينا أن نكون في خدمة قرد، وحين بدأ يُقال إنَّ طاش وأصلان واحد، حينئذٍ اسودَّت الدنيا في عينيَّ. ذلك أنَّني منذ صِغري تعبَّدت لطاش، وقد كانت أُمنيتي

الكبرى أن أتعرَّف به أكثر وأن أنظر وجهه إذا تيسَّر لي ذلك. غير أنَّ اسم أصلان كان مكروهاً عندي.

«ومثلما رأيتم، دُعينا ليلةً بعد أُخرى للاجتماع خارج الزريبة المسقوفة بالقشّ، وأُضرِمت النار، وأُخرج القرد من الزريبة شيئاً على أربع أرجُل لم أستطع رؤيته جيِّداً. وانحنى الآدميُّون والبهائم ساجدين له، وكرَّموه. ولكنَّني خمَّنتُ أنَّ القرد خدع الطَّرقان: لأنَّ ذلك الشيء الذي خرج من الإسطبل ليس هو طاش ولا أيَّ إله آخر. إنَّما حين تأمَّلت وجه الطَّرقان، وراقبتُ كلَّ كلمة قالها للسعدان، حينئذٍ غيَّرت رأيي: إذ تأكَّد لي أنَّ الطَّرقان نفسه لم يؤمن بذلك. ثمَّ أدركتُ أنَّه لم يؤمن بطاش قطّ: وإلَّا فكيف تجرَّأ على السخرية به؟

«ولمَّا أدركت ذلك استولى عليَّ سخط شديد، وتعجَّبتُ من عدم مبادرة طاش الحقيقيّ إلى ضرب السعدان والطرقان كليهما بنارٍ تنزل من السماء. غير أنَّني كظمتُ غيظي وضبطتُ لساني وانتظرت لأرى كيف تكون النهاية. ولكنِ البارحةَ — كما يعلم بعضُكم — لم يُخرِج السعدان الشيءَ الأصفر، بل قال إنَّ الذين يرغبون في إلقاء نظرة على طشلان (هكذا رُكِّبت كلمةٌ واحدة من كلمتين تظاهُراً بأنَّهما شخصٌ واحد) ينبغي لهم أن يعبروا إلى الزريبة واحداً واحداً. فقلتُ لنفسي: لا شكَّ أنَّ هذه خُدعة أخرى. ولكنْ لمَّا دخل الهرُّ ثمَّ خرج مرعوباً مسعوراً، قلتُ لنفسي: يقيناً أنَّ طاش الحقيقيَّ الذي دعَوا إليه بغير

علم ولا إيمان قد جاء إلى ما بيننا، وسوف ينتقم لنفسه. ولئنِ استولى عليَّ الخوف الشديد بسبب عظمة طاش ورعبه، فقد كانت رغبتي أقوى من خوفي؛ فشدَّدتُ ركبتيَّ حتَّى لا ترتجفا وأطبقتُ أسناني حتَّى لا تصطكَّ، وعقدتُ عزمي على رؤية وجه طاش ولو قتلني. وهكذا عرضتُ أن أدخل بنفسي إلى الزريبة؛ فأذِن لي الطرقان بذلك بعد مُمانَعة.

«وما إن دخلتُ من الباب حتَّى كان أوَّل أمر عجيب أنَّني وجدتُ نفسي في ضوء الشمس هذا الساطع (الذي نحن كلُّنا فيه الآن) مع أنَّ داخل الزريبة كان قد بدا مظلماً من خارجها. ولكنْ لم يتَّسع لي الوقت حتَّى أتعجَّب من ذلك، لأنَّني أُجبِرتُ في الحال على مُقاتلة واحدٍ من رجالنا كي أُنقِذ رأسي. وحالما رأيتُ الرجُل أدركتُ أنَّ السَّعدان والطَّرقان قد أقاماه هناك كي يقتل أيَّ شخصٍ يدخل من غير المشاركين في خديعتهما: وهكذا كان ذلك الرجل أيضاً كذَّاباً ومستهزئاً، وليس عبداً وفيّاً لطاش. فباتت رغبتي في مقاتلته أشدّ. وبعد أن قتلتُ ذلك الوغد، طرحتُه إلى الخارج ورائي من خلال الباب.

«ثمَّ نظرتُ حواليَّ فرأيتُ السماء والأراضي الفسيحة، وشمَمتُ رائحة الجوّ العطِرة. فقلتُ: وحقِّ الآلهة، هذا نعيم: لعلِّي جئتُ بلَد طاش. ثمَّ بدأت أجول في البلد الغريب وأُفتِّش عنه.

«وهكذا مشيتُ فوق كثير من العُشب والزَّهر، وبين كلِّ نوع من الشجر الطيِّب المُبهج، إلى أن شاهدتُ — ويا

للعجب! – في مكانٍ ضيّق بين صخرتين أسداً عظيماً مُقبِلاً للقائي. وقد كانت سرعته كسرعة النعامة، وحجمه بحجم فيل. وكان فروُه كالذهب النقيّ، وبريق عينيه كذهبٍ سائل في الكُور*. ولقد كان أكثر رعباً من جبل لاغور الملتهب. أمّا في الجمال فقد فاق كلَّ ما في العالم، مثلما يفوق الوردُ المُتفتّحُ رمالَ الصحراء.

«عندئذٍ سقطْتُ عند أقدامه قائلاً لنفسي: حتماً هذه ساعة الموت، لأنَّ الأسد (المستحقّ كلَّ إكرام) لا بدَّ أن يعرف أنّني تعبّدت كلَّ أيّام حياتي لطاش، وليس له هو. ومهما يكن، فأن أرى الأسد وأموت خيرٌ من أن أكون سلطانَ العالم كلّه وأعيش بغير أن أكون قد رأيته. غير أنَّ ذلك المجيد حنى رأسه الذهبيَّ ومسَّ جبيني بلسانه وقال: 'بُنيَّ، أهلاً بك ومرحبا!' ولكنّني قلت: 'واحسرتاه، يا سيّد! أنا لستُ ابناً لك، بل أنا عبدَ لِطاش.' فأجاب: 'ولدي، إنَّ الخدمة التي قدّمتها لطاش أحسبُها كُلَّها خدمةً مُقدَّمةً لي.' وعندئذٍ، بسببٍ من رغبتي الشديدة في الحكمة والفطنة، تغلّبتُ على خوفي وساءلتُ ذلك المجيد قائلاً: 'ربّي، أصحيحٌ إذاً، كما قال القرد، إنكَ أنت وطاش واحد؟' إذ ذاك زمجر الأسد حتّى تزلزلتِ الأرض (ولكنَّ غضبه لم يكُن عليَّ) وقال: 'هذا كذِبٌ! وليس لأنّني أنا وإيّاه

* الكور: فرن لإحماء المعادن وصهرها.

واحد، بل لأنّنا ضدّان، أحسبُ في حسابي الخدماتِ التي أدّيتها له. ذلك أنّنا أنا وهو مختلفان تماماً بنَوعينا بحيث لا يمكن إطلاقاً أن تُؤدّى لي أيّة خدمة تكون فاسدة، ولا يمكن أن تؤدّى له أيّة خدمة لا تكون فاسدة. وعليه، فإذا أقسم أيُّ إنسانٍ بطاش وبرَّ بقسمه حفاظاً على كلمته، فإنّما بي أنا يكون قد أقسم حقّاً، وإن كان لا يدري، وأنا مَن يُكافئُه. وإذا ارتكب أيُّ إنسان إساءةً باسْمي، فعندئذٍ – رُغم تلفُّظه باسْم أصلان – لِطاش يكون مُتعبّداً، وطاشُ يتقبّل فِعلَته. أتفهمُ هذا، يا بُنيّ؟' إذ ذاك قُلتُ: 'ربّي، أنت تعلم كم أنا أفهم.' ولكنّني قلتُ أيضاً (لأنَّ الحقَّ ألزمني): 'غير أنّني طالما طلبتُ طاش طولَ عمري.' فقال لي المجيد: 'حبيبي، لو لم يكُن شوقُك إليَّ أنا ما كنتَ بحثتَ طويلاً وبإخلاصٍ كما بحثت. فإنَّ الجميع يجدون ما يطلبونه حقّاً.'

«بعدئذٍ نفخ عليَّ بنَفَسِه، وأزال الارتجاف من أوصالي، وجعلني أقف على قدميّ. ومن ثَمّ لم يقُلِ الكثير، ما عدا قوله إنّه لا بدَّ أن نلتقي مرّةً أُخرى، وإنَّ عليَّ أن أمضي أبعدَ إلى فوقُ وأبعدَ إلى العمق. ثمّ دوّم في عاصفةٍ وزوبعةٍ من ذهب، واختفى فجأةً!

«ومنذ ذلك الحين، أيّها الملوك والسيّدات، ما زلت أجول باحثاً عنه، وسعادتي عظيمةٌ جدّاً حتّى إنّها تُضعِفني كجُرح. وهذه عجيبة العجائب: أنّه دعاني 'حبيبي' مع أنّي لستُ إلّا مثلَ كلب..».

عندئذٍ قال أحدُ الكلاب: «إه؟ ماذا قُلت؟»

أجاب إيميث: «سيِّدي، ما هذا إلَّا تعبيرٌ مجازيٌّ عندنا في كالورمِن».

فقال الكلب: «حسناً، إنَّما لا يمكنني أن أقول إنَّه تعبير يعجبني كثيراً».

وقال كلبٌ أكبر سنّاً: «إنَّه لا يقصد أيَّة إساءة. وبعد، ألَسنا ندعو نحن جِراءنا صبياناً عندما تسلك سلوكاً سيِّئاً؟»

فردَّ الكلب الأوَّل: «بلى، هكذا ندعوها، أو ندعوها بنات».



فقال الكلب الكبير السنّ: «هُسّ! ليس حسناً أن تستخدم هذه الكلمة. تذكَّر أين أنت».

وفجأةً قالت جِلّ: «انظروا!» إذ كان شخصٌ ما — بكثيرٍ من التمهُّل — مُقبِلاً لمُلاقاتهم: حيوانٌ ظريف على أربع أقدام ذو لونٍ رماديٍّ فضّيّ. فحدَّقوا إليه عَشرَ ثوانٍ كاملة قبل أن تهتف خمسةُ أصواتٍ أو ستَّةٌ معاً: «عجباً، إنَّه لَغُزان العجوز!» ولم يكونوا قد رأوه قطُّ في وضح النهار دون جِلد الأسد، فكان الفرق فائقاً. إذْ كان هو نفسَه الآن: حماراً جميلاً ذا كساءٍ رماديٍّ ناعم جدّاً، ووجهٍ شريفٍ لطيفٍ لو رأيته لفعلْتَ تماماً ما فعلَتْه جِلّ ولوسي: إذ تندفعُ حالاً إلى الأمام وتُطوِّق عُنقه بذراعيك وتُقبِّل أنفه وتُربِّت أُذنَيه.

ولمّا سألوه أين كان قال إنَّه دخل من الباب مع جميع المخلوقات الأخرى، إلَّا أنَّه — والحقُّ يُقال — ظلَّ مبتعداً عن طريقهم بقدر ما أمكنه؛ ومبتعداً عن طريق أصلان أيضاً: لأنَّ منظر الأسد الحقيقيّ جعله يخجل كثيراً من كلّ تلك التفاهة التي تمثَّلت في ارتدائه جِلدَ أسد بحيث لم

يدرِ كيف ينظر في وجه أيِّ كائنٍ آخر. غير أنَّه لمَّا رأى أنَّ جميع أصدقائه كانوا يبتعدون نحو الغرب، وبعدما تناول قضمةً أو قضمتين من العُشب ملءَ فمه (وقد قال: «وما ذقتُ في حياتي قطُّ عُشباً طيِّباً بهذا المقدار!») استجمع شجاعته ولحق بهم.

وبعد هُنيهةٍ أضاف لَغزان: «ولكنَّني متأكّد أنَّني لا أدري ما سأفعله إذا كان عليَّ فعلاً أن أُقابِل أصلان».

فقالت الملكة لوسي: «سيتبيَّن لك أنَّ كلَّ شيء سيكون على ما يُرام عندما تُقابله فعلاً».

ثمَّ تقدَّم الجميع معاً، نحو الغرب دائماً، لأنَّ ذلك بدا الاتِّجاهَ الذي قصده أصلان إذ هتف: «أبعدَ إلى فوق، وأبعد إلى العُمق». وقد كانت مخلوقات كثيرةٌ أُخرى تتحرَّك ببطءٍ في الاتِّجاه ذاته، غير أنَّ مروج العشب كانت فسيحةً جداً ولم يحصل أيُّ ازدحام.

وكان الوقت ما يزال يبدو باكراً جداً، وإنعاش الصباح يملأ الهواء. فظلُّوا يتوقَّفون ليتطلَّعوا حوالَيهم ويلتفتوا إلى ورائهم، جُزئيّاً لأنَّ المنظر كان خلاَّباً جداً، إنَّما جزئيّاً أيضاً لأنَّه كان في الأمر شيءٌ لم يستطيعوا أن يفهموه.

وسألت لوسي: «بطرس، أينَ نحنُ حسبَ ظنِّك؟»

فأجاب الملك الأعلى: «لستُ أدري! هذا المكان يُذكِّرني بمكانٍ ما ولكنَّني لا أقدر على تسميَته. أيُمكِن أن يكون مكاناً معيَّناً قضينا فيه عُطلةً ذاتَ مرَّة لمَّا كنَّا صغاراً جداً جداً؟»

وقال يُسطاس: «لا بدَّ أنَّها كانت عطلة رائعة جداً. أنا على يقينٍ بأنَّه ليس في أيِّ مكان من عالمنا أيُّ ريف كهذا. انظروا الألوان الزاهية! فليس بالإمكان الحصول في عالمنا على زُرقةٍ مثل الزُّرقة التي تُكلِّل تلك الجبال!»

وسأل تِريان: «أليس هذا بَلَدَ أصلان؟»

فقالت جِلّ: «ليس مثلَ بلد أصلان على قمَّة ذلك الجبل الواقع وراءَ الطَّرَف الشرقيِّ من العالم. فأنا ذهبتُ إلى هُناك مرَّة».

وقال إدمون: «لو سألتموني لقُلتُ إنَّه يُشبِه مكاناً ما في عالم نارنيا. انظروا تلك الجبال أمامنا، والجبال الجليديَّة الكبيرة وراءها. أليس أكيداً أنَّها أشبه بالجبال التي كنَّا نراها من نارنيا، تلك الواقعة وراء الشلاَّل في أعلى الغرب؟»

فأجاب بطرس: «نعم، هي كذلك. إلَّا أنَّ هذه أكبر».

وقالت لوسي: «لا أعتقد أن تلك تُشبِه كثيراً أيَّ شيء في نارنيا». ثم أضافت وهي تُشير بيدها إلى جهة الجنوب عن يسارهم: «إنَّما تطلَّعوا هناك!» فتوقَّف الجميع والتفتوا، فيما تابعت لوسي: «تلك الجبال، المُغطَّاةُ منها بالغابات الجميلة والزرقاءُ التي وراءها، ألا تُشبِه كثيراً حدود نارنيا الجنوبيَّة؟»

وبعد لحظةِ صمتٍ قال إدمون: «تُشبِه؟ عجباً، إنَّها مثلُها تماماً! انظروا، ذلك هو جبل پاير بقمَّته المُنشعِبة، وذلك هو

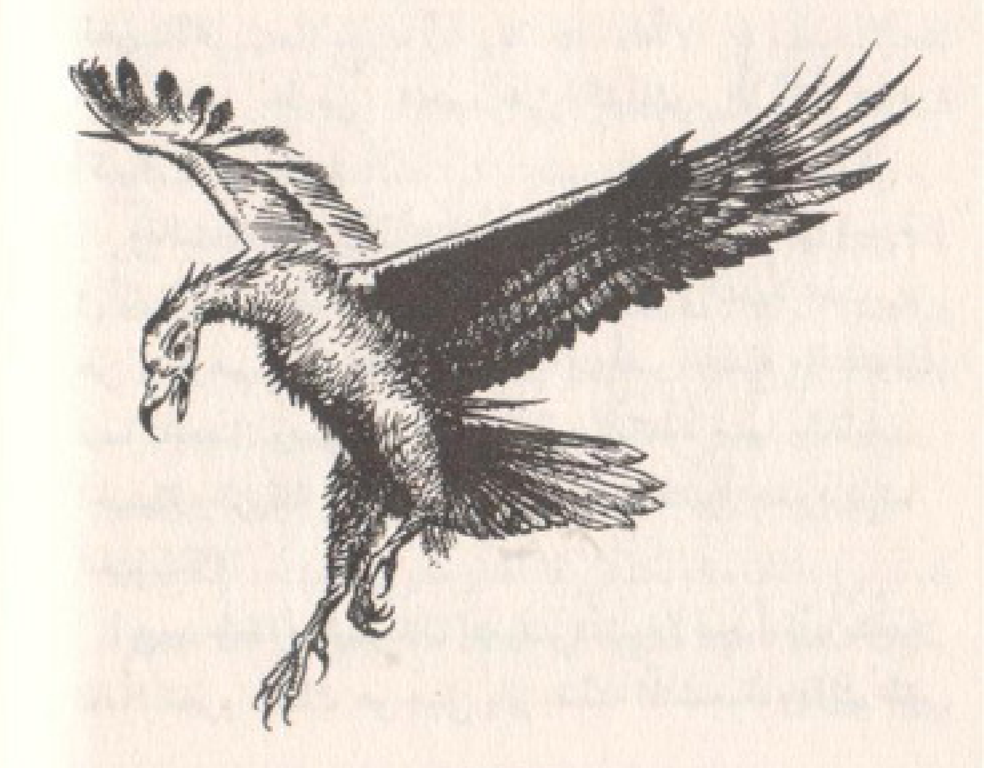
المعبر إلى بلاد آرخيا، وكلُّ شيءٍ موجودٌ!»

فقالت لوسي: «ومع ذلك، فهذه لا تُشبه تلك، بل تختلف عنها. فإنَّ على هذه الجبال مزيداً من الألوان، وهي تبدو أبعد بكثير مما أتذكَّر، ثُمَّ إنها أكثر... أكثر... آه، لستُ أدري..».

وقال اللورد ديغوري: «أكثرُ شبهاً بالأصل الحقيقيّ!».

وفجأةً نشر بصّارٌ النسرُ جناحيه، وحلَّق في الهواء على ارتفاع عشرة أمتار أو خمسة عشر متراً، ثمَّ حوَّم قليلاً، ثمَّ حطَّ على الأرض وهتف:

«أيُّها الملوك والملكات، لقد كُنّا جميعُنا عمياناً! وها قد بدأنا نرى أين نحن مجرَّدَ بداية. فمن فوقُ هناك، رأيتُ



كلَّ شيء: سبخة أتّنز، وسدَّ السمامير، والنهر الكبير، وكيرپراڤيل، وكلُّها ما تزال تتألَّق عند حافة البحر الشرقيّ. إنَّ نارنيا لم تَمُت. فهذه هي نارنيا!»

فقال بطرس: «ولكنْ كيف يمكن أن يكون هذا؟ فإنَّ أصلان قال لنا، نحن الأكبرَ سناً، إنّنا لن نرجع إلى نارنيا أبداً، وها نحنُ هُنا!»

وقال يُسطاس: «نعم، وقد رأيناها كلَّها تُدمَّر والشمسَ تُخمَد». وقالت لوسي: «وهي كلُّها مختلفة جدّاً».

فقال اللورد ديغوري: «النسر على حقّ. اسمَع، يا بطرس. لمّا قال أصلان إنكم لا تقدرون أن ترجعوا إلى نارنيا أبداً، فقد قصد نارنيا التي كنتم تُفكِّرون فيها. غير أنَّ تلك لم تكن نارنيا الحقيقيَّة. فتلك كانت لها بدايةٌ ونهاية. وقد كانت مجرَّد ظلٍّ أو نسخة عن نارنيا الحقيقيَّة التي طالما وُجِدت هنا دائماً وستظلُّ هُنا أبداً: تماماً مثلَ كون عالمنا نحن — إنكلترة وسواها — مُجرَّدَ ظلٍّ أو نسخة عن شيءٍ ما في عالَم أصلان الحقيقيّ. فلا داعيَ للبكاء على نارنيا، يا لوسي. فكلُّ ما يهمُّ من نارنيا القديمة، كلُّ المخلوقات العزيزة، كلُّ ذلك جُذِب إلى داخل نارنيا الحقيقيَّة من خلال الباب. وهذه بالطبع مختلفةٌ، كاختلاف الأصل الحقيقيّ عن ظِلِّه، أو كاختلاف حياة اليقظة عن حلمٍ من الأحلام».

وبينما هو ينطق بهذه الكلمات وقَع صوتُه على الجميع وَقْعَ البوق. ولكنْ لمّا أضاف هامساً: «هذا كلُّه واردٌ عند

أفلاطون، كلُّه عند أفلاطون: تُرى، ماذا يُعلِّمهم المعلّمون في هذه المدارس؟» ضحك مَن هم أكبر سنّاً. فقد كان قوله هذا تماماً من نوع تلك الأقوال التي سبق أن سمعوه يقولُها من زمانٍ طويل في ذلك العالم، حيث كانت لحيته شيباء، لا شقراءَ ذهبيّة. وعرف سبب ضحكهم، فشاركهم هو أيضاً في الضحك. إلّا أنّهم عادوا كلُّهم إلى الرصانة بسرعةٍ كبيرة: لأنَّ هناك – كما تعرف – نوعاً من السعادة والعَجَب يجعلك رصيناً؛ فإنّه أجوَدُ من أن تُضيِّعه بالتنكيت.

يصعب عليَّ أن أشرح لك كيف كانت هذه البلاد التي تُشرق عليها الشمس مختلفةً عن نارنيا القديمة كما يصعب أن أصِفَ لك طعم فاكهة تلك البلاد. فربّما تتكوَّن لديك فكرةٌ ما عنها إذا فكَّرت على هذا النحو: تصوَّرْ أنّك كنتَ في غرفةٍ لها نافذةٌ تطلُّ على خليج بحريٍّ جميل أو وادٍ أخضر يتعرَّج دونك بين الجبال. وتصوَّرْ أنَّ على حائط الغُرفة، مُقابِل النافذة، مِرآة. فإذ تُحوِّل نظرك عن النافذة تلمح فجأةً منظر ذلك البحر، أو ذلك الوادي، كلّه من جديد في المرآة. وعندئذٍ يكون البحر في المرآة، أو الوادي في المرآة، بمعنىً من المعاني، مِثْلَ الأصل تماماً. ومع ذلك ففي الوقت عينه تكون الصورة مختلفةً بطريقةٍ من الطُرق عن الأصل، إذ يبدو الأصل أكثر عمقاً وروعةً وشبهاً بأماكن في قصّة... في قصّةٍ لم تسمعها قطُّ ولكنّك ترغب رغبة شديدة جدّاً في معرفتها.

فالفرق بين نارنيا القديمة ونارنيا الجديدة شبيهةٌ بذلك. ذلك أنَّ الجديدة كانت بلاداً أعمق، حيث بَدَت كلُّ صخرةٍ وزهرة وورقةِ عشب كما لو كانت تعني أكثر ممّا تعنيه عادةً.

لا يمكنني أن أصف تلك البلاد بطريقةٍ أفضل ممّا وصفتُها. فإذا حدث مرّةً أن ذهبتَ إليها، تعرفُ ما أقصده حتماً.

وكان أُحاديُّ القرن هو الذي لخّص ما شعر به الجميع. فإنّه ضرب الأرض بحافره الأماميّ الأيمن، وصهل، ثمّ هتف:

«ها قد وصلتُ إلى موطني أخيراً! هذه هي بلادي الحقيقيّة! إلى هُنا أنتمي. هذه هي البلاد التي طالما تشوَّقتُ إليها كلَّ حياتي، رغمَ أنّي لم أعرفْها قطُّ قبل الآن. فإنَّ سبب محبّتنا لنارنيا القديمة هو أنّها بدت أحياناً شبيهةً بهذه قليلاً. ابري – هِي – هِيه! لنصعدْ أبعدَ إلى فوق، ولندخلْ أبعد إلى العُمق!»

ثمّ نفَض عُرفَه وانطلق إلى الأمام في عَدْوةٍ عظيمة... هي عدْوةُ أُحاديّ قَرنٍ لو عداها في عالمنا لجعلته يتوارى عن الأنظار في لُحيظات. ولكنْ آنذاك حدث أمرٌ فائق الغرابة، إذ بدأ الآخرون كلُّهم يركضون. ولَشدَّ ما أدهشهم أنّهم تنبّهوا إلى كونهم قادرين على مُجاراته: ليس فقط الكلاب والبشر، بل أيضاً لَغزان الضئيل السمين وغيمان القزم القصير الرِّجلين. وقد هبَّ الهواء على وجوههم كما

لو كانوا منطلقين بسرعة في سيّارة ليس فيها زجاجٌ أماميّ يقيهم الريح. وأخذ الريف يتوارى بسرعة كما لو كانوا ينظرون إليه من نوافذِ قطارٍ سريع. وقد تضاعفت سرعتُهم شيئاً فشيئاً، غير أنّ أيّا منهم لم يشعر بالسخونة أو التعب أو انقطاع النَفَس.

الفصل السادس عشر

وداعاً لأراضي الظِّلال

إذا كان في وسع المرء أن يركض بغير أن يتعب، فلستُ أعتقد أنّه يرغب غالباً في القيام بأيّ شيءٍ سوى الركض. ولكنْ قد تطرأ أسبابٌ خاصّة تجعل المرء يتوقّف. وقد كان سبباً خاصّاً ما جعل يُسطاس يصرخ: «انتبهوا! قفوا! انظروا إلى أين نحن مُتّجهون!»

وقد كان معذوراً بالفعل. إذ إنّهم رأوا الآن قُدّامهم بِركةَ المِرجَل ووراءها جروف الصخر العالية التي يتعذّر تسلّقها، وآلاف الأطنان من الماء تندفع كلَّ ثانية إلى الأسفل، برّاقةً كالماس في بعض الأماكن وقاتمةً كالزجاج الأخضر في أماكن أُخرى، حيث الشلاّل العظيم، وهديرُه قد بات يطرق مسامعهم. إلاّ أنّ بصّاراً ناداهم، وهو يميل بطيرانه صعوداً بعض الشيء، قائلاً: «لا تتوقّفوا! أبعدَ إلى فوق، وأبعدَ إلى العمق!»

فقال يُسطاس: «الأمر كلُّه حسنٌ جدّاً بالنسبة إليه هو!»

ولكنّ جَوهَر أيضاً صاح بهم: «لا تتوقّفوا! أبْعدَ إلى

فوق، وأبْعدَ إلى العمق! أقدِموا ولا تتردَّدوا».

وبالكادّ سُمع صوتُه وسط هدير المياه. ولكنْ في اللحظة التالية خاض مياه البركة، ووراءه — باندفاعٍ وعجلةٍ ضاجَّة وطرطشة بعد طرطشة — حذا الآخرون حذْوَه. ولم تكن المياه باردةً على نحوٍ قارس كما توقَّعوا كلُّهم (ولا سيَّما لَغْزان)، بل كانت ذات برودة مُزبِدة مُسعِدة. وتبيَّن لهم جميعاً أنَّهم يسبحون مباشرةً نحو الشلاَّل نفسه مباشرةً.

عندئذٍ قال يُسطاس لإدمون: «هذا جنونٌ صِرْف!»

فقال إدمون: «أعرِف. ومع ذلك..».

إنَّما قالت لوسي: «أليس هذا رائعاً؟ هل لاحظتُم أنَّ الواحد لا يمكن أن يشعر بالخوف حتَّى لو أراد ذلك؟ جرِّبُوا الأمر!»

فجرَّب يُسطاس ذلك ثمَّ قال: «عجباً، لا أحد يمكن أن يخاف هنا!»

ثمَّ وصل جَوهَر إلى أسفل الشلاَّل أوَّلاً، ولكنَّ تِريان كان وراءه تماماً، فيما كانت جِلّ الأخيرة، وهكذا استطاعت أن ترى المشهد كلَّه أفضل ممَّا رآه الآخرون. فقد شاهدَت شيئاً أبيض يتحرَّك بثبات صاعداً على سطح الشلاَّل. وكان ذلك الشيءُ الأبيض هو أُحاديّ القرن. ولم يكن ممكناً أن تُحدِّد هل كان يسبح أو يتسلَّق، غير أنَّه كان يتحرَّك صعوداً أعلى فأعلى. وقد شقَّ رأسُ قرنه المياهَ فوق رأسه بقليل فانهمرت في جدولَين ملوَّنين بألوان قوس قُزح حوالَي كتفَيه. ووراءه تماماً اندفع الملك تِريان، محرِّكاً

رجليه وذراعيه كما لو كان يسبح، غير أنَّه كان يتحرَّك صعوداً بخطٍّ مستقيم وكأنَّ في وسع المرء أن يسبح لتسلُّق حائطَ بيت!

وما بدا الأكثرَ إضحاكاً كان الكلاب. ففي أثناء الركض لم تنقطع أنفاسها قطّ. أمَّا الآن، وهي تتسلَّق وتتلوَّى صعوداً، فقد حصل بينها كثيرٌ من الطرطشة والعطس. وسبب ذلك أنَّها لم تكفَّ عن النباح، وكلَّما نبحت امتلأت أفواهها وأُنوفُها ماءً. ولكنْ قبل أن يُتاح لجِلّ أن تُلاحظ هذه الأمور كلَّها ملاحظة دقيقة، كانت هي نفسها تصعد الشلاَّل. وقد كان ذلك نوعاً من الأمور التي تكون مستحيلةً تماماً في عالمنا. فحتَّى لو لم تغرق، لَكُنتَ تقطَّعتَ إرْباً إرْباً على الصخور المسنَّنة ذات النتوءات التي لا يُحصى عددها، تحت ثقل المياه الهائل. ولكنْ في ذلك العالم يمكنك أن تفعل ذلك: أن تصعد أعلى فأعلى وكلُّ أنواع الأنوار المتكسِّرة تبرق عليك من المياه، والأحجارُ الملوَّنة من كلِّ شكل تتوهَّج الأنوار من خلالها، حتَّى يبدو أنَّك تتسلَّق النورَ نفسه، وأنت ترتفع دائماً أعلى فأعلى إلى أن يُروِّعك إحساسُ الارتفاع إن كان مُمكِناً ترويعُك، ولكنْ هُنا كان كلُّ شيء مُبهجاً إلى آخِر حدّ وعلى نحوٍ مجيد تماماً. وفي الأخير تصل إلى أعلى المُنحنى الأخضر الناعم الظريف الذي منه تنصبُّ المياه من فوق حافة الشلاَّل، لتجد أنَّك على النهر المستوي فوق الشلاَّل. وإذا بالتيَّار المائيّ يتباعد وراءك بسرعةٍ هائلة، إلَّا أنَّك سبَّاح ماهر جدّاً

بحيث يمكنك أن تجري بعكس التيّار إلى الأمام.

وسرعان ما وصل الجميع إلى ضفّة النهر، وكان الماء يتقطّر منهم، ولكنّهم كانوا في غاية السعادة. وقد انبسط أمامهم وادٍ طويلٌ، وارتفعت تُناطح السحابَ جبالٌ عظيمة (صارت الجبال أقربَ إليهم) مُكلّلة بالثلوج.

وإذ صاح بهم جَوهَر: «أبعدَ إلى فوق، وأبعد إلى العمق!» ففي الحال استأنفوا مسيرتهم.

وما لبثوا أن صاروا خارج نارنيا، عالياً في قلب البراري الغربيّة التي لم يسبق أنْ رآها لا تِريان، ولا بطرس، ولا حتّى النَّسر بصّار. ولكنّ اللورد ديغوري والليدي پولي سبق أن رأياها، فقالا: «هل تذكُرين؟ هل تذكُر؟» وقد قالا ذلك بصوتَين ثابتَين، بِلا لُهاث، مع أن المجموعة كلّها كانت آنذاك تجري بسرعة تفوق سرعة السهم وهو طائر.

إذ ذاك قال تِريان: «ماذا أيُّها اللورد؟ أصحيحٌ إذاً — كما تحكي القِصَص — أنّكما أنتما الاثنين كنتما في رحلةٍ إلى هُنا يومَ صُنِع العالم؟»

فأجاب ديغوري: «نعم، ويبدو لي كما لو كان ذلك يومَ أمسِ تماماً».

وسأل تِريان: «وعلى ظهر حصانٍ طائر؟ هل هذا الجُزء صحيح؟»

أجاب ديغوري: «بكلّ تأكيد!»

غير أنّ الكلاب نبحت قائلة: «أسرِع، أسرع!»

فركضوا أسرع فأسرع حتّى صارت حركتُهم أشبه بالطيران منها بالركض. حتّى إنّ النَّسر فوقَ رؤوسهم لم يكن يتحرّك أسرعَ منهم. فاجتازوا وادياً متعرّجاً بعد وادٍ مُتعرّج، وصعدوا سفوح التلال المنحدرة، ثمّ ساروا هابطين من على السفوح الأُخرى أسرعَ من ذي قبل، تابعين النهر حيناً، وعابرين إيّاه حيناً، ومنزلقين بخفّةٍ حيناً على سطوح البُحيرات الجبليّة كما لو كانوا زوارق سريعةً حيّة، حتّى شاهدوا أخيراً تلّةً خضراء ملساء عند الطرف البعيد من بحيرةٍ طويلة بدت زرقاء مثل الفيروز. وقد كانت جوانب تلك التلّة منحدرةً كجوانبِ هَرَم، وحول قمّتها تماماً قام سورٌ أخضر، ولكن من فوق السور تدلّت أغصانُ أشجارٍ بدا ورقُها مثلَ الفضّة وثمرُها مثل الذهب.

ثمّ جأر أُحاديُّ القرن: «أبعدَ إلى فوق، وأبعد إلى العمق!» فلم يتلكّأ أحد، بل اندفع الجميع مباشرة نحو أسفل التلّة، ثمّ وجدوا أنفسهم راكضين عليها صعوداً، تقريباً مثلما يجري الماء من موجةٍ متكسّرة صعوداً على صخرٍ ضخم عند رأس خليج ما. ومع أنّ المُنحدر كان شديد الانحدار، كجانبَي سطح بيتٍ من قرميد تقريباً، كما أنّ العشب كان ناعماً كمرج البُولنغ، فلم ينزلق أحدٌ منهم.

ولم يتمهّلوا إلّا لمّا بلغوا القمّة فعلاً. وقد كان سبب إبطائهم أنّهم وجدوا أنفسهم في مواجهة أبواب ذهبيّة ضخمة. ومضى قليلٌ من الوقت قبل أن يتجاسر أيُّ

منهم على تجريب الأبواب لعلَّها تنفتح. فقد شعروا جميعاً بمثل ما سبق أن شعروا به تجاه الفاكهة: «هل نجرؤ؟ أهذا صواب؟ أيُمكن أن يكون هذا مقصوداً لنا نحن؟»

ولكنْ بينما هم واقفون هكذا، إذا ببوقٍ عظيم، ذي صوتٍ عالٍ وعذبٍ على نحوٍ عجيب، يُنفَخ فيه من مكانٍ مَا داخل البُستان المُسوَّر، فتنفتح الأبواب على وسعها.

وقف تِريان حابساً نَفَسه، ومُتسائلاً عمَّن يُمكن أن يخرج. ثُمَّ إنَّ الذي خرج كان آخِر شيءٍ توقَّعوه: فأرٌ ناطق صغير أنيق برَّاق العينين، ذو ريشةٍ حمراء مشكوكة في حلقة على رأسه، ومخلبه الأيسر مُتَّكئٌ على سيف طويل. وقد انحنى انحناءةً جميلة جداً، وقال بصوته الحادِّ الصافر:

«أهلاً بكم، باسْمِ الأسد. ادخُلوا أبعدَ إلى فوق، وأبعدَ إلى العُمق».



ثمَّ رأى الملكُ تِريان الملكَ بطرس والملك إدمون والملكة لوسي يندفعون إلى الأمام ليركعوا نصف ركعة ويُحيُّوا الفأر، وقد صاحوا كلُّهم: «ريبيتشيب!» وتسارعت أنفاس تِريان من فرط دهشته، لأنَّه عرف آنذاك أنَّه كان ينظر إلى واحدٍ من أبطال نارنيا العظماء: ريبيتشيب الفأر الذي خاض القتال في معركة بيرونا العظيمة، وبعد ذلك أبحر إلى آخِر العالم مع الملك كاسپيان الملاَّح. ولكن قبل أن يتاح له من الوقت ما يكفي للتفكير في ذلك، أحسَّ ذراعين قويَّتين تطوِّقانه، ولحيةً تمسُّ وجهه فيما يُقبِّل خدَّاه، وسمع صوتاً يذكُره جيِّداً قائلاً: «عجباً، يا فتى! لقد صرتَ أصلبَ عوداً وأطولَ قامةً ممَّا كنتَ لمَّا لمستُك آخِر مرَّة!»

كان ذلك هو أباه، الملك الصالح إرليان؛ ولكنَّه لم يبدُ كما رآه تِريان آخِر مرَّة لمَّا جيء به إلى القصر شاحباً وجريحاً بعد معركته مع المارد، ولا حتَّى كما تذكَّره تِريان في سنيه الأخيرة إذ كان محارباً أشيب الشعر. بل كان ذلك أباه، شاباً ومَرِحاً، مثلما استطاع أن يتذكَّره في أيَّامه الباكرة جداً، لمَّا كان هو نفسُه صبيّاً صغيراً يلعب ألعاباً مع أبيه في حديقة القصر بكيرپراڤيل، قُبيلَ الإواء إلى السرير في مساء كلِّ يومٍ من أيَّام الصيف. وقد عادت إلى ذاكرته حتَّى رائحةُ الخبز والحليب اللذين كان يتعشَّاهما.

وفكَّر جَوهَر: «سأتركهما قليلاً، ثمَّ أذهب وأُسلِّم على الملك إرليان. فكم تفَّاحةٍ شهيَّةٍ أعطاني لمَّا كنتُ مهراً

صغيراً!» ولكنْ في اللحظة التالية، صار لديه شيءٌ آخر يفكِّر فيه؛ لأنَّه من البوّابة خرج حصانٌ مُقتدِرٌ ونبيلٌ جدّاً بحيث يشعر حتّى أحاديُّ القرن بالحياء في حضرته: حصانٌ ضخمٌ مُجنَّح. ثمَّ نظر هُنيهةً إلى اللورد ديغوري والليدي بولي وصهل قائلاً: «ماذا يا ابني عمّي!» فهتفا كلاهما: «أبو الريش! أبو الريش الهَرِمُ الطيِّب!» واندفعا ليُقبّلاه.

ولكنْ آنذاك كان الفأر يحثُّهم من جديد على الدخول. وهكذا عبروا جميعاً الأبواب الذهبيّة إلى قلب الرائحة الطيِّبة التي هبَّت عليهم من داخل البستان، ثمَّ إلى المزيج الرقيق من ضوء الشمس والظلِّ تحت الأشجار، وهم يمشون على تربة ليِّنة رطبة مُرقَّطة بالزهر الأبيض. وكان أوّل أمر صعقهم جميعاً أنَّ المكان أكبرُ بكثير جدّاً ممّا قد بدا من الخارج. إنّما لم يتَّسع الوقتُ لأيٍّ منهم للتفكير في ذلك، لأنَّ مخلوقاتٍ أخذوا يتقدَّمون من كلِّ ناحية لملاقاة القادمين الجُدد.

وقد بدا أنَّ كلَّ شخصٍ سبق أن سمعتَ به (إن كنت تعرف تاريخ هذه البلاد) كان موجوداً هناك. إذ كان هنالك ريشنور البومة وبِركهموم ساكنُ المستنقعات، والملك ريليان المُحرَّر من السِّحر وأمُّه ابنةُ النَّجم وأبوه العظيم كاسپيان بعينه. وبقربه تماماً كان اللورد درينيان واللورد بيرن، وطرمبكِن القزم، وجانيكماً الغُرَير الطيِّب، مع عصفُلواد القنطور، ومئةٌ آخرون من أبطال حرب

التحرير العُظمى. ثُمَّ أقبل من الجهة الأُخرى كور ملك بلاد آرخيا، مع الملك لُون أبيه وزوجته الملكة أراڤيس، والأمير الشُّجاع كورين قبضة الرعد، أخو كور، وبِري الحصان وهُوين الفَرَس. ثُمَّ كان العجب الفائق كلَّ عجب في نظر ترِيان أنَّه جاء من الماضي البعيد البعيد السمُّوران الطيّبان وطَمنوس الفُون. عندئذٍ حصل ترحيب وتقبيل ومصافحة بالأيدي وإحياء للنُّكات القديمة (وليست لديك فكرةٌ كم تبدو النكْتة القديمة جيِّدة عندما تنبشها بعد استراحةٍ دامت خمس مئة سنة أو ست مئة!). ثمَّ تقدَّمت الجماعةُ كلُّها إلى مركز البستان حيث كان طائر العنقاء* جاثماً على شجرة وناظراً إليهم جميعاً تحته، وعند كعب تلك الشجرة كان عرشان عليهما ملكٌ وملكة عظيمان وجميلان للغاية بحيثُ انحنى الجميع أمامهما. وحسناً فعلوا، لأنَّ هذين كانا الملك فرانك والملكة هيلانة اللذين منهما تحدَّر أقدمُ ملوك نارنيا وبلاد آرخيا. وقد شعر ترِيان بما يمكن أن تشعر به أنت إذا جيء بك للمثول أمام آدم وحوّاء في كلِّ مجدهما.

وبعد نحو نصف ساعة — أو ربَّما بعد نصف قَرنٍ لأنَّ الوقت هناك ليس كالوقت هنا — وقفت لوسي

* طائر العنقاء أو الفينيق: طائر خرافي، يُزعَم أنَّه كان يحرق نفسَه ويتحوَّل الى رماد، فينبعث في حالة من الشباب والجمال. ولذا فهو يشير إلى الشباب والجمال المتجدِّدَين دائماً.

مع صديقها العزيز، صديقها النارنيانيّ الأقدم، الفُون طَمنوس، مُطِلَّينِ من على سور ذلك البستان ومُبصِرَين نارنيا كلَّها ممتدة دونهما. ولكنْ لو نظرتَ إلى الأسفل لوجدت تلك التلَّة أعلى بكثير ممّا حسبتَ، إذ بَدَت سفوحها غائرةً بجروفها الصخريَّة المتألِّقة آلافاً من الأمتار تحتهما، حتَّى بَدَتِ الأشجار في ذلك العالم الأسفل مثلَ حبّات الملح الأخضر، لا أكبر. ثمَّ دارت لوسي نحو الداخل من جديد، حيث وقفَت وظهرُها نحو السور، ونظرت إلى البستان.

أخيراً قالت وهي مستغرقة في التفكير: «لقد فهمتُ... قد فهمت الآن! فهذا البستان مَثَلُه مثل الإسطبل. إذ إنَّه في الداخل أكبر بكثير ممّا كان في الخارج».

فقال الفون: «طبعاً، يا ابنة حوّاء. فكلَّما تقدَّمتِ أعلى إلى فوق وأبعدَ إلى العمق، يصير كلُّ شيءٍ أكبر. إنَّ الداخل أوسع من الخارج».

ثمَّ حدَّقت لوسي تحديقاً شديداً إلى البستان، فرأت أنَّه لم يكن في الحقيقة بستاناً على الإطلاق، بل هو عالمٌ كامل فيه أنهارٌ وغاباتٌ وبحر وجبال. غير أنَّ هذه التضاريس كلَّها لم تكن غريبة، إذ عرفتها تماماً. فقالت: «فهمتُ! ما تزال هذه نارنيا، وهي حقيقيَّة وجميلة أكثر من نارنيا التي في الأسفل، تماماً مثلما كانت هذه حقيقيَّة وجميلة أكثر من نارنيا خارج باب الإسطبل! لقد فهمت... عالمٌ داخِلَ عالَم، نارنيا داخلَ نارنيا...»

وقال السيِّد طمنوس: «نعم، مثل البَصَلة: ما عدا أنَّه كلَّما توغَّلتِ داخلاً فداخلاً تكونُ كلُّ دائرةٍ أكبر من الدائرة الأخيرة».

ثمَّ نظرت لوسي إلى هذه الجهة وتلك، فتبيَّن لها حالاً أنَّ شيئاً جديداً وجميلاً قد حصل لها. فإلى أيِّ شيءٍ تطلَّعت، مهما كان بعيداً، فما إن ركَّزت نظرها عليه بثبات حتَّى صار واضحاً وقريباً جدّاً، وكأنَّها كانت تنظر من خلال تليسكوب. وقدِ استطاعت أن ترى الصحراء الجنوبيَّة كلَّها ووراءها مدينة طشبانَ العظيمة؛ وإلى جهة الشرقِ استطاعت أن ترى كيرپاڤيل عند حافة البحر، ولا سيَّما نافذة الغرفة التي كانت لها ذات مرَّة.

وبعيداً في البحر استطاعت أن تكتشف الجُزر، جزيرةً بعد أُخرى حتَّى آخِرِ العالم، وفي ما وراء ذلك: الجبلَ الذي سمَّوه بلد أصلان. غير أنَّها الآن رأت أنَّه كان جزءاً من سلسلة جبال كبيرة التفَّت كالسُّوار حول العالم كلِّه، وبَدَت قُدَّامها قريبةً منها جدّاً.

ثمَّ نظرت إلى يسارها فرأت ما حسبته طَرَفاً عظيماً من غيمةٍ زاهية اللون برّاقة تفصلها عنهم هُوَّة سحيقة. ولكنَّها حدَّقت تحديقاً شديداً فرأت أنَّها لم تكن غيمةً قطّ، بل هي أرضٌ حقيقيَّة. ولمَّا ركَّزت نظرها على بُقعة معيَّنة منها، هتفت في الحال: «بطرس! إدمون! تعالَيا انظُرا! تعالَيا بسرعة». فجاءا ونظرا، لأنَّ أعيُنَهما أيضاً كانت قد صارت مثل عينيها هي.

وهتف بطرس: «عجباً! إنَّها إنكلترة. وذلك هو البيتُ بذاته: بيتُ الأُستاذِ كيرك العتيقُ في الريف، حيث بدأت جميع مُغامراتنا!»

فقال إدمون: «كنتُ أحسب أنَّ ذلك البيت قد تهدَّم».

وقال الفُون: «لقد تهدَّم فعلاً. ولكنَّكم الآن تنظرون إلى إنكلترة التي هي داخل إنكلترة، إلى إنكلترة الحقيقيَّة، تماماً كما أنَّ هذه هي نارنيا الحقيقيَّة. وفي إنكلترة الداخليَّة تلك لا يُدمَّر أيُّ شيءٍ صالح».

وفجأةً حوَّلوا أنظارهم إلى بُقعة أُخرى. عندئذٍ شهق بطرس وإدمون ولوسي تعجُّباً وأخذوا يُلوِّحون بأيديهم: إذ رأوا هنالك أباهم وأُمَّهم وهما يلوِّحان لهم بالمقابل عبر الوادي الكبير السحيق. وكان ذلك أشبه بما يجري حين ترى أشخاصاً يُلوِّحون لك من ظهر سفينة كبيرة وأنت تنتظر على رصيف الميناء لاستقبالهم.

إذ ذاك قالت لوسي: «كيف يمكننا أن نصل إليهما؟»

فقال السيِّد طمنوس: «ذلك سهل! فإنَّ ذلك البَلَد وهذا البلد — وجميع البلدان الحقيقيَّة — ليست إلَّا قِمَمٌ بارزة من جبال أصلان العظيمة. وما علينا سوى أن نمشي على طول تلك الجبال، صعوداً وداخلاً، إلى أن تتَّصل بعضُها ببعض. اسمعوا! هوذا بوق الملك فرانك: فعلينا كلّنا أن نصعد».

وسرعان ما وجدوا أنفسهم جميعاً يمشون معاً — وكم كان ذلك موكباً عظيماً بهيّاً! — نحو جبالٍ أعلى ممّا يمكنك أن ترى في هذا العالم، حتَّى لو كانت موجودةً حتَّى تراها. إنَّما لم يكن على تلك الجبال ثلج، بل كان فيها غاباتٌ وسفوح خضراء وبساتينُ طيِّبة الثمر وشلّالات برَّاقة، أحدها فوق الآخر، صعوداً إلى ما لا نهاية.

ثمَّ إنَّ الأراضي التي كانوا ماشين عليها أخذت تضيق أكثر فأكثر كلَّ حين، وإلى كِلا جانبَيها وادٍ سحيقٌ، وعبْرَ ذلك الوادي كانت الأرض التي هي إنكلترة الحقيقيَّة تقترب أكثر فأكثر.

وكان النور قُدَّامهم يزداد قوَّةً وبهاءً. وقد رأت لوسي أنَّ سلسلةً عظيمة من الجروف الصخريَّة المتعدِّدة الألوان ترتفع أمامهم كأنَّها دَرَجُ ماردٍ أو عملاق. عندئذٍ نسِيَت لوسي كلَّ شيء آخر، إذ إنَّ أصلان نفسه كان مُقبِلاً، قافزاً نحو الأسفل من جُرفٍ إلى جرف كشلّال حيٍّ من القُدرةِ والجَلال والجمال!

وكان أوّل شخصٍ دعاه أصلان إليه هو لَغزان الحمار. وما كنتَ لترى على الإطلاق حماراً يبدو أضعف وأسخف ممّا بدا لَغْزان وهو يمشي نحو أصلان. وقد بدا، إلى جانب أصلان، صغيراً جدّاً كهُرَيرة بجانب نَمِر.

ثمَّ حنى الأسد رأسه وهمس بشيء في أُذن لَغزان. وما إن سمع لَغْزان ذلك حتَّى تهدَّلت أُذناه الطويلتان. إلَّا أنَّ أصلان عاد فهمس بشيء آخر حالما سمعه لَغزان

انتصبت أُذناه من جديد. إلّا أنّ الآدميّين لم يسمعوا ما قاله الأسد في المرّتين كِلتيهما.

بعدئذٍ التفت أصلان إليهم وقال: «إنّكم لا تَبدون بعدُ سُعَداءَ كما أُريد لكم أن تكونوا».

فقالت لوسي: «نحن خائفون جدّاً من أن نُصرَف بعيداً، يا أصلان. فأنت غالباً ما صرفتَنا إلى عالَمِنا الخاصّ».

أجاب أصلان: «لا خوفَ من ذلك. ألَم تعرفوا حتى الآن؟»

فقفزت قلوبُهم فرحاً، وانبعث في داخلهم رجاءٌ غريبٌ عجيب.

ثمّ قال أصلان برِقّة: «لقد وقع حادث سير حقيقيٌّ على سكّة الحديد. فأبوكم وأُمّكم وأنتم كلُّكم صرتُم — كما كنتم تقولون في أراضي الظِلال — أمواتاً. لقد انتهى الفصل الدراسيّ؛ وقدِ ابتدأتْ أيّام العطلة. الحلمُ انتهى؛ وهذا هو الصباح».

وبينما هو يتكلّم، لم يعُد يبدو في نظرهم شبيهاً بأسد. ولكنّ الأشياء التي بدأت تحدث بعد ذلك كانت فائقة العظَمة والجمال بحيث لا يمكنني أن أصفها.

وبالنسبة إلينا، هذه نهاية القصص كلّها. إنّما يمكننا أن نقول حقاً بمنتهى الصدق إنّهم كلّهم عاشوا في سعادة غامرة ونعيمٍ مُقيم إلى الأبد. ولكنْ بالنسبة إليهم لم تكن تلك إلّا بداية القصّة الحقيقيّة. إذ إنّ كلّ حياتهم في هذا

العالم وجميعَ مغامراتهم في نارنيا لم تكن إلّا الغلاف وصفحة العنوان. فها هم الآن يبدأون أخيراً الفصل الأوّل من القصّة العظيمة التي لم يقرأها قطّ أحدٌ على الأرض. وهي قصّةٌ تستمرّ إلى الأبد، وكلُّ فصلٍ فيها أجملُ من سابقِهِ.

كلايف ستيبلز لويس: وُلِد عام ١٨٩٨، وكان يُعرَف باسم «جاك» عند أصدقائه. كان لويس وصديقه الحميم جي آر آر تولكين، صاحب ثلاثية «سيد الخواتم»، عضوين في نادي «إنكلينغز»، وهو نادٍ غير رسمي لكُتّاب كانوا يلتقون في مقهى لمناقَشة أفكارٍ للقصص والروايات. عشق لويس للقصص الخيالية والأساطير والقصص الخرافية القديمة، بالإضافة إلى الإلهام النابع من فترة طفولته، قادتاه إلى كتابة «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وهو من أكثر الكتب المُحببة على مر العصور. وقد كتب بعده ستة كتبٍ أخرى، كوّنت معاً ما يُعرف باسم روايات «عالم نارنيا». وقد مُنِح آخر كتابٍ منها، وهو «المعركة الأخيرة»، جائزة «ميدالية كارنيغي»، التي تُعتبَرَ من أسمى الجوائز التي تُمنَح للتفوق والبراعة في كتب الأطفال.